

# القرى الأولى في بلاد الشام

من الألف التاسع حتى الألف السابع ق. م.

ترجمة : الياس مرقص

• - دار الحصاد للنشر والتوزيع - سورية - دمشق - بزمكة ، جانب

وكالة سانا - ص. ب : ٤٤٩٠ هاتف ، فاكس : ٢١٢٦٣٢٦

• - جميع الحقوق محفوظة لدار الحصاد الطبعة الأولى ١٩٩٥

## مقدمة المترجم

— I —

«القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاسع إلى الألف السابع قبل الميلاد» . . . منذ مطالعتي لهذا الكتاب قبل ست سنوات وأنا أفكر في نقله إلى القارئ العربي . الأسباب ؟ لنقرأ العنوان مرة ثانية .

«القرى الأولى» ، نشوء القرى . نحن اليوم نحب «المدن» . . .

«بلاد الشام» (أو في النص الفرنسي وبالمصطلح الفرنسي «سورية - فلسطين» Syrie - Palestine) حقيقة ما ، واقع ما . هذا حسب عنوان الكتاب ومتم الكتاب . بلاد الشام كينونة تاريخية ، تتكون وتطفو آنذاك ، اجتماعية - حضارية ، إنتاجية - عيشية - روحية ، قبل «اللغة» و«القومية» و«الدولة» و«الدول» و«السياسة» وكل هذا الذي يستهويننا عادة . قضية كوفان وآخرين تقع في ما «قبل» هذا ، منطقياً وتاريخياً ، في ما قد يكون قاعه وقاعدته .

«من الألف التاسع حتى الألف السابع ق م» ، وأيضاً من الألف العاشر حتى الألف السادس أو الخامس . هذا ، تاريخياً ، قبل «الهجرات العربية السامية» ، وقبل الحضارات النهرية الكبرى ، مصر وبلاد الرافدين ، قبل الكتابة والأبجدية ، المدن والمدن الكبرى ، التجارة البرية والبحرية ، الدولة والدول . إنه في «ماقبل التاريخ» وفي «تمهيد التاريخ» أي في هذا الذي يقيم الأساس لكل تاريخ . إنه في الاجتماع البشري الذي ليس بدونه دولة ودول .

موضوع «الهجرات العربية - السامية» موضوع يفتح عادة ، في كتبنا المدرسية ،

تعليم التاريخ ، تاريخ الوطن . وقد يبدأ الكتاب المدرسي ، مثلاً في الصف الخامس الابتدائي (سورية) ، أو في صف أعلى منه ، بمقدمة ، سريعة ، عن «ما قبل التاريخ» ، عن «الإنسان الأول» ، العصور الحجرية ، زمن الصيد والقطف مع صور عن بعض الأدوات . لكن الانتقال من هذه المقدمة ذات الطابع العمومي والعالمي إلى قضية «الهجرات العربية السامية» (المعززة بخريطة من أسهم) في وطننا العربي أو بالأصح في جزء محدد منه ! - ليس انتقالاً بل هوة . الكدح البشري يظهر في المقدمة تلك ، ويختفي أو تقريباً ، في الفصول التالية ، الفصول «التاريخية» و«الحضارية» و«الأمجادية» لصالح «الهجرات العربية» (وأما ! ) «الشعوب الوافدة» غير العربية (مثل السومريين : فإنهم يقعون ، في تسلسل الكتاب المدرسي المذكور ، وبموجب «منطقه» ، بعد الأكاديين الخ) وربما «الاستعمار المقدوني» . . . وصولاً إلى الفتح العربي الاسلامي أو التحرير العربي . . . هنا ، بعد أمجاد البداية (الأمويون والعباسيون الأوائل) وبروز الجوهر ، تأتي «الانفصالات» ، مفهومة أو غير مفهومة ، معترفاً بها أو غير معترف بها ، أي يأتي انقسام الجوهر ، الانقسام «المفروض» : فكرة الجوهر والأصل أكلت فكرة التشكل . ثم . . . يطغى النضال ضد العدو الخارجي ، الشعور الكارثي (البادئ مع البداية ، تحت السطح) يشتد ، الحالة الاجتماعية والتاريخية غائبة ، وهناك فجوة طويلة (عصر الممالك ، العصر العثماني) ، الزراعة والديموغرافيا خارج حقل النظر ، «الانحطاط» غير مفهوم أو هو (عند أهل الرقة اللاقومية) منفي . التاريخ يُختزل أكثر فأكثر كمحتويات ، كمنطق ، كزمان وكمكان ، المغرب العربي غائب . . . هذه المادة الدراسية ، في وضعها الراهن ، بعيدة عن تحقيق مهمتها الطبيعية والمنشودة ، إنها بعيدة ، كموضوع قائم أمام الطلاب ، عن ثلوث المعقولة والموضوعية والاجتماعية ، إنها لاتسهم إسهاماً صحيحاً في تكوين الوعي العربي والوجدان العربي . . .

في هذه الحال ، بدا لي كتاب جاك كوفان ذا أهمية تتعدى كثيراً نطاق «المختصين» (إذا ما وُجدوا : فقد لا يكون عندنا مختصون في «ما قبل التاريخ» و«تمهيد التاريخ») لتصيب قضية الثرية وقضية الثقافة في أساساتهما .

وإن مطالعتي للاتحة مواد «فرع التاريخ» في الجامعة تزيدني اقتناعاً بسوء الحال . هذا

(\*) الجذر الروحي - الفكري البدهي ، الا وهو الاعتراف بالتاريخ كدراما وكتقدم ، مفقود ، رغم وضوحه في دين الاله الواحد ، عقيدة خلق (العالم) والإنسان ، طبيعته وقلبه وقلبه (في القرآن ، أو في سفر التكوين ...)

المجموع ليس علماً ، إنه (في أحسن حال) مادة لعلم ، وهو يتناسب كجهد يُبذل وكرزمن جهد مع سنة واحد لا أكثر . فعلياً ، يدرس الطالب شهراً أو شهرين في السنة ، و«ينجح» . . . بالنسبة له ، إن الجامعة (في هذا الفرع وفروع أخرى) انخاف من مشقة التعليم الثانوي وصف البكالوريا . هنا أيضاً فائدة كتاب كوفان وكتب كثيرة من هذا «النوع» أو هذه «الطبيعة» .

يجب أن ندرس ، يجب أن نعرف قضية القرى في بلاد الشام بين الألف العاشر والألف الخامس قبل الميلاد ، إذن قبل ماري وإيلا وأوغاريت وسيانو ، يجب أن نقرأ قصة الانتقال من كهف إلى بيت ، من قطف وصيد إلى زرع ورعي ومكاثرة ، من الأخذ والقصص إلى الإنتاج بحصر المعنى ، إنتاج العيش ، يجب أن نقرأ قضية التملك والأنسنة في وطننا الأول - بمعنى ما ، وفي مستوى ما وحاسم - والذي هو وطننا . إنها «الثورة الريفية» ، «العبء الكبير» .

لنقل إن هذه المسألة القديمة راهنة قومياً وعالمياً : البشرية تنعكس اليوم إلى انسان القنص والإسراف والتخريب . . . على راهنية القضية ينتهي كتاب عالم الآثار الفرنسي ، الذي - على سبيل المثال ، ومن جهة أخرى إن صح القول - يدخل في «مناظرة» (أي في صلة ، في تماس أو احتكاك) مع كتاب عنوانه وموضوعه «الماركسية ونظرية الشخصية» (تأليف لوسيان سيف Seve) . لنقل إذاً إن هذا التخصص - التخصص ، هذا العلم المحدد والكلي فعلاً ، هذا الانضباط الميداني discipline الذي هو فكر انساني ، باختصار إن هذا الموقف العلمي - الفكري بعيد عن غالبية الوعي العربي الحاضر ، أو الحاضر الغائب ، المنقطع عن الواقع أو العالم ، الممتنع الآن عن الانسان وتاريخه ومصائره ، والذي . . . يستخدم أخطر كلمات اللغة البشرية كأنها بديهيات معلومة .

بالنسبة لي ، إن كتاب هذا المستكشف الفرنسي لتل مريبط على الفرات يساعدني على فهم الكلمات الكبرى حقاً ، الشعبية - الفلسفية : بيت ، وطن ، عالم ، وعي ، إنسان ، طبيعة ، تاريخ ، مجتمع ، فكر ، زراعة ، ثقافة ، صناعة ، أغراض ، أشياء ، ملكية ، تملك ، روح ، عمل ، قرية ، بلدة ، مدينة ، كومونة ، بلدية ، قيمة ، تبادل ، أخلاق ، أمة ، شعب ، الخ ، وأيضاً : ثورة . هذه ليست قضية لغوية خاصة ، عربية أو فرنسية أو ألمانية ، ولا حتى لغوية عامة أو محض ألسنية (هذا ، إذا كان ثمة من يؤمن بهذه الخفضية) ، بل هي قضية فكر يسعى إلى واقع وتاريخ لهما منطق . اللغة «تابعة» ، اختلاف اللغات ثانوي بالمقارنة مع القضية الأنفة ، ويمكن أن يخدم - إذا ما- جمعنا لغات مختلفة - في فهمها وجلانها . إن «الاعتناء» على «سلالم» أو «سجلات» مفرداتية



مختلفة<sup>(٥)</sup> يمكن أن يساعد على معرفة الموضوع الحقيقي بمساعدته على التحرر من العادات والصنميات التي تفرضها لغة بعينها (كل لغة بلا استثناء، فصحي أو عامية، قومية أو محلية، أدبية أو علمية أو شعبية أو إدارية الخ)

وأيضاً : ثورة ، انقلاب ، Revolution. يمكن القول إن موضوع هذا الكتاب هو «الثورة النيوليتية» ، أي «الحجرية - الجديدة» - مصطلح غوردون تشايلد (الماركسي غير «الأورثوكسي» الحسن الخط : سأعود إلى هذه النقطة) . . إنها «ثورة» استغرقت مئات السنين أو بالأصح ألوف السنين ، ويجب أن تؤخذ بمفردات أي : حدودها ، مفاهيم أوجملتها أو مترابطة كل متنوع ، متباين (متخالف) ومتفاعل ، لايمفردات السببية الميكانيكية (أ سبب ، ب نتيجة) التي توحى بها ماركسية مبسطة ، مبتذلة وماسحة : هذه «الماركسية» تُعزّز ب «التحسين» موقفاً بديهاً نابعاً من ضرورات العمل اليومي<sup>(٦)</sup> والحياة اليومية ومن «الادراك السليم» بوجه عام ، اقتصاديتها وعلميتها عطاء لسياسيتها ولايديولوجيتها ، وهي - عندنا - تعزّز بحدائثها شيئاً قديماً في ذهننا وثقافتنا . . .

يجب أن تؤخذ الثورة الكبرى المعنية ، «العتبة» كما يردّد بريدود Braidwood ، بوصفها عملية طويلة ، غير مباشرة وغير مفاجئة ، متعددة الجوانب والعناصر ، مع انتكاسات عديدة ومتكررة لجوانب وعناصر ، سيرورة واقع وجهاد بشري ، في مسار يلقي عليه كتاب قرانا الأولى ضوءاً جديداً ، بالاستناد إلى «الوثائق» : الأدلة والشواهد من هذا البلد وهذه البلاد : فلسطين والفرات ، البلاد الدمشقية والتدمرية ، نهر الأردن ولبنان والساحل الشمالي وطوروس الغربي . . .

البداية معروفة ، والنهاية معروفة ، والكتاب يدرس ما بينهما : المسار الشاق ، آليات التغيير ، مسيرة تكوّن الكائن الجديد : هذه مسألة نظرية في أعلى مستوى . «الثورة الريفية»

(٥) في هذا الصدد ، يجد القارئ وجهات نظر متخالفة (عبد السلام بو منجل ، جان بول شارني ، محمد العلوي العبد اللاوي ، وكاتب هذه السطور) في ندوة «حوار الحضارات» ، مجلة الوحدة ، باريس ، ديسمبر ١٩٨٤ .

(٦) كل عمل إنساني ، بما أنه محدد ، هو عملية عزل وقطع . بل إن العمل النظري والعلمي يفرض هذه العملية (مفاهيم ! مقولات ! ) كمبدأ ، لكنه يجب أن يكون واعياً بالتمام . «التحسين» الذي نؤمّن عنه لا يتعدى التأكيد على أن ب ترة الفعل ، تؤثر أو تفعل بدورها على آ . ما يلغى هو فكرة الجملة ، فكرة الدائرة ، فكرة الكائن الحي . حسب كمنط وهغل وانجلز ، في الكائن الحي ، إن كل الأشياء (العمليات ، الأعضاء الخ) هي ، بعضها لبعض ، وسيلة وغاية ! إن واحداً من أهم مفاهيم الديالكتيك هو مفهوم «الغاية الداخلية» .

تقيم الأسس النهائية ل «الحضارة» ، لحياة الانسان - النوع «الانسان العاقل» والعاقل العاقل ، يمكن أيضاً «ترجمة» ب «العالم» ، ولتاريخه اللاحق .

أن يكون لسوريا هذا الدور الكبير ، الطليعي والريادي (وإن اختلف على حجمه بطبيعة الحال ، وعلى المسارات عبر المعمورة وإن كان هناك «اتفاق بين المختلفين» على عراقية العملية ذاتها في أصقاع مختلفة وتحت سماوات مختلفة . . .) الخ هذا يمكن ويجب أن يكون بالنسبة لنا ليس فقط مفخرة وطنية وقومية ، بل بالضبط درساً في الوطنية والقومية والعروبة والوحدة والتقدم والثورة ، أول الدروس . نحن نوعاً ما أول من بلغ سنّ الرشد . علينا الآن أن نبلغ من جديد ، في مستوى أعلى : سنّ الرشد ، ثالثاً الاجتماعية والمقولية والموضوعية ، ضد الطفولة والمراهقة ، ضد أنوية أنا اللعب ولغة اللعب ، وضد البربرية والعجمية .

## — II —

لهذه الأسباب ، من أجل مسألة التعليم وقضية الوعي والثقافة ، فكّرْتُ بأنّ نقل هذا الكتاب ضروري وبأنّ أقوم شخصياً بهذا النقل . . . حالت دون ذلك أسباب كثيرة ، منها - عدا عن أحوال النشر العربي غير المشجعة للعمل الفكري والمربطة بالأحوال العامة . . - كثرة المصطلحات ، وخصوصية الميدان وتنوع الميادين الداخلة في القضية . بعد الدراسة والتجربة العملية ، يبدو لي الآن أن الصعوبة ليست متأتية من مسألة الاصطلاح العلمي مباشرة ، بل من قضية مصطلحات لغوية «عادية» تفتقد إلى مزيد من الضبط في لغتنا ، إلى الوحدة بين «الفصحي» و«العامية» ، إلى العمل الانساني ، كدح النجار والمعماري والزراع «مثقّف» الأرض . . . باختصار ، إنه غياب الوحدة : من وحدة سوق النشر إلى وحدة اللغة والمجتمع والعمل والحياة .

أما «اليوليتي» و«ميزوليتي» و«نيوليتي» ، مثلاً ، فيمكن (ويجب) أن تبقى كما هي ، مع الإشارة إلى أن :

ياليو = قديم ، ميزو = وسيط ، نيو = جديد (أو حديث) ، وليتي من ليتوس = حجر ، حجرّي<sup>(٧)</sup> . أما بروتو proto فهي تعني «تمهيد» أو «بداية» : «البروتو تاريخ» يقع «بين»

(٧) والميكروليت : حجر صغير ، شظية - من الخطأ الهروب من المصطلحات الأجنبية . سابقاً ، قال العرب : فيزياء ، فلسفة ، ميتافيزياء ، جيولوجيا ، بيولوجيا . . . بالطبع ، عدا ذلك ، لدينا منجم ←



ما قبل التاريخ préhistoire والتاريخ . والبروتو زراعة هي «تمهيد زراعة» ، زراعة أولى مبتدئة . archaïque = عتيق ، سابق للكلاسيكي ، أو بالأصح : شيء قات أوانه ، مسبق كلياً (كونياً ، عمومياً) في المنطقة أو في العالم (مع أنه قائم وموجود فعلياً) . . . هذه ليست «مشكلة» .

قد يكون هناك «مشكل» أمام Capridés و Caprinés الأول هو اسم الفصيلة (أو العائلة) ، الثاني اسم الجنس أو «تحت - فصيلة» . هذا المصطلحان الأوروبيان والعالميان يحيلان كليهما إلى الأصل Capra = العنزة ، التي تكون إذاً هي «المحور» لفظاً ، للفصيلة الكبيرة الجامعة والجنس الذي تحتها ( «تحت - فصيلة» ) والجامع بدوره لأنواع أجده ، في القاموس الفرنسي - العربي ، وحسب ما اصطلاحه العرب أصحاب الميدان العلمي المعني ، «الماعزيات» عن الثانية و«الغنميات» عن الأولى . لا أفهم سبب هذه المخالفة للاتجاه في الاصطلاح التومسي . أتصور أن الاصطلاح العالمي له مبرراته ، وأنه كان يمكن بالتالي أن يصطلحوا بـ capridés «ماعزيات» مثلاً (أي مع واو بعد الميم) . هذا من جهة . من جهة ثانية ، جهة النص الفرنسي الذي يتعامل مع تاريخ بيثي - انساني معين ، أرى أن كوفان استعمل Capridés مرة واحدة وذلك في الفصل الثاني ، بين موقعي الحاشيتين ٤٥ و ٤٦ ، حيث ذكرت بوصفها «حيوان الجبل» مقابل «حيوان السهب (غزلان ، أبقار ، خيليات)» . فيما بعد ، استعمل Caprinés (أي «تحت - الفصيلة» ) . هكذا مثلاً في الفصل الخامس . عند الحاشيتين ٦٨ و ٧٣ ، حيث ضمت ، وبشكل واضح ، العنزة والخروف ، الماعز والغنم (Capra - mouton , chèvre , ovis) ، والغلبة (في التأهيل) هي للطرف الأول . . . بعد تردد ، وحدت المصطلحين (مخالفاً النص الفرنسي) ، لكن وراء العنزة ، استعملت في الحالتين «ماعزيات» أرجو أن أكون قد وفقت في هذا «التصرف» .

سمحت لنفسي بمخالفة واعية ثانية . في نص الحاشيتين ٧٢ و ٧٣ من الفصل الرابع وجدت ، بدلاً من الرمزين PPNA و PPNB ، «الكلاسيكيين» على امتداد الكتاب ، وجدت PNA و PNB - اعتبرت أننا أمام خطأ مطبعي وأن المقصود هو هنا أيضاً PPNA و PPNB (وهما اختزال بالأحرف الأولى لعبارة «Prepottery Neolithic» . . . ) ، إذن «النيوليتي السابق للفخار A» و «النيوليتي السابق للفخار B» .

← كبير في جدول مزيادات الفعل الثلاثي ومشتقاتها ... هذا المتجم يمكن أن تأخذ منه ما يلزم لشتى الميادين وأن تقيم مصطلحات العلم والعلوم ، نهائياً ، مع دفع الاتباس ، وأن تعتمد بشكل خاص الصيغ الطويلة ، وغير المؤلفدة . هذا عمل لأكاديمية كبيرة مدعومة بالعمل الطبيعي لعشرات الآلاف من المفكرين أو المثقفين ...

### قضية من نوع آخر مسألة «المستطيل» :

عند بيت «rectangulaire» ، رأيت من الضروري ، إلى جانب كلمة «مستطيل» ، أن أقول «قائم الزاوية» . فمفهوم ومصطلح الـ rectangle لاعلاقة لهما بفكرة الاستطالة ، بل ينتسبان للزاوية القائمة وللمفهوم الاستقامة Rect . المستطيل ليس مستطيلاً إلا لزاء المربع ، وصفيّاً ، وهذه الإزائية ملتزمة : و «المربع مستطيل ذو . . .» ، رياضياً ؛ وقد يكون معنا ، في نص كوفان ، بيت مستطيل بُعدها ٥ x ٥ - مازلتنا ، في علمنا وتعليمنا ، ندعو الـ Rectangle «مستطيلاً» ، وندعو الـ Rayon في الدائرة «نصف قطر» (بل أخيراً أدخلنا «نق» بدلاً من «ر» انسجاماً مع «نصف - قطر» ! ) . هذا عكس مبدأ العمل المفهومي ، الاستنتاجي ، إنه عكس التسلسل . وأشك في أن يكون الإلحاح - إذا وُجد - على أن نصف القطر «أهم» من القطر ، وأن «المربع مستطيل ذو . . .» ، وافيّاً وكافياً وشافياً . المستطيل المزعوم ليس لزاء المربع ، بل أبوه . وهو ، بوصفه مستقيمت وقوائم ، مقابل أو معارض الدائرة (الانحنائية ! ) ، مثلاً وبشكل خاص . هنا أيضاً فائدة قضايها جاك كوفان وقراننا الأولى ! أجدادنا ، في وقت ما وبموجب منطق ما ، انتقلوا من البيت الدائري في حفرة . . . إلى . . . البيت «المستطيل» الذي يمكن من إضافة غرفة وغرف ، مع ما «يستتبعه» أمر كهذا في مستوى الزمرة الاجتماعية ، العائلة الخ . . .

المقولات (المفاهيم) كينونية ، تاريخية ، مرتبطة بالعمل الانساني . الانسان يكتشفها - يبتكرها . وأخيراً تكتشفها وتبتكرها المعرفة النظرية في المستوى النظري - العلمي . اللغة يبتكرها . «بين المستويين ، معهما ، ومتأخرة حتماً عنهما» (حتى اللغة الانكليزية متأخرة اليوم ، كمفردات ومصطلحات ، عن سير تقدّم العلوم وثورتها) . . .

تلك مسائل يمكن أن تواجه المترجم وأن يعاني منها ليست الوحيدة ولا الأهم . بالنسبة لي ، الأصعب كان التعامل مع أسماء أدوات الشغل ومواده وأجزاء الأدوات . . . ثمة فرق واجب بين Outil و instrument . الأول ، حسب القاموس الفرنسي العادي ، أداة شغل أو آلة (ماكينة) أو جهاز يخدم في . . . الثاني «شيء مصنوع يُستخدم من أجل تنفيذ عمل يدوي أو ميكانيكي» ، مثلاً أدوات التجار outills ، لنقل أداة شغل . outillage مجموع أدوات ، عدّة ، ولنقل «عتاد أدواتي» ، صونا لطابعها المقولي المفرد ولكي نجتمعها على أعتدة : جمع للمقولة outillage التي هي مجموع (\*) . . . عدا ذلك ،

(د) المفرد اللغوي يؤكد الطابع المفهومي في كلمات فرنسية كـ outillage , population (= سكان شعب ، جماعة : مقولة علم الاحصاء وعلم الديموغرافيا) ، papyssannerie (= الفلاحون) ، artisanat (= الحرفيون أو الحرافة) الخ . هذا التصرف اللغوي يؤكد كيانية تخطي الكائن المفرد (الجسم المفرد المرتئي) ، وهي كيانية حقيقية وليست محض مجموع لكائنات (أشياء) مفردة .



ثمة وجود فعلي وعملي لهذه المفاهيم الهندسية الرياضية ، وجود يرتبط بصناعة الانسان ، شغله ، إنتاجه . يرى بعض الكتاب : أن الانتقال من البيت المستدير إلى المستطيل ومن المنحني إلى المستقيم يرتبط بانتقال السلطة من المرأة إلى الرجل . . نظرياً : الدائرة مثالية الانحناء ، المنحني المثالي . وهذا يقابله (يعارضه) الخط المستقيم . إنهما على طرفي تقيض ، في المملكة المثالية الفكرية . السومريون اخترعوا الدولار (أو «العجلة») : العجلات تدور ، السيارة تتقدم . وهكذا الصناعة الحديثة ، الثورة الصناعية : دوران ← تقدم . وهكذا ماركس مع الاقتصاد السياسي ، مثلاً دورة المال كرأس مال : مال - سلعة - مال أكبر (مع «فضل») ، دورة «المال - الرأس مال» ، هي نمو ، ثمة نفي للنفي . في القرن الخامس عشر ، أعلن نقولا دوكوزا وحدة الانحناء والاستقامة . إذا رسمت خطاً «مستقيماً» لكن مع انحراف بدرجة صغيرة جداً وثابتة ولكن ٠.٠١ درجة ستكمل في اللانهاية . هنا ، في الواقع ومنطقه ومنطق التقدم (واللغة يجب أن تتبع ، بوعي ومسؤولية) ، مسألة تجريد ، عزل ، مسار من عمومية وتحدد وتخصص الخ بالنسبة لـ erminette (أو herminette) مثلاً ، تقول القواميس الفرنسية - العربية : قاقمة . . . ، بلَيْطَة . . . ، فأس النجار ، قديم . . . اعتمدت مبدئياً المصطلح «الأبعد» عن استعمالنا : قاقمة . واعتمدت لـ hache : فأس ، لكنها أيضاً بلطة (لعل البلطة ، فكرة البلطة ، هي الواقع الأقدم) . في أدوات الأثاث «الترلي»<sup>(\*)</sup> ، «المشكلة» أكبر ربما : قواميسنا الفرنسية - العربية تعتمد أكثر من «مرادف» أو «موازيات» ، لمصطلح فرنسي واحد . . . هناك قاموس مصطلحات آتارية قديم ولم يقدني عملياً . . . اعتمدت «غضار» Argile ، «طين» terre ، «غضار مكمل» argile rapportée ، «آجر» briques ، «خزف» ceramique (الكلمة الفرنسية شاملة ، واسعة الدائرة) و«فخار» poterie . . . اعتمدت «سهم» لـ flèche (مستبعداً سواها) و«رأس سهم» لـ pointe de flèche ؛ و«تمثال شخصي» أو «شخص» و«شخص» لـ figurine (كان يمكن أن أقول «دمية») . . . بذلت مجهوداً غير قليل ، وإني أتوجه بالشكر لجميع الذين ساعدوني فيه ، معلناً أن كل نقاط «عدم توفقي» تقع مسؤوليتها علي وحدي بطبيعة الحال .

### — III —

علماً بأن مشروعنا لم يكن ، بادئ بدء ، ترجمة الكتاب بل إعداد ندوة عنه : ففي

(\*) mobilier (= متحرك ، قابل للنقل ، مبدئيًا) . وهو أثاث نافع ، وظيفي ، يلبي حاجة عملية وحياتية . ليس زينة حضارية ملتبسة في أيامنا .

يوم من ربيع هذا العام ١٩٨٥ ، بلغني أن الكتاب قد تُرجم أخيراً ، وجدناه في إحدى المكتبات (طبعة جيدة جداً ، عند النظرة الأولى على الأقل ، فاحرة ، غالية الثمن)<sup>(\*)</sup> ، وقررنا عقد ندوة أو عدة ندوات من أجل دراسته وتناول بعض القضايا النظرية التي يثيرها : نفر من «الشباب» المهتمين ، اثنان من الآثاريين في مدينتنا (اللاذقية) ، وربما ندعو الأستاذ المترجم (الأستاذ : قاسم طوير) الذي هو من المختصين . وبدأنا الدراسة الجادة تمهيداً للندوة . لكن ما إن بدأنا حتى دهشنا . كان الكتاب الفرنسي في يدي ، وأردت التأكد من فهمي للحملة وردت في مقدمة بريدوود الانكليزية أو من شيء ما كان ينظرنا مسألة وقضية ، فلجأت إلى صديقي حامل النسخة العربية ، وكان هو نفسه يريد التأكد من أشياء كثيرة . . . وأصابنا الدهول .

أغلقتنا الكتاب . ونظرنا إلى الغلاف . العنوان العربي يقول : «الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألف التاسع والألف الثامن قبل الميلاد» إذاً ، «من الألف التاسع إلى الألف السابع صارت «بين الألف التاسع والألف الثامن»<sup>(\*\*)</sup> . وهذا غير ممكن ، منطقياً ورياضياً (بين «التاسع» و «الثامن» لا يوجد سوى العدم) وبالتالي لغوياً وعربياً . أما «التعويض» المعاكس الذي جعل «الألف العاشر» «الألف التاسع» في السطر الأول من نص كوفان (ص ٧ ، في ترجمة قاسم طوير) فهو خطأ آخر . . . وتساءلت : ألا يستعمل الألمان الأرقام الرومانية ؟ (فالأستاذ طوير خريج جامعة همبولدت) هل من المعقول أن يجهل مثقف VII و VIII و IX ؟

هكذا انسقنا ، مجبرين ، إلى عملية مطابقة بين النصين العربي والفرنسي ، أي بين «التعريب» والأصل ، صفحة صفحة ، جملة جملة . صارت هذه العملية ، دونما إرادة ثم بوعي وإرادة ، ترجمة جديدة للكتاب .

في هذه الترجمة ، التي لاتدعي الكمال ، السابع لا يصير ثامناً ولا العاشر تاسعاً : لاسيما وأتينا في علم تاريخي ؛ والختاير لاتصير قروداً (ص ٣٠ في ترجمة طوير) ، فـ sanglier غير singe ، رغم اشتراكهما في حروف كثيرة ، - حتى ولاسيما في «علم

(\*) دار المجد ، دمشق ، ١٩٨٤ (١٨٢ صفحة ، السعر ٥٠ ل.س) .

(\*\*) «الوحدة الحضارية» تعريب ناقل . يكفي أن أقول «بلاد الشام» أو «بالفرنسية» «سورية - فلسطين» حتى أكون أشرت إلى وحدة ، إلى كيان ، قبضت على مقولة ، أعطيت اسماً . توضيح «القرى الأولى» خسارة فادحة ، طيران «حضاري» .

«تين» = تسبب الخ . أما الألف الثامن بدلاً من الألف السابع فهو ... محال .

الآثار، وفي بلادنا، و«الارتفاع عن خط الاستواء» أي الدرجة على خطوط العرض (بالفرنسية latitude وهي غير altitude) لانتصير «ارتفاعاً عن مستوى سطح البحر» (ص ١٠٣، ترجمة طوير)، فهذه النقطة ذات صلة وثيقة بمسألة النبات (سياق القضية)، «الفقرات»، «الفقرات المحصول عليها بواسطة الغزال أو المنخل» لانتصير عدداً من «الهيكل العظمية» للأسماك (ص ٩٨)، فهذه النقطة تدخل في اختصاص البحث الأثاري، ربما (أنا خارج الميدان - لكن «لغوياً» هذا غير صحيح)؛ الخ الخ.

هنا، العالم الشهير لوروا - غورهان (أندره لوروا - غورهان)، عالم الأنتولوجيا والأنتروبولوجيا ومقبل التاريخ، لا يصير الباحثة الأثرية، المعروفة في سورية، «السيدة أرليت لوروا غورهان» (ص ١١١)، الفصل بين الاثنين يراعى في جميع الأماكن، ولاستغني عن لائحة المراجع التي لها فائدة أن تدرأ التباسات كهذه: الأول اسمه يبدأ بحرف A، والثاني أو الثانية يبدأ اسمها بـ Ari، وهذا فرق يفرق، ولا شيء عبث، وهما في اللائحة نوعان من التأليف مختلفان تماماً<sup>(٥)</sup>. لكن فائدة اللائحة أكبر من ذلك، وضرورة نقلها تنبع من الإحالات - الحواشي في متن الكتاب، وعددها بالآلاف (في كتاب طوير أيضاً)، وهي جميعاً تكفي بذكر اسم صاحب المؤلف - المراجع وسنة صدور مؤلفه، تاركة عنوان الكتاب أو البحث والمعلومات الأخرى (دار النشر، أو المجلة المختصة... إلخ). للائحة المراجع الماثلة في نهاية الطبعة الفرنسية لكتاب كوفان والغائبة عن طوير! كذلك، لاستغني، من جهتنا، عن جداول ضرورية<sup>(٦)</sup>، عن شروح الصور، عن أقسام من الحواشي - الإحالات<sup>(٧)</sup>. وهنا، في بعض هذه الحواشي، إذا قال الفرنسي إن التاريخ بالكربون ١٤ أعطى تاريخين هما كذا وكذا، لانتحوّل الكلام إلى: أعطى تواريخ تتراوح بين كذا وكذا. فقد يكون هذا التحويل بعيداً عن «علم الآثار»، وهو على كل حال بعيد عن اللغة ومخالف للأصل، وفي بعض الحالات غير ممكن بتاتاً: قد يكون حاصل العمل التاريخي أو التحديدي بالكربون ١٤ تاريخاً واحداً، أو تاريخين كذا وكيت لكن الثاني

(٥) مؤلفات الأول عناوينها: الإنسان والمادة؛ البيئة والتقنيات؛ أديان ما قبل التاريخ. الثانية لها بحثان في دراسة غبار الطلع في سوريا شبه الصحراوية وفي شانيدار وزاوي شيمي، صدرتا في مجلتيين. يبدو الأمر وكأن الأستاذ طوير حظي بالتعرف على الباحثة أرليت. أجل، إن التعرف على الناس مفيد. لكن القراءة ضرورية، ومعرفة بعض أساسيات العلم والثقافة ضرورية. على كل حال لا بد من شكره على المعلومة: Arietta هي.

(٦) جدولان زمنيان أساسيان في نهاية الكتاب.

(٧) طوير يستغني، وبلا أي حرج. الناتج: محال، لا فهم، لا قيمة...

بعيد جداً عن الأول ومرفوض لمخالفته بعض المعايير: هذا مانفهمه من كتاب كوفان، بل - أحياناً - في ترجمة طوير أيضاً. لذلك يجب الاستغناء عن «التصرف» الآنف: هذه الـ «تين» قاتلة!... لقد عزيت أيضاً عنوان الفصل الرابع (ص ٦١): «بين نهاية الألف الثامن والألف السابع ق. م.» خريشة رياضيات وتاريخ ولغة. مرة أخرى: بين الثامن والسابع لا يوجد أحد أو شيء.

هنا، في ترجمتنا، «الثقافة» culture لانتحول إلى «الفكر»، «العنيت» لانتحول إلى «مؤشرات»، «التيارات الفكرية الرئيسة» لا يتحولان إلى «مبدأين جاريين»، «النظرية» لانتصير «الفرضية» ولا العكس الخ الخ. هذا، ومثله كثير، كأنه انحياز من جانب طوير، لكنني لأفهمه. Culture كلمة ألمانية أيضاً (Kultur) وترجمتها «ثقافة» وربما «حضارة». أجل courant، كصفة هي، في عبارة L'eau courant، «الماء الجاري» في مطابخنا أو في غرف الطلبة الأجانب في باريس وغيرها، لكنها كموصوف: تيار، ماء أو فكر أو كهرباء أو إلهام الخ... إلخ.

هنا، في ترجمتنا نصوص العناوين. مثلاً عنوان الفصل الثالث «تطور العمارة»: من التطوفي حتى منتصف الألف الثامن ق. م. لا يصير «ارتقاء العمارة التطوفية في منتصف الألف الثامن قبل الميلاد» (طوير، ٣٣). أجل هنا «أفهم» جيداً! فالعنوان الفرنسي يقول: L'évolution architecturale: du natoufien au milieu du ٨<sup>e</sup> - mill. مع تكبير جميع الحروف بوصفه عنواناً. (١) - طوير حوّل كلمتي البداية من «موصوف وصفة» إلى «مضاف ومضاف إليه»، وهذا ممكن وصحيح. (٢) - طوير استغني عن النقطتين الفاصلتين، هذا ممكن بشرط بقائهما في الرأس، والأفضل (إذا كان البقاء المذكور صعباً) عدم الاستغناء عنهما. (٣) - إن du أو de يمكن أن تكون، في استعمال لغوي مهم، أداة الإضافة وحسب كما في قولنا بالفرنسية le livre du maître (كتاب المعلم)، لكن: ليس هنا. ويمكن أحياناً تحويل «المضاف والمضاف إليه» إلى «موصوف وصفة»، هنا. هنا، du، de هي حرف الجر «من». (٤) - كذلك، إن au يمكن أن تكون «في»، يمكن أن يكون معي: «في منتصف...». لكن: ليس هنا. هنا، a، au هي حرف الجر «إلى»، «حتى». (٥) - natoufien مذكّر بينما الموصوفان évolution و architecture (تطور، و، عمارة) هما كلاًهما في الفرنسية مؤنث. لا يمكن أن تكون natoufien صفة للمضاف ولا للمضاف إليه في «تطور العمارة» باللغة الفرنسية. فمؤنث الصفة المذكورة هو matoufienne شأنها شأن مئات الكلمات (صفات وأسماء) التي تنتهي بـ ien في المذكر. (٦) من جهة أخرى، طوير لم يستلهم اللغة الألمانية ولم يقرأ



فهرس المواد (cauvin) ص ١٦١). فيخلاف العنوان كما ورد في بداية الفصل (cauvin) ص ٢٢، حيث كل الحروف بلا استثناء كتبت بحرف طباعي كبير (لكن حيث العنوان وُزِعَ لإخراجاً على ثلاثة سطور، ينتهي الأول بالنقطتين، ويختص الثاني بزمان البداية: «من النطوفي»، والثالث بزمان النهاية: «حتى منتصف الألف الثامن»)، هنا في الفهرس جاءت الحروف عادية جميعاً ماعدا حرف N (في Natoufien) الذي شذَّ وكتب كبيراً. وبالألمانية، في الكتابة الألمانية الاسم الموصوف يبدأ دائماً بحرف كبير، بعكس الصفة التي تبدأ دائماً بحرف صغير. «إذن» (!)، لو «استلهم» طوير هذه النقطة لكان (ربما) أدرك أن Natoufien هذه ليست صفة لعنارة أو لارتقاء بل هي نفسها قد ارتقت وصارت هنا اسماً موصوفاً هو «النطوفي» بمعنى «العصر النطوفي». واضح أنه لم يستلهم ولم يقرأ الفهرس: أليست هذه القراءة نافلة؟ وهكذا فقد أعطانا عنواناً يقول «ارتقاء العنارة النطوفية في منتصف الألف الثامن» (طوير، ص ٢٣) وهذا يوقعنا في خطأ من نوع آخر، خطأ تاريخي وتاريخي، خطأ في التحقيق. طوير لم يتساءل متى ينتهي العصر النطوفي (أو كما يقول الألمان: الحالة، الشيء بأكبر معنى Sache). لعله ينتهي قبل منتصف الألف الثامن، قبل سنة ٧٥٠٠ ق. م. بالضبط، هذا مانفهمه من النص مراراً، حتى في ترجمة طوير: النطوفي ينتهي حوالي سنة ٨٣٠٠ ق. م. الفرق ٨٠٠ سنة، يجب تعلم حروف الجر، والمحافظة على النقطتين (:) بوضعهما قطعاً فاصلاً في «صميم» العنوان....

هنا، في ترجمتنا، الاحتمال لا يصير يقيناً، كذلك النفي لا يصير تأكيداً ولا التأكيد نفيًا، صيغ الماضي لا تتحوّل إلى حاضر أو مستقبل ولا العكس، عبارات الربط بين جملة وجملة تبقى كما هي<sup>(٥)</sup>. . . وإذا ما قرأ القارئ الصفحة الأولى من نص كوفان، فهم بسهولة أن هناك بداية وهناك مآلاً أو نقطة وصول وأنّ بينهما مساراً هو موضوع الكتاب ومسألة: لكن ليس الأمر كذلك في نص طوير (ص ٧). وإذا ما قرأ مقدمة برودود، أدرك مباشرة أن هناك منطقتين اثنتين في «آسيا الجنوبية الغربية»، من وجهة نظر «موضوعنا»، هما تحديداً منطقة بلاد الشام - ميدان كوفان - ومنطقة «طوروس الشرقي وزاغروس» (ميدان برودود وآخرين). طوير قال ذلك، لكنه أيضاً قال خلافه وعكسه، والنتيجة «تعادل». لقد أحلَّ «شعوب بلاد الشام» محلَّ «آسيا الجنوبية الغربية» (ص ٥)، وتكلم عن «منطقتي طوروس وزاغروس» (ص ٦)، فضاع المعنى وتاه الذهن في هذه

(٥) بخلاف ترجمة طوير، كقاعدة عامة، في جميع النقاط المذكورة...

الجغرافية الآثارية، النسبية تماماً، لكن - ربما؟! الأسلوبية والأمجادية. كذلك مصطلح «بلاد الشام»، في أماكن متنوعة من كتاب طوير: يمكن أن تكون «بلاد الشام»، «LA - SYRIE - PALESTINE»، وهذا صحيح ومبرر، لكن يمكن أن تكون أيضاً «SYRIA» وحشِب، وهذا سُحِلَ في نص كوفان. ومحالٌ أيضاً كلام من نوع قوله «وفي علم ما قبل التاريخ لمنطقتي بلاد الشام والمشرق» (ص ١١٢): هذا غير ممكن وبجميع المعاني الممكنة. إذا كان المشرق هو LEVANT فهو بشكل أخص بلاد الشام. وإذا وسَّعنا المعنى (فهذا من حقنا) كيفما شئنا تبقى بلاد الشام جزءاً مركزياً من «المشرق». لا يمكن أن تكون هنالك منطقتان هما بلاد الشام والمشرق. . . وعند الرجوع إلى الأصل، يتبين أن كوفان قال: «منطقة الشرق الأدنى». . . لاشام ولا مشرق ولا منطقتين.

هنا، في ترجمتنا، «الثورة النيوليتية» لاتصير «ثورة العصر الحجري» (ص ٧، وهي الأولى في نص كوفان) ولا «الثورة الحجرية» (ص ٨، مراراً): فهذا مُحال. كلها حجرية: النيوليتي (الحجري الجديد) والميزوليتي (الحجري الوسيط) والبالوليتي (الحجري القديم) القديم جداً، الطويل جداً جداً (مئات الألوف من السنين<sup>(٥)</sup>). كلها «حجرية»! كلها، وأقسام كل منها، «حجرية» وفي «العصر الحجري». وإذا ما قرأ القارئ في كتاب طوير: «ولقد أمكننا الأخذ بمفهوم تلك الثورة الحجرية عندما أظهر الأثريون خلال تنقيباتهم في بلاد الشام كافة الابتكارات التي أحدثتها العصر الحجري بصورة متزامنة فعلياً» (ص ٨)، عليه أن يجهد وأن يجاهد، عبر هذه الصفحة نفسها، وعبر الصفحات الفاتحة، العربية اللسان والفصاحة، وعبر هذا الكتاب «العربي» كله، لكي يدرك أن الأمر لا بد أن يكون غير ذلك تماماً، في الأصل الفرنسي: علماء الآثار الأوروبيون أدركوا الثورة النيوليتية بوصفها جملة تحولات واختراعات متوافقة فعلاً. هذا «في بلادهم»، أما التنقيبات في بلاد الشام فقد كشفت خلاف ذلك: البيوت والقرى (الاستقرار الحضري، التجمعات السكانية) سبقت الزراعة، والزراعة بالمعنى الواسع (عناية متنوعة بالأرض ومحاصيلها الطبيعية) سبقت الزراعة بحصر المعنى (الزراعة بالمعنى الضيق أو الوثيق، مع فعل الزرع أو الغرس كمحور)؛ وكذلك تربية الحيوان: أولاً نوع من منادمة أو مزاججة، ثم السيطرة أو التحكم، التربية والرعاية. . . إن «الثورة» جملة، وهي، هنا - في المصدر

(٥) الباليوليتي ينقسم بشكل أولي إلى أدنى (يمتد على جليديات و «ما بين جليديات») ثم أوسط ثم أعلى. بعد ذلك، يأتي الميزوليتي ثم النيوليتي. . . من غير الممكن أن نحدد في نص طوير أيهما أوهى عنده المقولات التاريخية أم الجغرافية؟ المقولات قُطِّعات، قُضِّلات. وهي هنا (زمان، مكان) في شكلها الأبسط. هذا بعيد عن «المغرب».



(بلاد الشام) - لم تظهر جاهزة من البداية و«تامة التسليح» . هذا ، لعمرى ، هو الجديد في الكتاب ، من الناحية النظرية العامة ، أو هو بالأصح قسم هام من جديد الكتاب : وإنه ركيزة المسألة التي يعالجها كوفان (نظام سير وترتيب الأمور ، تحليل المسار ، آلية التغير والتكون) . أجل ، هذا يمكن أن يجده القارئ عند طوير ، لكن يمكن أن يجد «خلافه» أيضاً . أخطاء لغوية ، أخطاء من نوع آخر ، «تصرفات» بالجملة والمفرق لأمير لها ، شطح ذاتي من أجل ملء فجوات القراءة ، تضيق لمعانٍ وشطب على مصطلحات ، استعاضة عن الضبط والدقة بالمعارة «الأدبية» (٩) الخ : القضية تضيق . . .

من العبث المتابعة . يستطيع القارئ ، إذا شاء ، أن ينشئ مطابقة بين ترجمتنا (الحرفية ، إن صح القول) وتعريب طوير ، على الفصل الأول مثلاً ، وهو أقصر الفصول (ص ٧ - ١٥ في ترجمة طوير) . هذا الفصل يتألف من ٢٦ مقطعاً . إن نظرة أخيرة على هذه المقاطع<sup>(١٠)</sup> ، في النسخة العربية كما صححتها ، وهي أمامي ، تكشف لي أن طوير أخطأ أخطاء غير قليلة في نيف وعشرين منها . . .

ليس كافياً أن يكون الأستاذ قاسم طوير «خريج جامعة همبولدت بألمانيا الديمقراطية بدرجة ماجستير في الآثار الإسلامية وتاريخ الفن» أو ليس كافياً أن كان ويكون «محاضراً في جامعة دمشق ، وفي جامعة لوس أنجلوس بكاليفورنيا ، أو محاضراً متجولاً في جامعات نيويورك ، بيل ، أوهايو ، أريزونا ، سان دييغو ، فيلادلفيا ، هاواي ، مونريال ، تورونتو ، الرياض ، وروما ، وصاحب أبحاث في المجالات العلمية الاختصاصية في سورية وألمانيا الاتحادية وألمانيا الديمقراطية وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة» (ص ١٨٠) ، وصاحب ١٢ تعريفاً لكتب في الآثار (مذكورة بأسمائها ، ص ١٨١) الخ ، لكي يترجم كتاب «القرى الأولى في بلاد الشام» . ليس كافياً ولا ضرورياً ! إن ترجمة كتاب جاك كوفان تحتاج إلى معرفة اللغة الفرنسية ، وإلى بضعة أمور أخرى ، بينها أمر أولي يجعلك - على سبيل المثال - ، إذا ما ترجمت SANGLIERS بقروء وإذا ما اكتشفت ، بعد صفحات كثيرة من ذلك ، في موقع تالي (طوير ، ص ١٤١) ، أنها «خنازير برية» - تعود وتبحث عن خطئك بقصد تصحيحه . هذا ما لا يفعله طوير لسوء الحظ . لعله لم يقرأ ما كتب : القراءة ليست تجوُّلاً ، الذهاب إلى تورنتو وهاواي لا يفيد ، الأفضل منه قراءة فيلسوف

(١٠) أخطاء طوير الرئيسية ليست في مفردات عادية أو مصطلحات علمية من الصعب إحصاؤها . إنها في الجمل ، في المقاطع ، في الاستثناء عن مفاهيم مركزية ، في التسبب «الأدبي» العام . مع ذلك بعدد إشكالية توَقُّفنا عندها ، لا بأس من الإشارة إلى أن الحيليات والأبليات والبقرات الخ تتحوَّل عند طوير ، بكل راحة ، إلى خيول وأبائل وأبقار . إن لغة طوير تلغي المنطق (المعمودية ، التراتب) ، والمكان ، والزمان .

كونغشيرغ ، كتاب «نقد العقل العملي» ، مبدأ الضمير . . . ذكرت فيلسوف كونغشيرغ أي عمانويل كسط . لعل الأفضل أيضاً فون همبولدت ، فلهم فون همبولدت وشقيقه ألكسندر فون همبولدت . إنهما من عصر كسط وهيجل ، من بناء الضمير والقانون والانضباط . لم يكونا من الأنبياء ، ولم يتصورا أن الجامعة التي ستحمل اسمهما سوف . . .

أعترف بأنني أقاوم - هنا - إغواء كبيراً . لقد فكرت دائماً إن الترجمة - أقصد معظم الترجمات في ساحتنا - تحمل ، بوصفها تعريبات جاهلة وجاهلية ، مسؤولية لا بأس بها في تدهور الوعي العربي كعقل وكتقافة . . . هل أضح هذا الملف هنا ، هل أعالج القضية على هذا الكتاب ؟ إذا كان لي أن أقوم بمطابقة التعريب والأصل ، على ثلاثة أعمدة متوازية ، أولها للنص الفرنسي ، الثاني لنص طوير ، الثالث لما أُعْتُبر أنه الصواب والأمانة ، وذلك بدون أي تعليق أو شرح ، عندئذ سيكون أمام القارئ ، بعد التساهل ، كتاب يحجم هذا الكتاب . الذي بين يديه ، على الأقل . أما إذا كان لي أن أشرح أيضاً ، أن أعلل ، وأن أبسط أبعاد كل خطأ ومفاعيله الطبيعية على القارئ العربي ، عندئذ يكون العمل أكبر حجماً بكثير . هذا إغواء . لكنه أيضاً قضية . قد «يقع» في الإغواء آخرون . من جهتي ، إن «الامتياز» الذي يُمنح هكنا لصاحب التعريب المعني يكون إجحافاً بحقه وبحق القارئ . ليس الأستاذ طوير وحيداً في نوعه . والذين هم أفضل منه أجدر بالنقد وأخطر على القارئ (إنهم بخلافه «يعرفون» اللغة الفرنسية أو الانكليزية وبعض تقنيات العمل السريع) . يثبتون على «مناقضات للمعنى» هي ذاتيات جهلية قديمة عندهم (يجهلون جهلهم) ، يستغنون عن عبارات أو جمل لم يفهموها ، يعوضون عن الفجوات بمعارفهم أو خيالهم ، يحولون الأمور نحو السهولة والسلاسة والخفة ، يقلصون «المادة» إلى نصف ما هي عليه ويصنعون «العقل» . وقد ينالون الاستحسان على رشاقة الأسلوب . . . لحسن الحظ ، عندنا وزارة ثقافة وترجمات جيدة صدرت عنها ورجال مؤمنون بالعمل والمسؤولية . ثم ، أن يرتكب فلان هذا الخطأ المخلد أو ذاك فالأمر ليس مهماً وهو قابل للإصلاح ، والقضية كلها قابلة للتحسين الدائم . . . فيما إذا توفر لنا موقف «التناصت» ووسائله . فالقضية هي ، أولاً وأخيراً ، قضية الفكر العربي والوعي العربي ، قضية الشعب والأمة والوحدة .

ثم ، لنعد طوير والترجمة . ولننظر في شيء أجدى ، الآن .



#### — IV —

ليس وارداً ، بالطبع ، أن أعرض كتاب كوفان ، أن أقدم ملخصاً عنه (رغم فائدة ذلك) ، فالكتاب بين يدي القارئ ، لكنني أريد التوقف عند جانب مهم فيه ، عند ما / يمكن أن أدعوه قضية كوفان والماركسية ؛ أريد إلقاء نظرة على الماركسية في ضوء «القرى الأولى في بلاد الشام» .

من وجهة نظر ماركسية مبتدئة ، مازالت سائدة في بلادنا (بل هي أقوى عند الماركسيين الجدد منها عند الجيل القديم) ، يكون كتاب كوفان كتاباً مثالياً ، يضع الفكر قبل المادة ، والأيديولوجيا أو الدين والفن الخ قبل شروط الحياة المادية ، والبنية الفوقية قبل التحتية ، وهلمجراً . مرة أخرى ، لا بد لي من إدانة هذا الابتذال «المادي» في جميع حيثياته ، بدءاً من مقولاته اللغوية ومن خلطه الذي لا يقف عند حد . في الجيل «الماركسي» الجديد ، أو العجيب ، تضاعفت «المادية» كما تضاعفت الذاتية الثورية أي المثالية أو الإرادية ، معاً بالتلازم . وظيفة الأولى تمرير الثانية أو «تأمينها» . «الجسر» الواصل بينهما هو «الطبقة العاملة» المزعومة (أو «الكادحون») أي فعلياً «نحن» ، «الحزب» ، «منظمة كذا» و«حلفاؤها»<sup>(١)</sup> . . . . .

كمثال عن الاختلاط النظري ، يمكن القول أن «ماركسيين» كثيرين يتصورون أن شروط حياة المجتمع المادية أو «الشروط المادية لحياة المجتمع» هي شيء كـ «المادة» من نوع «المادة» ، المفهوم «الفلسفي» أو «الفيزيائي» لافرق ، بتعبير آخر : «الكيثونة الاجتماعية» ، «نمط الإنتاج» أو «أسلوب الإنتاج» Mode ، «علاقات الإنتاج» relations أو rapports ، خبرة الإنتاج و «عادات الشغل» ، الشغل نفسه الخ ، هذا كله يكون كـ «المادة» ، من نوعها وأصلها ، خارجاً متحدراً منها . عند ستالين نفسه ، الذي لا يمكن أن يذهب هذا والمذهب تماماً وإلى النهاية ، والذي وضع علامة التشديد على الكلمات الآتية بوصفها عناوين أو مفاتيح ، تبدو العلاقة بين «الشروط المادية لحياة المجتمع» و«حياة المجتمع الروحية» ، بين «نمط الإنتاج» و«الوعي الاجتماعي» ، بين «علاقات الإنتاج» و«البنية

(١) إذاً ، «الجسر» مقولة «مادية» جداً ، لكن «في الرأس» . - إن الذاتية تفرض حطّ الواقع إلى «مادة» جاهزة للملاعبة أو التحريك ، وهي في أحسن حال تفرض حطّ الواقع إلى «آلة» ملكت الذات قوانينها وجعلت عملها السياسي تطبيقاً للقوانين ، المزعومة . الفلسفة الماركسية تكفّ عن كونها طريقة من أجل رؤية واقع ، حالة ، جملة مفردة ، شيء جديد لم يُقَلّ من قُبل .

الفوقية» ، مستنتجة من العلاقة مادة - وعي ، طبيعة - روح ، كيثونة - فكر ، المجردة الخالصة الصافية والتي يمكن تلخيصها في الصيغة الأولى : مادة - وعي ، أولية المادة على الوعي (أو الفكر أو الروح) . ستالين يعلن من بداية كتابه «المادية الجدلية والمادية التاريخية» ، ١٩٣٨) إن «المادية التاريخية» هي «تطبيق» لـ «المادية الجدلية»<sup>(٢)</sup> ! وهذا محال . فمن وجهة نظر «مادية» ستالين «الفلسفية» ، لا يمكن الحديث عن فكر ووعي و روح ، بدون المجتمع وخارجه و«الفكر الاجتماعي» و«حياة المجتمع الروحية» . . . ليس ثمة أي كيان ممكن للمقولات الثلاث المجردة - «الفكر» ، «الروح» ، «الوعي» - (وبالتالي لا وجود لعلاقة تكون لها مع مقابلاتها «المادية» المجردة) ، خارج «المجتمع الانساني» ، بدونها ، قبله ، بصورة مستقلة ومسيقة . العلاقة مادة - فكر ، طبيعة - روح ، التي هي قضية «المادية الجدلية» بوصفها «المادية» و «المادية الفلسفية» ، هي تابعة إذن لتطبيقها الزعوم . «المادية الجدلية» تابعة هي الأخرى ، وبوصفها مادة ، لـ «المادية التاريخية» . ولأ تحوّل الاثنان المجردان - مادة وفكر ، كيثونة ووعي - إلى إلهين ، أول وثاني . هذا هو التناقض الكبير في مجمل عرض ستالين ، «المادية الجدلية والمادية التاريخية» : انبثاق الثانية من الأولى مستحيل «بحكم التعريف»<sup>(٣)</sup> . . . .

هذا أبعدنا بعض الشيء عن كتاب كوفان ، لكنه كان ضرورياً من أجل مايلي . إن قراءة متأنية ، بل إن قراءة طبيعية ، غير مؤدلجة ، تجعلني أعتقد أن كتاب كوفان

(١) ثم ، عند المفصلة الناقلة من «المادية الجدلية» إلى «المادية التاريخية» ، يُغلّن ستالين الاستنتاج المذكور : بما أن الفكر نتاج المادة لذلك فحياة المجتمع الروحية هي نتاج حياة المجتمع المادية . وهذا هو اللامعنى .  
(٢) بحكم العنوان «الجدلية» ، التاريخية (الانسان كمجتمع وتاريخ) ، غير «المادية المبتدئة» ، أو «الميكانيكية» والفيزيولوجية والفيزيائية الخ ، التي تستطيع هي أن تقول ، خارج الاجتماع والتاريخ والشغل والإنتاج الخ ، «المادة تنتج الوعي» ، وأن تقول «المخ يُغزّر الفكر مثلما الكبد يُغزّر الصفراء» ، و«الفكر ملقّة» ، أو «الفكر غير موجود» ، الخ . وهذا كله لا يمكن أن يقول به ستالين . إنه لا يقع فيه بتاتاً . لكن هذا معناه : فكرة «التطبيق» عاطفة ، باطلة ، وكذلك كل ما يترتب عليها . وإن زعم ستالين أنه يشق علاقة «المادية التاريخية» من علاقة «المادية الفلسفية» ، إنه يشق علاقة قائمة ضمن «المجتمع» من علاقة قائمة ضمن «الطبيعة» ، زعم باطل بالأساس وبالتمام . من بداية كتابه ، ستالين ألغى فكرة الواقع ، أحل محلها أفنوقي الطبيعة والمجتمع ، ألغى ثلاثة الفكر والواقع والعمل ، تعامل مع الأشياء من حولنا وكأنها «طبيعة» (١١) ، في حين أن الأشياء من حولنا ، في حين أن الكراسي والطاولات والشوارع والبيوت والمدن والحقول والأنواع الحية الخ هي جميعاً منتوجات الشغل البشري ، هي جميعاً أهداف توضع ، أهداف صارت أغراضاً مادية . ستالين ألغى مقولات الفعل ، العمل ، الشغل ، أي المقولات البسيطة والخاسمة .



ليس «مثالياً» أو أن ماركس نفسه (وكل ذي عقل) مثالي ! وتبقى المسألة والمسائل .

عند ماركس ، إن الفكر ، الذي هو انعكاس وصورة (انعكاس من نوع خاص) ، هو أيضاً استباق Anticipation . هذه الصفة تدخل في تعريفه ، ولذلك ، هو جزء أو تعين في العمل الانساني ، ويؤدي دور إرشاد وقيادة . بالأساس ، هنا «تقع» الفكرة المتنوعة المعبر عنها بالمفردات الآتية : صورة ، شكل ، فكرة ، «مثال» ، «ابدوس» اليونانية . . . و«مثل أعلى» . [ولذلك] ، توجد «مثالية فلسفية» و«مثالية أخلاقية» ، يتكلم عنهما جورج بوليتزر (في كتابه «مبادئ الفلسفة الماركسية» ) ، لكن لكي يميزهما ويفصلهما معارضاً الأولي ومزيداً الثانية ، أي مبرراً كون الماركسيين «ماديين» و«حملة» «مثل عليا» في وقت واحد ، إلا أنه لم يبرز تسمية الاثنتين «مثالية» IDEALISME ، وهو موصوف واحد (مذهب مثالي ، موقف مثالي) . هل تكون هذه التسمية الواحدة (مثالية فلسفية ، مثالية أخلاقية) أكثوبة عامة وثابتة ، برجوازية ومثالية ؟ في الحاصل ، يمكن القول إن بوليتزر «مثالي أخلاقي» حامل لـ «مثل عليا» أو لـ «مثل أعلى» ، باسم «المعمل» الهادف ، المشروع الثوري . لكن إذا زدنا للعمل مكانته في المذهب الفلسفي ، وجب القول إن بوليتزر «مثالي أخلاقي» لأنه حامل لـ «مثال» أو «فكرة» idee أو صورة أو مفهوم الخ أو تصوّر مُزَيَّد<sup>(٥)</sup> . لنذكر ، من جهة أخرى وبالمقابل ، بأن بوليتزر (في مقاله الخطير الأهمية ، «الفلسفة والأساطير» ، مجلة La Pensée ، عددها الأول ، سنة ١٩٣٩ ، ثم أيضاً سنة ١٩٥٥ : عدد خاص ، تذكاري) رفع لواء «أفلاطون طارداً الشعراء من المدينة مكللين بالزهور» أي لواء الفلسفة أو الفكر المفهومي (الفلسفة أو العلم) ضد الأشباح ، وذلك في غمار المعركة التي يخوضها ضد الفاشية والوجوديات ، من حولها . هذا يبدو ، جزئياً ، كأنه بوليتزر آخر ، غير بوليتزر «مبادئ الفلسفة الماركسية» الأشهر . لنذكر أيضاً بأطروحة ماركس الأولى عن فويرباخ : الفاعلية ، الذاتية ، العمل الانساني الخ هذا كله يبدو في صف المثالية الفلسفية وليس في صف «المادية السابقة بما فيها فويرباخ» . الفكر الانساني له صفة الاستباق anticipation . هذا صريح في تعريف الشغل

(٥) مخالف للحالة القائمة ومتقدم عليها ومناقض لها . الاشتراكية عند ماركس ليست صورة لواقع حاضر ، ليست انعكاساً لوجود يكون الاشتراكية . هذا أقل ما يمكن أن يقال عن مذهب قائم على إعلان وجوب «تغيير العالم» تحويل العالم . إن قوام الماديانية الستالية وسواها هو لملمة هذه الحقيقة البسيطة ، طغيانها من البداية ، ثم تضخيم «الوعي الثوري» ونفخ الحزب . الماديانية تتحوّل إلى نقضها . لكن هذه المثالية الفاتكة ليست بناتاً للمثالية الفلسفية ، ليست بناتاً أفلاطون وهيجل وفيتشه ولا حتى بركلي ، بل هي المثالية العادية بأبسط وأسوأ معنى .

عند ماركس ، في المقارنة الشهيرة بين النحلة والمعماري (في كتاب رأس المال<sup>(٦)</sup> . . . ) . لكنه لا يصح فقط على كدح فرد (نجار ، حذاء ، الخ) وما تقتضيه هذه العملية المفردة (صنع طاولة أو حذاء أو بيت . . .) من تصوّر هو - حسب نص ماركس - تصميم بالمعنيين (إرادة وتصور أو تخطيط) ويشتمل على أشياء أخرى غير مانسميه عادة «العقل» = (الفهم ، المحاكاة ، الخ) ، يشتمل على انفعال وعواطف واتباه وإرادة وتوجّه وتوتر ، وهو ، في أساسه ، مع كونه صورةً وصوراً ، تخيل وخيال imagination ونظر مضارب speculation بل هو يصحّ أيضاً ، مع الفرق والفروق ، على عمل وفكر المجتمع الانساني ، ولنقل على البراكسيس الاجتماعي وبضمنه (بضمنه ومقابله) الفكر والروح ، الوعي والوجدان . ماركس ، على سبيل المثال ، يقول عن الحقوق الرومانية إنها «استباق» للمجتمع البرجوازي الحديث . وموقف كهذا جزء من الماركسية بوصفها سعياً وراء منطق الواقع و«لأقول» «مادية تاريخية» بل أقول بصيغة ماركس «تصوراً مادياً للتاريخ» . (ثمة «بعض» الفرق بين «المادية» موصوفاً le Matérialisme و«المادية» صفةً لموصوف هو «التصور» أو «النظرية» ! ) . . . هنا استخدمت «مادية» سيراً مع الدارج . والأصح ماديانية ، ماديانية . . .

[إنّ هذا الموقف لماركس ، ونظريته على «المسيحية» وأشكالها الحديثة ، البروتستانتية ، الإلهية ideisme (وذلك في مقطع كثيف من أحد الفصول الأولى في كتاب «رأس المال» ، وهو مقطع قصير يتكلم فيه ماركس أيضاً عن «الشعوب التجارية» في العصر القديم ، وعن «الحبل السري الذي يربط الفرد بالجماعة والذي لم ينقطع بعد» ، الخ الخ)<sup>(٧)</sup> ، وحديثه (في الفصل الثالث ، «طريقة الاقتصاد السياسي» ، من نصّ المدخل Introduction ، ١٨٥٧ ، الشهير الآن ، ولعله أهم وأخطر نصوص ماركس) عن

(٥) الفصل السابع ، الفقرة ١ ، إنتاج القيم الاجتماعية .

(٦) الفصل الرابع ، الطابع الصناعي (التصني) للسلمة وسره . المقطع يبدأ بـ : «العالم الديني انعكاس العالم الواقعي .....» لنذكر أيضاً قول الجملة الشاب وماركس الشاب . «آدم سميت لوفّر الاقتصاد السياسي» ؛ وفي ١٨٥٧ (المدخل) ، يستأنف ماركس (بدون تشييد) «مع» الاشكالية المعية : آدم سميت وعلم الاقتصاد السياسي ، الشغل كمجرد عام ، كـ «محض فاعلية ذاتية» ... في كتاب رأس المال ، يستعمل العبارة اللوثرية الألمانية «المحسوس - الفوق المحسوس» ، التي استغنت عنها الترجمة الفرنسية وسواها : انظر المقال المهم الذي كتبه جاك دوت d'Handt في مجلة la pensee (سنة ١٩٨١) وعنوانه : «اختفاء الأشياء في مادية ماركس» . إن لوسيان سيف Seve في كتابه مدخل إلى الفلسفة الماركسية بقدّم ، إن صح التعبير ، لائحة بالتشويه والتزوير اللذين أصابا الترجمة الفرنسية لكتاب رأس المال ، وهي تشويهات في الاتجاه الوضعاني ...

«الروح» Esprit و«التملك» Aneignung, appropriation (تملك الإنسان للعالم ، عالمه وأشكال التملك التي هي ، عدا عن «الفكر الناظر النظري» (الفلسفة ، العلم ، العلوم ، علم الاقتصاد السياسي الخ) ، «الفن» ، الدين ، الروح العملية ، وحديثه (في الفصل الرابع) عن الخيال والأساطير والفن ، الخ ، وحديثه (في الفصلين المذكورين) عن «الطبيعة» (المفهوم الواحد والمزدوج) إزاء التاريخ والصناعة (الطبيعي إزاء التاريخ والصناعي والثقافي الخ) و«الطبيعة بما فيها المجتمع» ، هذا كله بعيد عن «المادية» الذائعة السمعة ( وعن «مثاليات» مشهودة وساقطة) .

لا معنى للكلام عن الفن أو الدين ، ولا عن الفكر المفهومي النظري ، بموجب المذهب الانعكاسي ، أي بموجب فكرة الانعكاس وحدها ، بدون فكرة التطلع والاستباق والخيال والحلم الخ ، وبدون فكرة الفكرة أو المثال أو المفهوم ذاتها . يمكن في هذه الحثية ، أن ننقل هنا مقاطع كثيرة ومهمة جداً من «الدفاتر الفلسفية» للنين ، لاسيما من خلاصة «منطق» هيجل أو خلاصة «ماوراء الطبيعة» لأرسطو (مناظرة لنين مع مثل أفلاطون ، العام والخاص ، الخيال ، الحلم . . .) : هذا لا يعني أن لنين أو ماركس أو آخرين قد وفروا المسألة حقاً . في اعتقادي ، نحن بحاجة إلى «أكثر» ، لا من بعد ومن فوق (وتطوير) ، بل أيضاً وأولاً من قبل ومن تحت (أساسات ، جذور) : هذا شرطاً للتطوير الجذري . . . يجب أن نرى إرست بلوخ مثلاً ، ترجمت كتابه فلسفة عصر النهضة (دار الحقيقة ، بيروت) ، لم أقرأ له كتاباً آخر (لم يُنح لي ذلك) ، لكنني ، في كتاب مدرسي فرنسي (مفاهيم ومصوص) ، فلسفة ، الصفوف الأخيرة الثانوية) ، أجد له عذّة مصوص ، منها نصّ ضد برغسون ، ضد «المتحرك» و«الجديد» حسب فلسفة برغسون ، ويلي في الكتاب المذكور نصاً لبرغسون ، فحوى ما يقوله بلوخ أن هذا «المتحرك الدائم الحركة» البرغسوني ليس تعبيراً وليس فيه «جديد» ، إنه «دائم» . . . وبالتالي فإن «الاستباق» البرغسوني ليس استباقاً حقيقياً . . . يمكن أن نقول من جهتنا أن الماركسية السائدة تخلت عن فكرة الاستباق المركزية ، وأن برغسون ركب على هذه الفكرة والكلمة . . . لكن ، رجوعاً إلى بلوخ ، لنقل إن فكرة الاستباق الحقيقية «تابعة» لفكرة «العمل» الحقيقية وأن الوعي - الشعور بالمعنى البرغسوني (الشائع عندنا وعند غيرنا) تابع لمقولة الروح - الوعي - الفكر الفلسفية غير المنحلة بتاتاً في «السيكولوجيا»<sup>(٥)</sup> . فكرة الاستباق الجديدة فكرة ماركسية وفكرة

(٥) فصدنا أعلاه كتاب برغسون والفكر والمتحرك . انظر أيضاً كتابه الطاقة الروحية . عن معنى «الوعي والشعور» البرغسوني ، نذكر بشكل خاص كتابه الأول «المعطيات المباشرة للـ conscience (وعي) ؟ شعور؟ لنقل مباشرة أن الوعي ليس معطى مباشراً وإن الوعي والوجدان (بمعنى أوسع) لا ينحل في -

فلسفية عريضة ودائمة .

إن إدانة الوضعوية (الوضعانية positivisme) إدانة صريحة وجذرية ، كما يفعل كوفان ، واجب أولي على الفكر الماركسي العالمي وعلى الفكر العربي التقدمي أو شبه التقدمي وسواه . لا يمكن أن تكون ثمة ماركسية حقيقية في مناخ مذاهب الوضعية والاقتصادية والميكانيكية والمنفعة التي «تستطيع» جميعاً أن تلبس لباس «العقل» وأن تسمي نفسها «عقلانية» (حتى حين لاتفعل ذلك فإن أنصارها عندنا يفعلونه ، يتصورون أنها هي «العقلانية» ) . بالضبط ، إن الجدل جدل هيجل وماركس ، هو ، بأساسه ، اعتراض على هذه العقلانية الزائفة المتعددة الأشكال . بالضبط ، إذا كان ثمة لدينا عنوان هو «الجدل» ، «الدبالكتيك» ، ويميزنا عن عقلانية سابقة (حقيقية وناقصة بالأساس) ، فمن أجل هذا الاعتراض الآن على ما هو انحدار وانحطاط وكاريكاتور العقلانية السابقة نفسها تاريخياً ومسطحاً .

لا مجال للماركسية بدون مفاهيم ومقولات الروح والتملك والبراكسيس (العمل ، لا «الممارسة» الملتبسة) ، وبدون مقولة «التناقض» في المبدأ أي فكرة «النفي» negation المفهومية<sup>(٥)</sup> .

والماركسية هي اليوم ، وربما أكثر من أي وقت سابق ، في الشاحة وفي الحلبة ،

← مباشر (وأنه توجد عند الإنسان مشاعر كثيرة غير التي تستهوي برغسون) . إن عملية «الشيكلية» هي من أهم وأشهر عمليات الفلسفة البرجوازية في القرن العشرين ، وهي موجهة ضد الفلسفة الكلاسيكية الكبرى وضد هيجل والماركسية . أجل ، إنها في أحد وجوهها رد فعل صد إهمال العاطفة والشعور والحس والحلم وكل هؤلاء «الأقارب الفقراء» للعقل والفهم والمحاكمة وبرهنة من جانب العقلانية الكلاسيكية . لكن رد الفعل هذا يتعامل مع هيجل ومقولة العقل الهيغلية vernunft بالتجاهل ، ويطرح نفسه كمنكسر للعقل الوضعوي والميكانيكي ، في عملية توزع للضلاليات وتضافر في البراعماتيات . هذا «نقص» الماركسية وكل تشدها العلمي والانساني .

(٥) بخصوص الانعكاس ، إن هذا المفهوم reflect يتعرض حالياً للهجوم من أوساط ماركسية ، بسبب علاقته بالمرآة . بينما يرى بعض الماركسيين بأنه مفهوم فلسفي مجرد وعمام ، رغم أصله الحثي المذكور ، شأنه شأن معظم المفاهيم (المصطلحات) العلمية والفلسفية . هذا صحيح . . . لكنني من جهتي أؤيد الانعكاس وأؤيد المرأة ، أيضاً وبالضبط ، وأضيف مصطلح speculation (المضاربة الفكرية ، التأمل النظري الكبير ، هيجل بشكل خاص) الذي هو نفسه يحيل على المرأة . (speculum اللاتينية = مرآة) . إن المثال الأعلى للعمل الفكري هو المرأة ، وحيدة المرأة . مآل الفكر هو الصورة ، والصورة هي الشكل الأخير ، أرسطوياً . مسار الفكر (فاعل المعرفة) هو الإنشاء ، بناء اللوحة (الجملة الحجة المفردة) . المعرفة فعل ، فاعله (داته ، حاميه) الفكر . إنه إعادة إنتاج . الماديات تلي الإنتاج ، هيجل يؤكد . ماركس يؤكد : إعادة إنتاج reproduction .



ساحة الفكر والمعرفة والعلم والمناظرات الفكرية والعلمية الساعية وراء الحقيقة ، وحلبة الصراعات الابدولوجية المرتبطة بمصائر البشرية .

إن كتاب كوفان ، إشارات المتكررة إلى الماركسية ، لـ غوردون تشايلد أو انجلز أو لوسيان سيف ، تلميحه إلى سوء أو حسن استخدام المنهج الماركسي ، الخ ، يدفعني إلى القول بأن الماركسية لعبت دوراً كبيراً في العلوم الانسانية ، خضبت الفكر الأوروبي ، طرحت المسائل الأكثر أساسية ، فتحت الطريق لإجماعات ثمينة ، ودخلت نهائياً في الفكر الانساني ، أدمجت إيجابياً في الفكر «الغربي» ، العالمي . بالمقابل ، الماركسية في بلادنا مجهولة من خصومها (كارهياها) ومن «العلميين» (المحايدين) إزاءها) ومن أنصارها (محبياها) . ليس نادراً أن نجد شباناً من شباننا الخضر ، ذهبوا للتخصص في هذا العلم أو ذاك من «أحدث العلوم الانسانية» ، ففطسوا فيه وسعوا في مناكبها ، لكن بدون الماركسية التي باتت شيئاً بالياً ومتجاوزاً في نظرهم . . . (٥) من جهة ثانية ، تحولت الماركسية في قسم كبير من العالم إلى مؤسسة لدولة ودول ، إلى مذهب تبرير و«دعاية» ، ضد وظيفتها الطبيعية : النقد . التطور الثاني ليس هو الأفضل . لكن التطورين معاً قد يكونان ، عدا ذلك ، ضياعاً ، فيما إذا فقدت الماركسية دورها كمشروع ثوري ، جنري و «كامل» (أقصد : شامل مختلف جوانب الحياة والحضارة . . .) . فالإدماج الإيجابي الذي ذكرناه عن الغرب يمكن أن يكون استيعاباً واحتواء . ولعلها أيضاً ، من الجهة الثانية وعالمياً ، بقدر ما تتأدّج بالمعنى الزائف (ضد الحقيقة ومع اللعب بالحقيقة والحقائق) تفقد اليوم طابعها كإيديولوجية معبئة لمئات الملايين من البشر وكنظرية هادية فعلاً في مستوى فكر المفكرين وكفاح الجماهير . علماً بأن ألوفاً وعشرات لألوف من رجال الفكر والعلم العاملين في شتى الحقول والميادين مجمعون اليوم على ضرورة ووجوب تغيير شامل . ومن الواضح أن جاك كوفان واحد من هؤلاء . إن اللحن الذي يختم كتابه عن الماضي البعيد والراهن

(٥) جاك كوفان والآثاريون عندنا ، ماريو ليفراني والاوغاريتيون عندنا الح الح هذا مؤلم مؤلم ! بين جملة أمور ، إن الذين عندنا لا يعرفون ماركس . إذ ما شأن ماركس بسوريا القديمة !!؟

العرب هم اليوم موضوع لعلم وعلوم ، أقصد لعكر فلسفي علمي موضوعه الانسان ومصائره وأقداره ، ومطلقه العرب .

وأستطيع التأكيد : نحن خارج هذا العلم ، خارج هذا الفكر ، هذا الاستفهام ، هذا الانضباط . ليس هنا المكان لمناقشة هذه «المعارضة» تفصيلياً ، ولتكشف أعماقها وأبعادها . وما يزيد الأمور إلحاحاً أن هؤلاء الآثاريين عندنا هم في كثير من الحالات أفضل ما عندنا تحت عنوان الثقافة والعلم والانضباط . صحيح أنهم لا يتألون عونا يُذكر (لكن من الذي يتأل عونا ؟) وأن الثقافة (الأمة) مقطّعة الأوصال ، عاركة في مبادئ مرعومة ، مسحوقة تحت ما يستتره التحصن ..

يجعلني أتذكر الـ «تعريفات» العديدة ، والمتنوعة ، التي أعطاها ماركس وانجلز عن هدف المشروع الثوري (الإشتراكي ، الشيوعي ، الاجتماعي ، الانساني الخ لافرق في ذلك عند هذا المقام الأول في النظرية) ، قبل نصف قرن ، واستحضر واحداً من هذه «التعريفات» : «تصالح» الانسان «مع ذاته» و «مع الطبيعة» (نعم : «تصالح» ، الكلمة من انجلز وليست من هيجل «التصالح» ) .

وليكون خطأ كبيراً أن نتصور مثلاً أن الماركسية المتذلة (بدرجات مختلفة) قد رفعت لواء الطبيعة ضد لواء الروح . بالحقيقة ، خفّضت الاثنين معاً ، لتصالح مقولات «ثانية» ، تالية ، هما - مثلاً - «المادة» و«الفكر» ، أو أيضاً الكينونة (لكن «الكينونة المادية») و «الفكر» أو «الوعي» ، أو هما «الأساس» و «البنية الفوقية» ، ولتصالح «تاريخ» يريد أن يقوم كمفهوم فلسفي بدون «الروح» وبدون «الطبيعة» . عملياً ، يكف «التاريخ» و«الطبيعة» عن كونهما مفهومين ، وذلك في صلب النظرية الفلسفية . عملياً ، في عرض ستالين (١٩٣٨) ، «المادة» (رغم تفوق كمي لكلمة «الطبيعة» ) هي المسيطرة (٦) ، «المادة» «المادة المتحركة» ، أجل هي إله «المادية الجدلية» ، و«أدوات الانتاج» هي إله «المادية التاريخية» ، والتاريخ المتقدم من مرحلة إلى مرحلة تأتّر الآن بقيادة حزب الطبقة العاملة . . .

في حثية التاريخ هذه ، كثيراً ما يلام انجلز على كتابه عن «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» المتهم بأنه يبرر تصور التاريخ الخطي والميكانيكي الذي بلوره ستالين و «عممه» . كوفان يلومه على كونه أنشأ بناءً نظرياً متسرعاً ، قافراً فوق فقر معطيات المعرفة العلمية الوقائية آنذاك . هذا صحيح ، ومسألة التصحيح والتصحيحات قائمة على هذا وغيره . بالمقابل ، لا بأس من التذكير بأن انجلز كافح التشويه الاقتصادي للماركسية وبأن كتابه المنقود يمكن ويحب أن يفهم ، كخط عريض ، بوصفه إعلاناً أو إفصاحاً ، عريضاً أو غليظاً ، عن عملية صعود كبيرة مما قبل «العائلة والملكية والدولة» ومادونها إلى الثالث المذكور . هذه العملية هي تقدّم وثورة ، مثلما «القرى الأولى في بلاد الشام» تقدّم وثورة . بالتأكيد ، هذا أيضاً يدخل في جملة ما يهمله ماركسيون «ثوار» متوعون . في نظرهم ، «العائلة والملكية الخاصة والدولة» شيطان مثلث . إنهم لا يروا . أن ثمة ما يقع قبلها ، أو

(٥) التفوق الكمي ، في «المادية الجدلية» ، هو لـ «الطبيعة» في صيغة الموصوف . لكن المادة في صيغة الصفة - مادة matériel - تتعدى على «الطبيعة» ، وعلى «الكينونة» أو «الكائن» être ، وعلى عنوان المذهب أصلاً (حيث تصير موصوفاً ← Matérialisme ...) ، وتسلطن . بالطبع ، المادة «أسهل» من الطبيعة ؟! لكنها بالصيغ تختلف عنها جوهرياً ولا يمكن أن تؤدي دورها ووظيفتها في المعرفة ، ولا دور مقولة الكينونة أو الواقع أو العالم الخ .

دونها في عصور مختلفة ، وهو - مثلاً - الملكية ، نظام المصادرة ، اللاقانون ، العوضى الاستبدادية<sup>(٥)</sup> . هذا الموقف تصفية واحدة لفكرة التاريخ وفكرة التقدم ، استغناء عنهما بفكرة «الثورة» ، الدائمة والعيدة : تحويل الأرض إلى جنة ، «مُلحدة» أو اليوم «دينية» . أما «القرى الأولى» فلا علاقة لها بـ . . . «صراع الطبقات» ، وهذا صحيح بطبيعة الحال (بحكم المنطق والتاريخ)

لنقل ، من جهتنا ، إن الانحراف الكبير عن الماركسية ، أي شبيه الماركسية الباطل ، تمت بثد «المادية التاريخية» أو «التصور المادي للتاريخ» ، يتمثل في إقامة مستوى علاقات الانتاج والملكية الخاصة والطبقات أو اللاتطبقات بدون الركيزة : الكينونة الاجتماعية ، الانتاج ومط الانتاج ككل ، وبدون مفكرتي الطبيعة والشغل ، وفي إقامة «الايديولوجيا» و «البنية الفوقية» بدون مقولة الروح والفكر أو الوعي - الوجدان . إن «تجربتي» مع «ماركسيين» كثيرين في بلادنا تثبت لي أن هؤلاء يتصورون جداً أن «المنطق» مثلاً ، أو «العلوم» ، وبالطبع الفلسفة ، والفن والدين ، هذا كله داخل تماماً في «الايديولوجيا» أو تحتها ، ومستند فيها بوصفها الايديولوجيا الطبقيّة أو المرتبطة حصراً بـ «علاقات الانتاج»<sup>(٦)</sup> . والحرب ، بطبيعة الحال ، مرتبطة الارتباط نفسه بالملكية الخاصة : قبل الملكية الخاصة لم تكن هناك حروب ، «مجتمع الشيوعية البدائية» كان مجتمع سلام ، القبائل لم تكن تتحارب ، الانسان لم يكن يقتل الانسان ويأكل الانسان . و«الحرية» يفهمونها كشيء يتسبب حصراً إلى علاقات الانسان مع الانسان ، أي كشيء موجه ضد استغلال الانسان واضطهاده للانسان ، لا كعلاقة بين الانسان والطبيعة خارجه ، لا كشيء يتسبب أيضاً (وأولاً) إلى الشغل والانتاج<sup>(٧)</sup> . . .

لنلاحظ أن مسؤولية ستالين كبيرة في هذا الاتجاه كله ، لكنّ للرجل مزية أنه تمسك بفكرة التقدم ، معلناً أن الرق مثلاً كان «في حينه» تقدماً ، ومزية أنه ، في سنة ١٩٥٠ ، «يصدد الماركسية وعلم اللغة» ، فتح باباً ضد الأشر الايديولوجي - الطبقي ، معلناً أن اللغة ليست «بنية فوقية» ، أنها ليست لطبقة (بل لشعب أو أمة أو قوم) ، ليست تابعة للنظام الاقتصادي - الاجتماعي ، مفسحاً المجال لإخراج المنطق والمعرفة العلمية من الحيز

(٥) و ، في «المراحل الأولى» من تاريخ الانسان ، قتل الأولاد وأكل لحوم البشر .

(٦) إن من أهم مساوئ واضرار كتاب ستالين أنه ألغى كلية مفهوم العلاقة ، وحصر مصطلح العلاقة في «علاقات الانتاج» (مسألة الطبقات)

(٧) إنهم لا يرون ان ظهور العبودية وتقمعها ، ان الانتقال من قتل البشر واستهلاك لحومهم الى استعبادهم وتشغيلهم كان تقدماً كبيراً . إنه انطلاق التاريخ .

المذكور ، ولإعادة النظر في سائر ميادين «حياة المجتمع الروحية» سعيّاً وراء جانب آخر غير «الايديولوجي الطبقي» (بالطبع في العرف الماركسي الصحيح ، أو بالبداية الماركسية ، إن «المنطق» يرتبط بالشغل ، بعملية الإنتاج ذاتها ، بالحياة اليومية ، الخ ، لا بـ «علاقات الانتاج» ، «الطبقات» ، الخ إنه ليس ملكاً لـ «الطبقة العاملة وحزبها» بل للعدو أيضاً ، للجميع . . . وكذلك عكسه ! جاك كوفان ، من جهته ، يعطي مصطلح «الايديولوجيا» مدلولاً أوسع ، مدلولاً آخر غير المدلول الطبقي الطبقي ، غير المدلول «الاجتماعي - الاقتصادي» المقلّص والمقطوع في الأساس . لكن المصطلح الذي يحظى بتفضيله ، ويحق ، يبدو لي مصطلح الثقافة . والثقافة culture يبرزها كوفان ، في الفقرات الأخيرة بشكل خاص ، كـ «وسط داخلي» ، كروح ، كفكر وعاطفة وخيال . . . هذان المصطلحان موضع نقاش في الفكر العالمي ، لاسيما الماركسي . لنلاحظ من جهتنا أن الثقافة أقل «فكرية» (بحصر المعنى : أقل «نظرية» وأكثر حياداً) . لكن ، بهذا المعنى ، يكون من واجبا أن نقول إن ماتعاني منه شبيبتنا المثقفة والمختصرة هو تضخم «ايديولوجي» ونقص «ثقافي» و «نظري» معاً :

إن الأسئلة التي يطرحها كوفان في خاتمة فصله الأخير وفي خاتمة كتابه أسئلة جدية وبدئية . ولاريب على الاطلاق في أن «الكيمياء الحديثة مشتقة من السيمياء (أو الخيمياء ، أي كيمياء العصور الوسطى)» ، ولأشأن لفكرة القطيعة rupture (القطيعة الايستيمولوجية) بذلك : هذا موضوع آخر ، هاتان قضيتان اثنتان<sup>(٨)</sup> . ولاريب أن «صناعات التعدين الابتدائية مفعمة بطقوس ومربوطة بنوا «سحرية» . . . نعم» ، هذه الهوامات وهذه الإسقاطات قد تكون «محرك الاكتشافات» ، بحيث قد لا يكون «الفعل الخلاق ذا غاية محققة عياناً إلا بعد الضربة» . كذلك «اختراع الطائرة» وأسبقية «هواة محترفين عاشوا مرة أخرى أسطورة إيكاربوس» و«حاولوا «تخريب» «حلم الطيران» بوصفه هوماً يكاد لا يكون واعياً» . . . هذا يبدو لي بدياً كفضية (وكمسألة) . كوفان هنا يدين المنفعة ويتكلم عن «الأسس النفسية للاختراع» ، وهذا مستوى مهم ، وإلى العالين

(٨) ولا أشك في الصواب المبدئي لأي منهما ولا في أهمية وحيوية أي منهما ! «الماركسية الوضعية» تلفظ القصبة الأولى ، تطوي العلاقة الإيجابية بين العلم و «ما قبل العلمية» ، تطلق على الثانية «وما قبل العلمية» صفة «الايديولوجية» المنكبة جداً هنا ، وتفعل ذلك برفع وازدراء ، نافحة العلم science والعلمية بلا مبرر ... جاك كوفان مناهض لهذه الوضعية . حملته عليها مبررة تماماً ، صرورية بشكل مطلق .



إيليا<sup>(٥)</sup> وبريل والعلماء الذين يذكرون كوفان يمكن أن نضيف آخرين وميادين أخرى (مثلاً جان بياجه ، هنري والون ، سيكولوجية الطفل والنمو) .

كما يقول الماركسي السويدي جوران ثورون في كتابه «سلطة الايديولوجيا وايديولوجية السلطة» (دار الوحدة ، بيروت) ، ثمة منفعة (مذهب منفعة) وتأثير متعمق على الماركسية يجب الانتباه منه . وكما قلنا في مكان آخر ، المنفعة تسحق نفسها عقلاً ومذهب عقل (وذلك بدءاً من صيغة من نوع «مصلحة الطبقة العاملة المفهومة جيداً» والتي تغطي وتبرز ذاتيات سياسية متسارعة) .

أخيراً وأولاً ، يجب «رد الاعتبار» للمقولات الماركسية الكبرى : الواقع ، الفكر ، العمل . «العمل» ليس «المنفعة» وليس «العملي» مأخوذاً «من أقربه» . «الفكر» ليس العلم الوضعي ، لا ينحل فيه ، ولا ينحل من جهة ثانية في «نفس» عمومي أبداً كان . «الواقع» ، «الواقع الموضوعي» نتاج تموضع العمل الانساني ؛ ليس ، في «معظمه» ، «طبيعة» سابقة للانسان وتتفاعل معها في «المادة الجدلية» . إنه لا ينقسم وبضيق في قسمي «الطبيعة» و«المجتمع» الستالينيون :

يجب أن يكون له كيان أول ، في نظرية المعرفة ، قبل أية «قسمة» (هكذا ماركس ، مثلاً في نصوص المدخل التي أشرنا إليها) . عندئذ تأخذ المستويات والجوانب والعناصر وكل المقولات (القطعات) الجدلية مكانها ودورها بوصفها نتاج وأدوات العلم المخرد (سلاح التحرير بديل الموضع والمفاعلات الكيميائية ، على حد تشبيه ماركس ، في المقدمة الأولى لرأس المال) . «الطبيعة في ذاتها (أو بذاتها en soi) لا وجود لها» ، يقول كوفان في الصفحة الأخيرة من كتابه : لاشك في ذلك ، ولاوجود لأي شيء في ذاته . . . الطبيعة مفهوم فلسفي كبير .

#### IV

ثمة «نقطة» في كتاب كوفان تثير اعتراضي وتفرض استطراداً لأرى لي غنى عنه . في مناظرته الثمينة مع غوردون تشايلد ، الذي أثر تأثيراً كبيراً على «علم الآثار

(٥) ميرسيا إيليا . كتابه تاريخ الأدب صدر مؤخراً بالعربية ، ٣ أجزاء ، ترجمة عبد الهادي عباس .

الجديد» الأميركي وغيره في اتجاه مادي بلا مزدوجين<sup>(٦)</sup> ، قال كوفان : «كان تشايلد يستند صراحة إلى ماركسية رمت حين كان يعتبر أن «الموارد الطبيعية لمنطقة السكن» هي في عداد «قوى الإنتاج المحددة لبنية مجتمع من المجتمعات» . . . «الفصل الأول» .

آية ماركسية ؟ بالضبط ، لم يكن ستالين يعتبر «الموارد الطبيعية» جزءاً من «قوى الإنتاج» . . . ، بتاتاً . إن جانباً من أهم جوانب التصنيف الستاليني أو المقولات الستالينية كانت إخراج ثروات الطبيعة أو شروط البيئة خارج مقولة «قوى الإنتاج» و «نمط الإنتاج» . . . وماركسية ستالين هي ماركسية الزمن المعني ، هي الماركسية السائدة ، السوفياتية ، الفرنسية ، العالمية (ربما فيما عدا الماركسية الانجلو سكسونية) . وستالين يتعارض ، هنا ، مع إنجلز ، بليخانوف ، ماركس ، هيغل ، بأشكال مختلفة . لننظر إلى القضية عن كتب .

ستالين قام بعملية تصنيف جبارة ودقيقة ، بعملية قطع مقولاتية ، ضرورة بل وبمعنى ما صالحة : ليست باطلة في هذه العملية ، بل في «مكان» آخر ، عند الدور التمييزي (التحديدي ، التفريري) أو اللاتمييزي ، وهذا الباطل له موقعه في سياق باطل أكبر : (١) في عرض مبادئ «المادة الجدلية» ولا سيما «الطريقة الجدلية الماركسية» ، رفع ستالين . كما ذكرنا من قبل - لواء «الطبيعة» ككلمة تتكرر وتتواتر ، لكنه لم يتعامل معها بتاتاً كمفهوم حقيقي ، فلسفي . «الطبيعة» هنا لا تعدى مانفهمه منها في قولنا «علوم الطبيعة» أو في قول ستالين «ظواهر الطبيعة» . إنها لا تقيم علاقات مع مفاهيم مقابلة : تاريخ ، ثقافة ، صناعة ، حضارة ، عمران ، شغل ، إنسان ، فاعلية الإنسان الذاتية الهادفة<sup>(٧)</sup> .

هذه المقولات محدوفة أو تابعة ، ملحقة ، دالية الخ في «المادة الجدلية» . (وعلمياً ، هذه الطبيعة ماهي إلا «المادة المتحركة» . لكن التاريخ يتصدّر «المادة التاريخية» التي أعلن أنها تطبيق «المادة الجدلية» . ٢) إذا ، في «المادة التاريخية» ، إن «الطبيعة» ، السيدة هناك

(٥) بعض مؤلفات غوردون تشايلد - إن لم تحني الذاكرة - ترجمت إلى العربية وصدرت قبل حوالي عشرين سنة (في بيروت) . هذا العالم (الأسترالي) أهر عددًا من الماثل (الشرق الأدنى ، برقة ، الخ...) وأبرز دور الهجرات ، الحاملة والناقلة لعناصر الجدلي... هذا هام جداً . انظر أيضاً كتاب بليخ وغوبلو ، «المادة التاريخية وتاريخ الحضارات» ، دار الحقيقة ، وكتاب كارلو شيولا ، «التاريخ الاقتصادي لسكان العالم» .

(٦) مصطلح ليس في مقابل «الطبيعة» بحصر المعنى ، بوصفها شكلين اثنين لـ «السيرورة الموضوعية» (في «حلاصة منطق هيغل» - شكلان للسيرورة الموضوعية : ١) «الطبيعة» ٢) «فاعلية الاسان» الذي اتخذ لذاته هدفه .

ولو في الشكل الذي أشرنا إليه (إنها سيئة على الروح أو الفكر نتاجها ، وسيئة «مبدئية» على المجتمع والتاريخ ميدان تطبيق مبادئها وقوانينها) ، تنحدر فجأة ، تسقط من علي ، تسخف إلى «بيئة جغرافية هي شرط ثابت ودائم لحياة المجتمع ، ولها دور إعاقة أو تسريع ، لا أكثر . إنها ليست مُحَدَّدة - معينة - مقررة *déterminante* . ليس لها دور تحديد وتعين وتقرير على التاريخ كمسار تقدم وكأنظمة مُحَدَّدة تتعاقب . فالشروط الطبيعية الجغرافية لم تتغير جداً خلال ألفي سنة أو ثلاثة آلاف سنة ، بينما قطعت أوروبا مثلاً ثلاث مراحل والاتحاد السوفياتي أربع مراحل وحقق المجتمع الاشتراكي ( ٣ ) كذلك السكان ، العامل الديموغرافي ، كثافة السكان . هذا أيضاً ليس له صفة التعيين أو التقرير على درجة التقدم الاجتماعي الاقتصادي الخ : ستالين يعقد مقارنة برهانية بين بلجيكا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . . . هذان العاملان ، الطبيعي أو الجغرافي ، والسكاني - الديموغرافي ، يدخلان في «الشروط المادية لحياة المجتمع» ، لكن ليس في «نمط الانتاج» . (٤) نمط الانتاج ، المقولة المتنازعة ، تشمل حصراً مستويين أو جانبين هما : قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . (٥) قوى الانتاج تشمل أدوات الانتاج ، وهي العنصر الأكثر تحركاً وتطوراً إلى الأمام ، والبشر الذين يستخدمون هذه الأدوات مع خبرتهم بالانتاج وعاداتهم في الشغل . (٦) علاقات الانتاج أي علاقات البشر في الانتاج ، وهي علاقات تعاون أو هيمنة (الطبقات الاجتماعية) . وهي ترتبط بنظام الملكية ، المأخوذ هنا كواقع موضوعي (أما الأفكار والمؤسسات الحقوقية فهي تدخل في «البنية الفوقية» النابعة من هذا الأساس) *base* الذي هو «علاقات الانتاج» .

بالمقابل ، كان إنجلترا ، في رسالته إلى شتاركنبورغ (١٨٩٤/١/٢٥) يُدخل «القاعدة الجغرافية» في مفهوم «العلاقات الاقتصادية» . وهو شيء لا يقبل به ستالين وتصنيفه . . . أما بليخانوف فهو يعطي للشروط الجغرافية دوراً تعيينياً - تقريرياً على قوى وأدوات الانتاج ، شبيهاً بالدور المعطى لهذه الأخيرة على علاقات الانتاج ، وينظر ، كأمثلة وبراهين ، إلى مجتمعات قديمة وبدائية في المعمورة ، وهو يعلل ، باختلاف البيئة الجغرافية

(٥) ستالين استبعد المقولات والمصطلحات : تقنية (مصطلح إنجلترا ...) وأيضاً تنظيم ، تعاون ، إدارة . فضل قدر الإمكان المقولات ذات الشحنة المادية ! أحد «التعاون» تحت مقولة علاقات الانتاج كتقيض للمهيمية . وحرص «علاقة» بهذه المقولة أيضاً . وهذا أصل لا إشباح بدون فكرة العلاقة وبدون فكرة التعاون . قوة الانتاج علاقة ، أداة الانتاج علاقة ، فكرة الاجتماع علاقة . المجتمع = تبادل ، تعامل ، تواصل . المجتمع ليس بديهية مسبقة ، ليس أقنوماً - «جوهر» ، إنه هو نفسه نتاج ...

وتأثيرها ، افتراق «خطين في التطور» : من التنظيم الاجتماعي العشيري إلى «المجتمع القديم *santique*» (اليونان ، روما . . .) أو إلى «النظام الاجتماعي الشرقي» (مصر ، الصين ، الهند . . . «النمط الآسيوي للانتاج») . . . هذا واضح في كتابه المسائل الأساسية للماركسية وفي مؤلفات عديدة . وبليخانوف ينقل شواهد كثيرة من رأس المال تذهب في اتجاهه . . . بل لنذكر أن ماركس ، مثلاً يلاحظ ، في مكان ما من من كتابه الأشهر<sup>(٦)</sup> أن وطن الرأسمال ليس «في المنطقة المدارية ، حيث النبات الغزير الراجح» وحيث «طبيعة سخية معطاء تمسك الانسان باليد كما يمسك طفل بحبل» ، بل «في المنطقة المعتدلة» . . . غير أن ماركس يمثل منهجاً آخر غير منهج بليخانوف أو ستالين في النظر إلى القضية من أساساتها (الجدل ، الجملة ، والتناقضات ، تجاوز قطيعة «الطبيعة» و«الانسان») .

لقد تكلمنا عن السببية الميكانيكية : آسبب ، ب نتيجة . هذا المنهج يضيف بالطبع أن النتيجة تؤثر بدورها على السبب . لكنه لا يرى أنهما مأخوذان في و تحت جملة تخطاهما ، وأن مقولة السببية يجب أن توضع بتماها تحت مقولة الترابط والفعل المتبادل . . . في الحاصل ، إن «أ» - أدوات الانتاج أو «وسائل الشغل» ، عند ستالين - تبدو كأنها «السبب الأول» ، نوع من إله ، في «المادية التاريخية» (السبب الذي ليس له سبب هو الله) . بليخانوف أقرب إلى «الوحدة» النظرية «المادية» أو الوهم المادي ، وإلى وحدة «الماديتين» «الجدلية والتاريخية» ، مادام يحيلنا كسب أول إلى الطبيعة - الشروط الجغرافية .

إن التخفيض الجذري للشروط الجغرافية والبيئة الطبيعية ، في ماركسية ستالين وزمنه ، ارتبط بعملية دفن مقولة «النمط الآسيوي للانتاج» ، وبفرض قالب التطور الخطي الحماشي المشهور الذي لا يستند إلى أساس سوى الخلط بين نموذج نظري أو فكري (عام مجرّد) عن «المجتمع البشري» وتاريخه وواقع العالم العياني وتاريخه<sup>(٧)</sup> (أقرب إلى الصواب

(٥) الفصل السادس عشر : «فضل القيمة المطلق وفضل القيمة النسبي» .

(٦) الخلط المذكور بين ما يمكن ان ندعوه مفهوم التاريخ وواقع التاريخ يترابط مع إهمال «الشروط الجغرافية» المعنية «العلاقات الأعمية» (أي بين الأمم ، الشعوب ، القبائل ...) مع أنهما وجهان بارزان في كل تصوّر ماركس بدءاً من كتاب الايديولوجيا الألمانية .

إن بطلان خطية ستالين (وأخريين) ليس في إيمانه بخط ، بحطّ تقدّم وتاريخ وتعاقب الخ ، بل في عدم وعي ان الخطّ فكرة مجردة وفاقية التجريد (بل لنقل فكرة منطقية ورياضية عظيمة جداً وضرورية تماماً) ، ان الخطّ ليس جشماً ، ان فكرة التاريخ وفكرة الواقع تحتاجان الى منطق «أكبر» من «خط» أي كان ثمة كونية أو «جسمانية» ليست «خطاً»



أن نقول لا يوجد مجتمع أو بلد من المراحل الأربع) . . وهذا التخفيض يدولي ، في أحد وجوهه ، جزءاً من مثالية ستالين ، من الارادية التقدمية والثورية ، من الطحش مع التاريخ . الذي - يتقدم تطوراً وثورياً على خط معلوم . ولنذكر مرة أخرى إن هذا الموقف ضد «الشروط الجغرافية» يتعارض أيضاً مع . . هيغل «المثالي» ! ماركس ، من جهته ، كان أول من تماشى له مع ما يستحق أن يسمى «المادية» (الشروط المادية والمذهب المادي) هو دروس الجغرافيا البشرية والسياسية التي حضرها في الجامعة . . إن «مادية» تؤمن بـ «المادة» ولا تبالي كثيراً بالشروط الجغرافية ، المناخ والبيئة والاقليم ، هي «مادية» بعيدة عن علم الاجتماع والتاريخ ، أو هي مثالية ذاتية ، سياسية متسلحة بالاقتصادية والطبقية : إنها تخفض البراكسيس ، عمل المجتمع ، إلى «تطبيق» للقوانين الموضوعية لعلم صراع الطبقات أو علم الاقتصاد السياسي<sup>(٥)</sup> . يمكن مثلاً أن ترى الطبقات في القرية الروسية عام ١٩٢٨ ، أي «الفلاح الغني» (الكولاك) و«الفلاح المتوسط» و«الفلاح الفقير» ، لكن بدون أن ترى «الفلاح» ذاتاً ، بدون أن ترى الفلاحة la paysannerie «(العلاحين» كمقولة مفردة) ، تصوّر بسهولة أن هذا الكائن الأخير قد انقسم واختفى لصالح أقسامه بموجب التطور الرأسمالي إلى أمام . لذكر ، من جهتها ، أن «الفلاح» ، بخلاف «العامل المأجور» ، تحيل أولاً إلى نوع عمل ، هو علاقة بشر مع أرض (ومناخ وطقس وحشرات وأحجار . .) أو (بالفرنسية) مع بلد . .

لقد دُفنت مقولة «النمط الآسيوي للنتاج» ، لكن - رجوعاً إلى تشايلد - من المفيد أن نذكر بأن «الماركسية الأنجلوسكسونية» شذت بعض الشيء عن القاعدة العامة<sup>(٦)</sup> . من

(٥) نذكر بأن «علاقات الإنتاج» هي موضوع علم الاقتصاد السياسي أو على الأقل محوره . و «الاقتصادية» تصحيم لهذا المستوى المحدود ، إهمال للسياسة والأيديولوجيا ومسألة الأمم والقوميات ، طبقية عمالية أو كدحانية عامة جامحة إلى أمام تؤمن بأن «الماضي» (مثلاً المسألة الديمقراطية في ١٩٠٢ أو المسألة القومية في ١٩١٥ - ١٩١٦) قد مضى . . هذا مفهومها اللينيني في ١٩٠٢ ، ثم في ١٩١٦ ، وهو معار لمفهومها عند ماركسي الغرب في أياما الذين يواجهون مسائل من نوع آخر . يمكن أن نعتبر اقتصادية إنتاج واستهلاك فكرة التجريد ومعنى التحديد . ولعل بوجي من مويرياح . في بداية مسيرة المعرفة ليس لديها سوى الوجود لزاء الفكر ، الاختلاف لزاء الهوية . هكذا البداية ، المطلق ، بل لنقل لحظة الصفر الفائقة الأهمية . الوجود (أي الوجود خارج الرأس) = الاختلاف ، الثباين . وفي منطلق التاريخ : الطبيعة متحالفة ، الأرض متباينة . والأفئحة خارج الواقع . أيضاً : العالم = عالم مجتمعات مختلفة ، عالم أم الخ . عند ستالين : العالم = المجتمع ، واقع الشيء = مفهوم الشيء .

(٦) بالم داط R. palm dult ، في بداية كتاب له عن الهند ، يذكر بمقالات ماركس عن الهند ١٨٥٣ ، وينقل بعض الشواهد منها . وهذا الموقف من جانب الشيوعي البريطاني الأشهر يبدو في حبه (أوائل الخمسينات) ناشراً . .

جهة أخرى ، إن نشر مؤلفات بليخانوف ، أو كتاب وأمس المال ذاته ، كان «شذوذاً» يخالف «التطور الستاليني المتقدم» ، السائد والذي «زهر» في مؤلفات متنوعة . . . أخيراً ، بعد ستالين ، بُعثت المقولة «الآسيوية» من جديد وبشكل حاد . هذه الحدة ذاتها تستحضر قوة الدفن السابق . المكبوت يفجر . هناك مبالغاة «جغرافية» ، وعكسها ، وهناك مواقف عجز عن استرجاع فكرة «الجملة» ، هناك طغيان للموديلات - النماذج ، هناك سمخيات سياسية . . وهنا لابد لي من ملاحظة أن بعض الذين أخذوا المقولة «الآسيوية» و«طوروها» شرعوا يطهرونها من قاعدتها «الجغرافية» - الانتاجية الصريحة عند أبلز وعند ماركس بصرف النظر عن أية فروق بينهما (الهند ، مصر ، الخ ، المناخ ، الصحراء والنهر ، أي مسألة الري) ، يوسعونها بحيث تشمل عدا عن مسألة الري الآفة مسألة السيطرة على خطوط التجارة . . . بل يحولونها إلى «نمط خراجي» عام تكون الاقطاعية الغربية أحد أشكاله ، ويخفصون «الشروط الجغرافية» مرة أخرى ، وكثيراً ما يرتبط هذا التخفيض باليسراوية الايديولوجية والسياسية .

هذا كله يحتاج ، لاريب ، إلى تدقيق ، إلى تمييزات تفرز الخطأ والصواب ، عند الرواد والتلاميذ سواء بسواء . بليخانوف مثلاً - وقد قلنا ذلك - يرتكب خطأ جغرافياً مرموقاً (له) كما اعتقد بعض الصلة بالمادية البليخانوفية ، السبينوزية - الفويرباخية الميل<sup>(٧)</sup> ، أو بمنهج «الواحدية المادية» البليخانوفية بالمقابل ، يكفي أن نطالع بعض كراسات الإعلان الصادرة عن «دار التقدم» (موسكو) التي تُعلم عن الكتب التي تصدرها الدار المذكورة ، بلغات شتى ، حتى نجد ، في المختصرات نفسها المعطاة عن بعض هذه الكتب ، تكراراً ، لم يعد يطاق ، للصيغ الستالينية : «البيئة الجغرافية» تبيع أو تسهل ، تُبطئ أو تسرع ، لكنها ليست محدّدة - معينة - مقرّرة determinante ، والمقصود «حاسمة» decisive . ضد هذه الشعبية والبداية ، ضد هذا التسبب اللغوي ، وأياً تكن اللغة ، يجب أن نردّ للمصطلح اعتباره ، وأصله . إذا كانت البيئة الجغرافية تعييناً determination وحداً terme فهي معينة ومحدّدة ومقرّرة ، إنها تدخل في جملة

(٧) «طبيعة» و«ماهية» سبينوزا ، «طبيعة» و«إنسان» فوير باح . . . رغم ورغم كثيرون أن مادية ماركس هي مادية فوير باح ، وهذا باطل ، إن ما يأخذه ماركس وأخيراً لينين على مادية فوير باح ليس «البناءات العليا المثالية» عن الدين والأخلاق والحب ، بل طبيعة فوير باح وأنتروبولوجيته ومحسوسيته الخ . ولقد أشرّ لينين جيداً على قصور المبدأ الطبيعي والمبدأ الأنساني عند فويرباخ وعند تشرنيشفسكي . . . عند فوير باح ، الإنسان هو النوع وهو الفرد وهو الحب - الجنس - العلاقة بين الرجل والمرأة . عند ماركس الجوهر الانساني يحيل على جملة العلاقات الاجتماعية . . . ها حدلاية ماركس ومادية ماركس . الخلاف هو على «الواقع» ، ما هو الواقع ؟

المعتقدات . هذه «الجملة» التي هي كَلٌّ ، وكلٌّ - أو مجموع - من معينات يصلح ويجب أن تُعامل بوصفها عوامل : إن نضال بليخانوف ضد «نظرية العوامل» ملتبس . إن واقع أن هذه «الطبيعة» تُقَفَّت وصارت تاريخية ، إن واقع أنها «اختلطت» بشيء آخر هو عمل وعمران وصنع بشري لا يعني أنها خرجت من الكينونة . لعله يجب القول إن «الايكونوميا» (علم الاقتصاد) تصبح اليوم «جزءاً» من «الايكولوجيا» (علم البيئة أو الحياة - بيئة) . مؤلفات ماركس ، عالم الاقتصاد السياسي الكبير ، في علم الاقتصاد تحمل جميعاً في عنوانها ذاته أو تحت عبارة «نقد علم الاقتصاد السياسي» ، «أسس نقد الاقتصاد السياسي» . . . «كل نظرية اقتصادية هي ، بما أنها اقتصادية ، خاطئة» ، كل علم (كل ميدان) هو تجربة ، قبض على جانب . . . ستالين نفسه ، في مؤلفه الأخير (المسائل الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، ١٩٥١) يحدد موضوع علم الاقتصاد السياسي بأنه ميدان مستوى علاقات الانتاج ، مُخرجاً منه قوى الانتاج ، التكنولوجيا ، الخ . مع أنه هو نفسه وبطبيعة الحال ، في تصوّره المادي للمجتمع والتاريخ ، يعلل المستوى المذكور بمستوى قوى الانتاج ، يحيلنا إلى قوى الانتاج ولاسيما أدوات الانتاج . ليس هذا كله باطلاً ، البتة ، لكن يجب إذن أخذ وعي قضية المعرفة والعلم من أساسها ، أخذ وعي مبدأ التجريد والعزل ، أخذ قياس المستوى أو الجانب . ليس من حكم مطلق يحسم قضية «حسية» أو «تقريرية» الأدوات أو الشروط الطبيعية البيئية أو أي شيء آخر في تطور الانسان وتاريخه<sup>(٥)</sup> .

الماركسية كلها شذدت ، وبعق ، في نظرتها العامة إلى التاريخ ، على أدوات الانتاج ، وسائل الشغل . وكذلك الفكر العالمي ، وتعليم التاريخ بخطوطه الأعرض . «ما قبل التاريخ» والتاريخ : العصر الحجري القديم وأقسامه الزمنية الطويلة ، الحديد وأقسامه ، وبينهما الوسيط ، ثم الحجري - النحاسي والنحاسي ، ثم عصر البرونز (والحضارات الكبرى في الشرق الأدنى) ، ثم عصر الحديد (بدءاً من حوالي منتصف الألف الثاني ق .م أو بعد ذلك) ، ثم . . . الآلة البخارية والثورة الصناعية ، النمط والكهرباء والسيارة الخ ، وعصر الذرة .

(٥) هذا ما يتعارض ويتناقض مع ماركسية ستالين ومع كتابه الأخير ، مع قانون «التوافق الضروري بين كذا وكذا» ، أي مع إعلان ستالين ، ضد كل واقع ، أن ثورة ١٩١٧ الروسية نبعت من وجوب إقامة التوافق بين علاقات الانتاج المتأخرة وقوى الانتاج المتقدمة .

هذا الإبراز لا يعني أننا نعطي الأولوية للأداة والآلة ، بلا حشيشات وخارج التعيين . أية أولوية ؟ أولية على ماذا ؟ في إطار ماذا ؟

الآلة البخارية لها أولوية ، الثورة الصناعية (بحصر المعنى ، بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر ، وفي القرن التاسع عشر وحتى أيامنا) انقلاب كبير جداً ، شامل . لكن ليس «قبلهما» أو «دونهما» شيء ؟ مثلاً ثورة «ثقافية»<sup>(٦)</sup> ، ومثلاً «ثورة زراعية»<sup>(٧)</sup> (تقدم تكنولوجيا زراعي متراكم يبدأ في هولندا وألمانيا ويكتمل في انكلترا) ، ومثلاً طبقة برجوازية ومجتمع برجوازي وجملة اجتماعية بشرية ؟ أليس انتشار الاختراع المعين والثوري ، مثلاً المطبعة (ق ١٥٠٠) ، أليس تابعاً لشيء اجتماعي وثقافي ؟ ذبوع المطابع وكثرة الكتب في أوروبا الغربية والوسطى منذ سنة ١٥٠٠ مثلاً (عدد كبير من العناوين المتنوعة) ، هذا يجعلنا نقول : المجتمع كان على موعد<sup>(٨)</sup> ! والاختراع نفسه كاختراع ؟ أليس له «أسباب» ، في مستوى الأفراد المخترعين وفي مستوى البيئة المحيطة ، التي هي دوماً بيئة اجتماعية بشرية ؟ والاختراع يعيدنا بالتأكيد إلى مقولة الروح ، الفكر ، «النفسي» le psychique (الذي يقابل ، في مفردات لينين ، «الفيزيقي» le physique)<sup>(٩)</sup> .

إن قراءة كتاب وأسس المال ، وصفحات أولية محددة من هذا الكتاب الأشهر ، صفحات عديدة ومتنوعة ، فلسفية - تاريخية ، تجعلني أقول إن الماركسية السائدة تخالف ماركس في الانجهاين معاً ، «المادي» و«الثاني» ، إن صغ المصطلحان ، قصدُ : ضد الطبيعة (و«الجغرافيا») وضد الروح .

والقضية كلها تحدر أكثر عند الماركسي المتوسط ، والقارئ المتوسط لكتاب ستالين الأشهر أو لكتب لاحصر لها تنسج على مواله ومعظمها دون مستواه : في مقولات ستالين عن مجتمع المادية التاريخية وبالأصح عن المجموع الذي هو «شروط الحياة المادية» في هذا البناء الواحد ، الأداة هي الأكثر رسوخاً في ذهن القارئ ، فهي الأكثر «مادية» ، أما «نمط» أو «أسلوب» mode (نمط الانتاج) ، «علاقات» (علاقات الانتاج) ، «خبرة» و

(٥) انظر كارلو شيولا ، «التاريخ الاقتصادي لسكان العالم» .

(٦) انظر بول يابروش ، مأزق العالم الثالث ، دار الحقيقة .

(٧) انظر ميشيل دوفير ، أوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر ، دار الحقيقة (موضوع تركيا العثمانية) .

(٨) في الوقت الحاضر ، ثمة انقلاب في القسفة السوفياتية والعلم السوفياتي ، لعل أبرز ما فيه التأكيد على الفكر = الاختراع ، أو على الوعي = الفكر الانساني ، المستقبلي الخ .



**«عادات»** (خبرة إنتاج وعادات شغل) - وكلها مشددة عند ستالين - فهي ليست أشياء (ونقل : لأصلها لها ، ظاهراً ، بـ «المادة» في مفهومها «الفيزيائي» والفلسفي ، «لامرق»<sup>(٢٠)</sup> . وكذلك يرشح «البشر» ، المتجون والمكافحون (لكن بدون الديموغرافيا - ومع عدم ملاحظة القارئ التجريد الذي أخذ هنا وأكد خبرة الانتاج وعادات الشغل ، وحذف الايديولوجيا والسياسة والطبقات ، أي عدم ملاحظته لفكرة المقولات والعمل بالمفاهيم ، وعدم ملاحظته أن الشغل عقل ومنطق - ) ، فهم ماديون ؛ وكذلك «الطبقات» فهي محسوسة ومادية وهي كائنات شبه أزيلى (الفلاح كائن ويتنقل من مجتمع إلى مجتمع ، من «إطار» إلى آخر ، في النظام الاقطاعي إلى الرأسمالي إلى الاشتراكي ؛ كذلك العامل هو هو ؛ وكذلك ، عند الحد الأخير والذائع الشهرة ، الجماهير الكادحة برمتها وعلى امتداد التاريخ . . .) أما «الشروط الجغرافية» ، المادية جداً (الشمس والقيم والمطر والبحر والسهل والجبل وربما الزيتون والنخيل . .) فقد جرى تبديدها الفاتح . وتنبئت «الأداة» في الذاكرة بفضل صيغة فرانكلين وماركس وستالين : «الإنسان حيوان صانع أداة شغل» Animal is a tool making بل يمكن أن ينسى قارئ النص المذكور أن «استخدام وخلق وسائل الشغل (الأدوات) موجود ، كبذرة أو جنيناً ، عند بعض الأنواع الحيوانية» . . . في الماركسية ، الإنسان قائم إزاء الطبيعة (سيد ومالك وملك عليها) والإنسان جزء من الطبيعة ؛ الإنسان طبيعة عامة وخاصة ، نوعية (صناعة ، ثقافة ، عمران ، تاريخ) . اليوم ثمة استرجاع ، في الماركسية العالمية ، لمقولة الطبيعة (ايريك فروم . . .) مجلة الفكر la pensée العدد ٢١١ نيسان ١٩٨٠ ؛ كتاب الفرنسي جيرار روليه Raulet عن لرنست بلوخ ، أسنة الطبيعة ، طبعة الإنسان ، (الخ) .

أخيراً لابد من التوقف عند مقالة إنجلز الكلاسيكية (المنشورة مراراً باللغة العربية) : «دور الشغل أو العمل في تحول القرد إلى إنسان» ، الفاتكة الأهمية والراهنية . أجل ، من الضروري «تعبير» القسم الأخير من هذا العنوان ، تدقيقاً يتفق مع المعرفة العلمية الحاضرة ومع الاصطلاح العلمي . الإنسان الحاضر واحد من الرئيسات Primates ، وهو ، داخل الرئيسات ، نوع واحد وحيد وجنس وحيد في فصيلة هي الـ Hominidés (البشرىات) .

(٥) بل لنلاحظ أن ستالين أدخل ، بحق ، معرفة صنع الأدوات وعلم استخدامها تحت مقولة قوى الانتاج، إذن تحت مقولة أسلوب الانتاج ومقولة «شروط الحياة المادية» . لكن هل يوجد قراء كثيرون قرأوا ذلك ، توقفوا عنده ؟ بالطبع ، إن هذا الإدخال ، الصحيح والبهدي ، يتناقض مع مذهب ستالين ، يكشف بطلانه الأساسي . شروط الحياة المادية غير الماتة والمادي - المصانع ودور العبادة كلاهما مادي ومحسوس بالتساوي . . .

والقردة الأقرب له والمسماة «قردة شبيهة بالإنسان» هي ثلاثة أجناس مختلفة (غوريلا ، شمبانزه ، أورانغ أو تانغ) في فصيلة أخرى هي الـ Pongides . ولهايتين الفصيلتين ، وهما الأحداث ، أرومة مشتركة . . . علمياً ، لا يمكن التكلم عن تحول ينقل من القرد إلى الإنسان . والشجرة هي «الرئيسات» لا «القردة»<sup>(٢١)</sup> . . . غير أن هذا الخطأ ، أو غيره في متن النص ، ليس هو الشيء المهم . و ، نظرياً أي علمياً ، يمكن (ويجب) التكلم عن تحول ينقل من «الحيوان» إلى الإنسان ، أي الحيوان «الصانع» ، «العاقل» ، «الفاعل» و«العارف» : وهذا موضوع إنجلز وقضيته . ونشوء الإنسان» يصب على الراهن .

[مقالة إنجلز تنتهي ، في أمثلة ضاربة ، على معانية افتراق الأهداف والنتائج ، أي على إشكالية العمل الإنساني بوصفه فاعلية غائية ، «تيلولوجية» (كما يقول لوكاتش)<sup>(٢٢)</sup> . مع ظهور العمل الإنساني ، يظهر «الهدف» وقطعه ، في الدنيا . الإنسان - النوع يني بيتاً ، يصنع حذاءً ، قطاراً ، يزرع ويتوسع في زراعته ، ينشئ معامل ومصانع . . . يحقق (يوقعين) هدفه الذاتي : هذا في المدى المباشر والقريب ، في المستوى الفردي أو شبه الفردي . في مدى أكبر ، ليس الأمر كذلك بتاتاً . النتائج البعيدة تتخطى الأهداف ، المفعول ليس المقصود ، العالم الناتج غير مأرود . مأراده صاحب العمل أو صاحب «المشروع» هو «أصغر» من أو مخالف وربما معاكس لعالم الحصول أو الوقوع .

(يقول إنجلز في نهاية مقاله : «حين تعلم العرب تقطير الكحول ، لم يخطر لهم على بال ولا حتى في الحلم أنهم بذلك قد خلقوا إحدى الأدوات الرئيسية التي ستمحي بواسطتها من وجه البسيطة أرقام أصلية في قارة أميركا التي لم تكن قد اكتشفت بعد . وحين اكتشف كريستوف كولومب أميركا ، لم يكن يعلم أنه ، بعمله هذا ، كان يرجع إلى الحياة نظام الرق الذي كان قد اندثر في أوروبا منذ زمن طويل ويُرسى قواعد نخاسة الزوج . والرجال الذين كانوا ، في القرنين ١٧ و ١٨ ، يعملون على تحقيق الآلة البخارية ، لم يكونوا يفكرون بأنهم يخلقون الأداة التي ، أكثر من أية أداة أخرى ، ستقلب النظام الاجتماعي في العالم بأسره ، وخاصة في أوروبا ، بتركيزها الثروة في جهة الأقلية والعري

(٥) وهذه «الشجرة» التي هي ذاتها فرع من اللبونات ، تضم ، إلى جانب البشرىات والقردة (برتها وفصائلها) ، «اليسوريين» وهم دون - القردة («أشباه قردة» أو قردة زائفة) .

(٥٥) في «المحاورات مع الاساتذة الألمان» ، دار الطليعة . - لقد ذكرنا أن ترجمة رأس المال إلى الفرنسية انطوت على تشويهات وانها تشويهات في اتجاه محدد وضعائي . المترجم لم يحتمل ما اعتبره ، وبعثه آخرون في عصرنا ، لاهوتية ماركس ومثالية ماركس ... لنذكر أن التشويه أصاب الشغل ، عملية الشغل ، حيث أحل مصطلح «الحد الأخير» محل مصطلح «الهدف» !!

في جهة العالوية العظمى» . . .

لكن كان ثمة قيمة ومعنى لأوصاف المادية والموضوعية والواقعية التي يحملها «التصور المادي للتاريخ» فهي هنا ! إن هذا الافتراق بين الأهداف والنتائج ، بين الوعي والواقع ، هو الذي يفصل التصور المادي عن التصور المثالي للتاريخ . التاريخ ليس ابن الوعي بالمعنى الأنف . هنا الفاصل ! ليس عند المنفعة /و/ التطلع والاستباق . بل الماركسية الصاحبة ضد تلك ومع هذين ، وذلك بحكم تطلعها ومشروعها الثوري الشامل وبحكم نظرتها إلى الواقع والتاريخ كمنطق . بل وإن «المنفعة» تلك تابعة للذاتوية والمثالية» . . .

ولنتابع قراءتنا لحاتمة مقالة أنجلز : «كل أنماط الانتاج السابقة لم ترم إلا إلى بلوغ النتيجة النافعة الأقرب ، الأكثر مباشرة ، للعمل - الشغل . كانوا يتركون جانباً بالتمام العواقب البعيدة ، تلك العواقب التي لا تذلل إلا فيما بعد ، التي لا تدخل في اللعب إلا بتيحة التكرار والتراكم المتدرجين [ . . . ] . إن العلم الاجتماعي للبرجوازية ، الاقتصاد السياسي الكلاسيكي ، لا يعنى بشكل رئيسي إلا بالمفاعيل الاجتماعية التي تسعى إليها مباشرة الأفعال البشرية والمؤججة نحو الانتاج والتبادل . وهذا يتفق تماماً مع التنظيم الاجتماعي الذي العلم المذكور تعبيرة النظري [ . . . ] . الفارمون الامبان في كوبا الذين أحرقوا العادات على المنحدرات ووجدوا في الرماد ما يكفي من السماد لجبل واحد من أشجار البن المريحة جداً ، في ماذا كان يهمهم أن تجرف الأمطار المدارية ، فيما بعد ، طبقة التربة السطحية التي باتت بلا حماية ، تاركة وراها الصخور الجرداء وحسب ؟ إزاء الطبيعة وإزاء المجتمع ، إنهم لا يعتبرون بشكل رئيسي ، في نمط الانتاج الراهن ، سوى النتيجة الأقرب ، الأكثر ملموسة ؛ ومن ثم يندهبون لكون العواقب البعيدة للأفعال الرامية إلى هذه النتيجة المباشرة شيئاً آخر تماماً ، ومعاكساً بالتمام في الغالب ؛ يندهبون لكون تعامل العرض والطلب يتحول إلى ضده القطبي كما يبين لنا سير كل دورة صناعية عشرية ، وكما أخذت ألمانيا عن ذلك طقماً أول صغيراً مع الانهيار الأخير [المقصود أزمة ١٨٧٣ - ٧٤] ؛ يندهبون لكون الملكية الخاصة المرتكزة على الشغل الشخصي تتطور بالضرورة نحو غياب الملكية للشغيلة ، بينما يتركز كل امتلاك أكثر فأكثر في أيدي غير الشغيلة ؛ يندهبون لكون . . . » .

هنا تنتهي مخطوطة أنجلز : هذه المقالة جزء من مجموعة جدل الطبيعة ، حيث

(٥) ها ، تنبذ أهمية العمل ، «العقل» ، «مكر العمل» (مكر الله) . . . هذه الفكرة هي مصدر وأساس كل التصور المادياني - الماركسي - للتاريخ ، ضد شتى الذاتويات والمضغيات .

لها ، في مدخل هذا الكتاب الكبير ، صفحة موازية أو بالأصح صفتان ، مقطعان هاتان ، نأخذ من نهايتهما مايلي : «وحده تنظيم واع للانتاج الاجتماعي ، يكون فيه الانتاج والتوزيع حاضرين لحظة ، يمكن أن يرفع البشر فوق العالم الحيواني من وجهة النظر الاجتماعية مثلما الانتاج نفسه رفعهم كنوع . إن التطور التاريخي يجعل تنظيم كنهذا أكثر ضرورة يوماً بعد يوم ، لكن أيضاً أكثر قابلية للتحقيق» .

لنقل : هذا أحد «تعريفات» المشروع الثوري عند ماركس وأنجلز . وهو وثيق الارتباط بكل تصورهما للطبيعة والانسان والتاريخ . أنجلز ذهب ، في مقالته وفي القسم الموازي لها في «المدخل» ، من نشوء الانسان ، افتراقه عن الحيوان ، إلى المشروع الثوري الراهن ، على أساس مسألة العمل الأساسي في التاريخ (سيطرة وعدم سيطرة البشرية على نتائج أفعالها) . باختصار ، في ضوء المقطع الأخير كما نقلناه : من الانسان - النوع إلى الانسان - المجتمع أو الجماعة . بين الاثنين ، التاريخ أنجب «المجتمع المدني» هد مايمكن قوله في ضوء أطروحات ماركس عن فويرباخ . . . تلك مسائل لاتزال حظوة في ماركسية ستالين (ولا في ماركسية كثيرين غيره . ألتوسير يلغي «الهدف» من تعريفه لـ «الممارسة» أو «العمل» la pratique ويلغي «المجتمع المدني» كمفهوم غير «إجرائي» ، الخ (الخ) . كتاب «المادية الجدلية والمادية التاريخية» لا يتعامل مع قضية من نوع «نشوء الانسان» ، ليس فقط لأن الكتاب المذكور صغير الحجم - وهو كذلك فعلاً - بل لأن التعامل مستحيل مع هذا الميدان الذي هو «انتقال من الطبيعة إلى التاريخ» (تاريخ الانسان) . في ماركسية ستالين ، هذا «الانتقال» صعب . . . أما إلغاء «النمط الآسيوي للانتاج» فهو يعزز مقولات وأطروحات «المادية التاريخية» : إخراج البيئة الطبيعية والديموغرافيا خارج «نمط الانتاج» وخارج «قوى الانتاج» ، وخارج قضية التعيين والحسم . الصالح والطالح يتداخلان . ليست البيئة الطبيعية أداة إنتاج ، ولا فائدة من إدخالها في وتحت «قوى الانتاج» . يمكن أن تكون «أكبر» من ذلك أيضاً . موقف ستالين مناسب لـ «تاريخ أوروبا» خلال الحقبة التاريخية (شرط «رد الاعتبار» لفكرة الانتاج نفسها ، إذن وبالتالي للأرض والسكان) . ونحن بحاجة اليوم - وعالمياً - إلى ماهو «أكبر» بكثير ، مكاناً وزماناً ومنطقاً .

وكتاب «قرانا الأولى» من أفضل الكتب التي تلي هذه الحاجة . نضعه بين يدي القارئ ، راجين أن يكون موضع دراسة متأنية ومثارة لمناقشات مجدية . ومن أجل ذلك فإن أفضل مانهي به هذه المقدمة هو فقرتان من كلام كوفان .

الأولى ، في الفصل الأول ، وتقول : «إن الأهمية الخاصة التي ترتديها عملية



التحضر والقرى الأولى تتبع من حقيقة أنها تعرض بداية ذلك التحويل للطبيعة على يد الإنسان ، الذي يكف عن كونه نوعاً قائماً بين أنواع أخرى ويستولي آنذاك على دوره النوعي كـ«بستاني للعالم ، صائراً بذلك ، كما يقول ديكارت ، «سيده ومالكه» .

الثانية ، خاتمة الكتاب : «في العالم الحاضر ، حيث شرعت ابيولوجيات فائقة الحرص على الاضطلاع بالحاجات الأكثر عيانية لمجتمعنا تتساءل عن الطبيعة الحقيقية لهذه الحاجات ، وحيث جاءت اتجاهات أخرى أكثر جذرية أيضاً لتنادي بـ«ثقافة - مضادة» رداً على تناقضات اقتصاد غازٍ مكتسح ، قد لا تكون هذه التأملات القليلة ، المستوحاة من ماضٍ بعيد ، بعيدة عن الراهن» .

الياس مرقص

## مقدمة

قبل حوالي ١٢٠٠٠ سنة ، ومع انتهاء المرحلة الرئيسية الأخيرة من عصر الجليد البليستوسيني ، شرع نوعنا بخطوة خطوة في اتجاه عتبة جديدة . في ذلك الحين ، كانت كل أجزاء الأرض القابلة للسكن والتي يمكن أن يقطنها بشر يعيشون حصراً على اقتصاد الصيد والقطف - ومهما كثف - قد سُكنت . وكانت العتبة ، عند تمام إنجازها ، طريقة حياة تتوقف على الانتاج الفعلي للتموين الغذائي ، عبر تأهيل لنباتات وعادةً ، الحيوانات . لو لم تُعبر العتبة تماماً لكنا جميعاً اليوم قوماً من الصيادين - القطارين . هل كنا نكون أسعد بما نحن أم لا ، هذا أمر لا يمكنني تخمينه .

منذ الحرب العالمية الثانية ، غني واحد من ميادين البحث الآثاري البشري الأكثر نشاطاً بتناول أمر إنتاج الغذاء وإنجازته وإنجاز طريقة حياة جماعة ، قروية - مزارعة ، فعلية . نعلم الآن أن هذه العتبة عُبرت ، بصورة مستقلة في حيثيات هامة في أجزاء مختلفة من العالم في وقت واحد تقريباً . ومن المفهوم أن تكون العتبة التي عُبرت في آسيا الجنوبية - الغربية ، في نظر الذين يعيشون داخل التقليد الثقافي الغربي ، هي الأكثر جذباً وثقة .

هنا تتراءى منطقتان ، على الأقل ، لغاوية ثقافية حضارية مثيرة للاهتمام في زمن مقارنة آسيا الجنوبية - الغربية للعتبة . إحداهما تمتد على السفوح الجبلية والوديان المرتفعة في جبال طوروس الشرقية وجبال زاغروس ، التي ترونها منظومات دجلة - قارون النهرية . والمنطقة الأخرى تضم البلاد الممتدة بمحاذاة البحر المتوسط الشرقي والواصلة في الداخل حتى وادي الفرات الأوسط . كانت الأخيرة من بين المنطقتين هي التي جذبت انتباه الزملاء الفرنسيين والتي أنتج فيها ميدانهم الآثاري إسهامات عالية الدلالة في معرفتنا لهذه المرحلة الهامة من تاريخ الثقافة . وكما هو حال معظم الآثاريين ، كان لي أنا نفسي قضية غرام طويلة مع تلال ومنطقتي - سفوح طوروس الشرقي وزاغروس - لكنني بالتأكيد لأفترض أن جميع أهم الاختراقات الحرجة نحو نمط الحياة الجديد قد وقعت هناك .

بالحقيقة من الإنصاف أن نقول إن اقتضاعات أي من الحفريات الأخيرة لم تغير إلى هذا الحد ولم تحفز أفكارنا عن سير التطور الثقافي ، وقت مقارنة الفرات .

حتى هذا الوقت ، كان ما عرف عن العصر النطومي محصوراً بشكل تام تقريباً في مواقع موجودة في المنطقة المجاورة لشاطئ المتوسط الشرقي . وإذا استخدم كوفان معطيات هذه المواقع ومعطيات تنقيياته الخاصة في تل مريط ، فهو قادر على إنشاء تركيب جديد وجذاب في مقارنة العتبة . إضافة إلى ذلك ، إنه يدفع هذا التركيب إلى ابعاد بضمة أدلة من مواقع - على الفرات الأوسط وإلى الغرب - تم فيها إنتاج القوت .

وسط موديلات ميكانيستية مبالغة عن كيفية إنجاز العتبة ، لمحا يلج الصدر أن يكون لدينا تأويل كوفان مع تأكيد الانساني البارز .

ر . ج . بريدوود

## توطئة

هذا الكتاب يجمع نتائج سيمينارات ما قبل التاريخ المعطاة منذ ١٩٧٦ في «بيت الشرق» . إنني مدين بشكل خاص لـ أ. أورانش ، مسؤول مركز جان بالرن في جامعة سانت إتيان الذي نظم السيمينار الأول ، وللسيدة م. يون من «بيت الشرق» التي فتحت لي مجموعة بيت الشرق C M O التي ثغني بها ، لكي يصدر هذا النص فيها . وقد احتاج تأليفه إلى اسهام السيدة ت. - أوزيول (بيت الشرق) والسيدة ج. جيرو والسيد ب. يون (سانت إتيان) الذين أشكرهم بحرارة .

لححر المخطوط في مركز بحوث الإيكولوجيا البشرية وما قبل التاريخ في سانت أندره دو كروزير ، حيث نلت عوناً كبيراً من ماري كلير كوفان ودانييل ستوردور ، في مناقشات عديدة ، من أجل ضبطه . السيد ج. ٩ . دير ابراهيميان أنشأ رسوم الإيضاح ، والسيدة أ. بواسيه أنشأت الدليل المؤشر ، السيدات ج. بيرشهوف ، م. فاندروم ، ل. دريفوس توليّن الضرب على الآلة الكاتبة : لهن جميعاً امتناني .

أخيراً أشكر زميلي ر. ج. بريدوود و ه. دوكونسون على المعلومات العلمية والتصحيحات التي أفاداني بها خلال التحرير

ج . كوفان



## الفصل الأول

### عملية الاستقرار الحضري

الحقبة الممتدة من الألف العاشر إلى الألف السادس قبل الميلاد ، في الشرق الأدنى ، حاسمة . آنذاك ظهرت هناك في وقت أبكر كما يبدو مما في أي مكان آخر مجموعة من التغيرات أدركنا دائماً بشكل واضح نقطة انطلاقها ونتائجها ، وبشكل أقل وضوحاً بكثير أسبابها وترتيبها الخاص .

في المنطلق ، هناك القناصون - الجامعون في أواخر البليستوسين وبدايات الهولوسين ، وهم منتقلون إلى هذا الحد أو ذاك حسب طبيعة مواردهم ، وتلائم وحداتهم الاجتماعية الضيقة عددياً بسهولة مع المجال الصغير جداً للملاحي (كهوف وملاجئ تحت الصخور) نعر فيها ، غالباً إن ليس دائماً ، على بقاياهم . في نقطة الوصول ، هناك القرية الزراعية المسماة «نيوليتية» ، وهي إنشاء ثابت في المجال ، حيث أن جماعة بشرية أكثر كثافة قد بنت في الهواء الطلق بيوتها وهي تنتج غذاءها وتستخدم تكنولوجيا جديدة تتضمن صقل الحجر وصنع الفخار وتمارس كما يبدو ديناً جديداً يتميز بطقوس وفناً مختلفين .

هذا التحول يتراءى للمظرة الأولى بوصفه ثورة : إنها «الثورة النيوليتية» حسب غوردون تشايلد . التعبير صائب ، إذ أنه يستحضر الطابع الشامل والجذري ، والتحول المذكور يخص جميع وجوه حياة الزمر البشرية من اجتماعية واقتصادية وتكنولوجية وايدولوجية . لكنه غير صحيح إذا كان يتركنا نعتقد أن كل هذه التغيرات متأتية أو على الأقل متمركزة في وقت قصير .

كان هذا الظن ممكناً حين كان التحول النيوليتي كما أدركه الآثاريون الأوروبيون في بلادهم يقدم كل تلك الإبداعات التي هي القرى والحجر المصقول والفخار وتدجين النبات والحيوان كأنها متوافقة بالفعل . فالنيوليتي يظهر في الغرب «تأم التسليح» بتضاد واضح

وكامل مع مايسبقه : هكذا التيار الدانوبي في الألف السادس ق م .

وإذ وعى تشايلد منذ سنة ١٩٣٤ أن الحركة المعنية جاءت من مكان آخر وأن الشرق - الأدنى يقدم عنها على أي حال صورة أبكر ، إذ أفضى الشرق الأدنى كان العالم المذكور يحدد موقع ظهور «الثورة النيوليتية» . لكن التحريات المتعمقة أكثر والتي أجريت منذ ذلك الحين في هذه المناطق قد غيرت إلى حد لا بأس به فكرتنا عن المسار .

من جهة ، إن المسار أطول مما ظنوا ، بدءاً من البيوت الأولى المبينة في الهواء الطلق في كيبيري عين جوف ، الألف الثالث عشر ق م ، التي تشكل بداية مريثة ، وصولاً إلى قرى مثل بيلوس (جبل) التي تقدم أخيراً كل معايير «النيوليتي» التقليدية مجتمعة ، لكنها ليست أسبق من الألف السادس . إذاً بين الاثنين ليس ثمة تميز أمام البصر بل تطوّر بطني مواصل على مدى عدة آلاف من السنين . هذه الظاهرة من المناسب أن تسمى «الاستقرار الحضري» Sedentarisation إذ أن هذه التسمية تؤثر على سيروية تقدمية - تدريجية ولا تكتمل تماماً قط ، مادامت بعض مناطق العالم التي ظلت هامشية لا تبليغها إلا في أيامنا ، قصصنا التثبيت على الأرض في تجمعات من مساكن مبنية لجماعات أو متحدات متزايدة الكثافة وتعيش على جوار مستقر . إن الانتهاء إلى «القرية الزراعية» يعطي السيروية وحدتها ومعناها وأهميتها في التطور البشري ، مادامت هي في أساس حضارتنا المدنية . لكن تدريجياً قامت مؤلفاتها ، في الشرق الأدنى .

بادئ ذي بدء ، مع حفريات أريحا ، لاحظ العلماء كشيء مؤكد أن تجمعاً مثبداً متطوراً بل وعلى الأرجح محضاً كان يمكن أن يحل المحار والحجر المصقول . إنه «النيوليتي» ما قبل الفخار في فلسطين . ونعلم ، منذ حفريات بيرتو Perrot ، أن قرية مستقرة يمكن أن تجهل إنتاج العيش ، وأنه بالتالي لا وجود للتوافق بين الظاهرتين الذي طالما افترضه العلماء . بل أخيراً إن الأمثلة الانتوغرافية الحية وأبحاث هول وفلانيري Flannery et Hole الأخيرة على مخلفات الألف السادس في سهل ده لهران باليران قد بينت أن وجود قرى ليس مرادفاً بالضرورة للاستقرار الحضري ، أي لتثبيت السكان الدائم في حضنها ، فقد لا يكون حضورهم فيها إلا موسمياً .

إذاً ، في مناطق الشرق (سورية ، لبنان ، فلسطين) التي ازداد توثيقنا عنها الآن اردبداً كبيراً ، سيكون علينا أن نمر بشكل مفصل إلى ستة عوامل بوصفها «متغيرات» أو «متحولات» لم تعد ترابطاتها المتبادلة ، على الأقل عند المنشأ ، بديهية «قتلياً» ، بل يجب أن تكون هي لب معضلتنا .

هذه العوامل هي :

- ١ - «الخروج من الكهوف» وتكوين تجمعات مشيدة في العراء (القرى) ؛
- ٢ - درجة استقرار الأهالي داخل هذه القرى ؛
- ٣ - القرية نفسها بصفتها إنجازاً عمرانياً ، تطوّر مخططاتها ودلالاته ؛
- ٤ - إنتاج العيش أو القوت ؛
- ٥ - التطوّر التكنولوجي والتقنيات الجديدة ؛
- ٦ - التطوّر الأيديولوجي كما يتجلى في الفن أو الطقوس المتعلقة بالموتى .

العوامل التي عتدناها تشير إلى سلوكيات بشرية في ميادين متميزة هي على التوالي : التجمع ، التثبيت ، الانتجاع ، التغذي ، التجهز بأدوات ، الاعتقاد .

من جهة أخرى ، هذه السلوكيات لا تنبسط في الفراغ بل داخل بيئة طبيعية ، هي أيضاً «فاعلة» ، تفرض فواصلها وضغوطاتها ، وتلقى رجوعاً تغييرات . إن المنظور «الإيكولوجي» (البيئي) الذي تندرج فيه التنقيبات ما قبل التاريخية يشدد على واقع أن السلوك البشري وبقياء الفاعليات التي يكشفها ويدرسها علم الآثار لا تعرف سوى حد من حذري حوار : الطبيعة هي الشريك الثاني . من وجهة النظر هذه ليس الاستقرار سوى شكل جديد لهذا الحوار ، طريقة مختلفة أساسياً في استعمال البيئة والتدخل فيها . لذا فتنقيبات علماء الطبيعة تجتمع بشكل وثيق مع الحفريات الأثرية بحكم التعدد الحديث لميادين علمية متعاونة ؛ وهي لا تقل أهمية عن عمل الآثار بالمعنى الخاص ، إذ أنها تحلّل ، على «اللوحة الحساسة» للبيئة ، بأن معاً شروط النشاط البشري ونتائجه . نعلم ، بخاصة ، إن اختراع زراعة الأرض وتربية الحيوان ما كان يمكن أن يتم إلا في سياق ما ، مناخي ، بيئي ، حيواني ، وأن الشرق الأدنى كان يشكل في هذه الحيشة إطاراً طبعياً ذا امتياز . إذاً ، في الحاصل ، صار أمامنا إذا ما أدرجنا البيئة الطبيعية ، مجموع من سبعة عوامل ينبغي فحصها بحثاً عن دورها في جملة عملية التحضر .

فالقضية ليست وصف التحضر فقط بل تعليقه كل معانية لتعير إما تقتضي الاستفهام عن أسبابه . دور «النظريات» فكّ السيرويات وإدخال ترتيب منطقي فيها مع تمييز العوامل الحاسمة عن العوامل المشتقة ، وتسجيل علاقات السببية و«التسلسلات» التي يمكن أن تربطها ، باختصار بدلاً من الصف الخطي المسطوح للوقائع الخام إنشاء الرؤية الواضحة التضاريسية لـ «ميكانيزم» أو «آلية» .

ليس هذا الجهد النظري جديداً مادام يعرف ، مع ملاحظة الوقائع ، المسيرة العلمية



عينها ، لكنه برز بشكل خاص في مكان الصدارة ، مع مفردات جديدة ، على يد الـ «بيوركيولوجيا» الأميركية (علم الآثار الجديد الأمريكي) ، حيث أن «الموديل» ماهو إلا مراكية منطقية صيغت انطلاقاً من الوقائع المعروفة أصلاً لكن حصّة الفرضية والاستباق فيها كبيرة بما يكفي لفرض ملاحظات لاحقة كضرورة لروز صلاح «الموديل»<sup>(١)</sup> .

لقد أغرى التوطن الحضري أكثر من أية ظاهرة أخرى دكاء «الآثاريين الجدد» وازدهر «الموديل» لتعليل القرى الأولى واختراع إنتاج العيش . قاد ذلك ، كما هو طبيعي ، إلى اصطفاء بعض العوامل التي صارت مفتاح منظومة التعليل المقترحة . وسيقودنا بشكل طبيعي أيضاً ، في الخطب الصحيح لأسلوب «العودة إلى الوقائع» الذي ينادي به «علم الآثار الجديد» نفسه ، إلى وضع هذه الموديلات على محك امتحان أحدث الاكتشافات المحققة في بلاد الشام .

والحال ، إن أكثر هذه النظريات الراهنة عن التحضر رواجاً (نقصد نظريات فلانري أو بنفورد) قد احتفظت ، جوهرياً ، بموقف تشايلد ، ألا وهو شكل ما من أشكال «المذهب المادي» الذي يضي الامتياز ، من بين جميع العوامل ، على الحاجات الغذائية في الزمرة البشرية وعلى الموارد المتوفرة في البيئة الطبيعية ، والذي يؤوّل التغيرات في جميع الميادين الأخرى (الاجتماعية ، الثقافية ، الخ . .) بوصفها انعكاسات تكيف ضروري يستجيب لاختلال في التوازن وقع بين ذينك العاملين الأساسيين . كان تشايلد ، كما نعلم ، يضي الامتياز في «نظرية الواحات»<sup>(٢)</sup> على العوامل المناخية وتغيرات البيئة المحيطة بالإنسان ، في حين أن بنفورد<sup>(٣)</sup> يضع التشديد على الاختلالات الديموغرافية وعلى ظواهر الهجرة الناجمة عنها . لكننا في الحالتين نرى الجماعات البشرية المفترضة تجابه وضعية جديدة ، صادمة ومدملة ، أي بيئة لم تعد قادرة على إطعامها ، وتتحرك بمجموع كياناتها كي تحوّل بناها وتعيد التوازن . إذاً هو ذا نموذج اصطفاء نظري كنا نتكلم عنه . وبين مختلف العوامل التي تعرض نفسها للملاحظة ، يُعتبر البعض أهم من البعض الآخر في منبج «التسلسل» التطوري .

من البدهي أن النظريات وإن كانت وظيفتها ترتيب «الوقائع» فهي كثيراً ما تُعَمَّل بموجب الافتراضات - المسبقة ، الايديولوجية ، لأصحابها ، لاسيما حين تكون الوقائع

(١) Clarke, 1972 ، ص ٢ .

(٢) Childe 1952

(٣) Binford 1968

نفسها نادرة ، وجزئية ، وغير كافية . من التعليل المقترح يبرز تصوّر للإنسان ، ضمني أو لا . كان تشايلد يستند صراحة إلى ماركسية زمنه حين كان يعتبر أن «الموارد الطبيعية لمنطقة السكن» هي في عداد «قوى الإنتاج المحددة لبنية مجتمع من المجتمعات»<sup>(٤)</sup> . ولجد خياراً قريباً من ذلك في النظريات «البيئية» الأميركية المذكورة أعلاه ، حيث أن أفكاراً ماركسية سارت قدماً في وقت متأخر نسبياً مع ما يسميه كلجن<sup>(٥)</sup> «التحول التشايلدي» الحديث العهد لعلم الآثار الغربي .

ليس لنا أن نطعن هنا في هذه الخيارات ، بل ولا أن نتساءل عما إذا استُخدم المنهج الماركسي استخداماً جيداً . إن هدف هذا العمل هو التوجه إلى الوقائع عينها ، التي أغنتها مؤخراً وقائع جديدة ، وامتحان صواب الموديلات المقترحة بالتماس معها . وتزيد هذا المشروع إلحاحاً ندرة وجزئية المعطيات الخام التي بُنيت عليها الموديلات ، في البداية . وهكذا فإن ظهور إنتاج القوت في الشرق الأدنى لم يحصل إلا في الألف الثامن ، إذ أننا عبثاً بحثنا عنه في الألف التاسع ويبدو شيئاً محزناً في الألف السابع . والحال ، لم يكن لدينا قبل قليل ، من أجل تقدير هذا المعطف الذي هو الألف الثامن ، سوى حمرة أريحا الخرساء عملياً عن هذه المعضلة وبعض السجلات المحدودة أو المشكوك فيها فوق موقعين آخرين من فلسطين . فموديلات بنفورد وفلاري مفهومية في شطر كبير منها ، أي مؤسسة على افتراضات أولية غير محققة عن البيئة الطبيعية نفسها وعن كيفية ارتكاس الجماعات البشرية لهذه البيئة ، على حدّ سواء . وهذا بضائع الطابع الافتراضي على «التسلسلات» المقترحة ، لاسيما ، في تفسير ظاهرة هامة أهمية بدايات الزراعة .

والحال ، إن هذه الأهمية تتخطى كثيراً محتوى علم الآثار كميديان أو انضباط علمي محدّد ونتائجه . إن هذا العلم يحتل الآن في العلوم الانسانية مكاناً فريداً ، ولا يقتصّر في السعي التافه وراء وثائق متحفية ولا في إعادة تكوين مجانية للماضي . إن رواجه الراهن والاهتمام الذي يثيره في وسط الجمهور إنما يعكسان بالحقيقة فضولاً أعمق ، عند هذه المرحلة ، مرحلة الأزمة وعدم التوازن التي وصل إليها مجتمعنا الحديث . في الوقت الذي تصادم فيه الايديولوجيات وتفرّج على مجتمعات الحاضر مستقبلاً ما ، تابعاً في كل مرة لفكرة ما عن البشرية ، قوي لديهم إغراء تسويق هذه الفكرة بواسطة إنشاء صورة التطور البشري التوليدية وهذا يعطي ميادين - علوم التاريخ والحجج التي

(٤) Childe 1951 ، ص ٢٥

(٥) Klejn 1977 ، ص ٢٠

تقدمها كل أهميتها . إن تياري الفكر الرئيسيين في القرن التاسع عشر ثم في هذا القرن ، وهما الماركسية والتحليل النفسي ، لم يمتعا ، بكتاب أصل العائلة أو كتاب الطوطم والثابو ، عن انشعاعات تدعي الرجوع الصاعد حتى ما قبل التاريخ رغم هزال المعرفة التي كان يقدمها علم الآثار آنذاك عن ما قبل التاريخ . إن عالم الآثار الحالي هو نفسه ، إذ يتلقى طلبات الأيديولوجيات السائدة ، ينساق بشكل طبيعي كما رأينا إلى التعويض عن قلة الوقائع المتوفرة له بتسلسلات مقبولة منطقياً لكنها غير محققة ، أي أنها حتماً متأثرة بالأيديولوجيات نفسها .

إلا أن الأهمية الخاصة التي ترتبها عملية التحضر (التوطن) والقرى الأولى تنبع من حقيقة أنها تعرض بداية ذلك التحويل للطبيعة على يد الإنسان ، الذي يكف عن كونه نوعاً قاصداً بين أنواع أخرى ويستولي آنذاك على دوره النوعي كبستاني للعالم ، صائراً بذلك ، كما يقول ديكارت ، «سيد ومالكه» .

نتائج ذلك التبدل معروفة : إنه العالم الذي نعيش فيه . مالميس معروفاً إلى هذا الحد ، وما هو موضوع التحولات الحاضرة ، هو الطبيعة الحقيقية للعوامل التي ، سواء في الإنسان أو خارجه ، أدت أصلاً إلى هذا التغير للموقف .

إيراداً لما لا آخر يستخدم «متحولين» اثنين متباعدين قَبَلًا تباعد البحث عن الطعام لدى زمرة بشرية من جهة وجملة معتقداتها ، أي هذا الذي يضبط «وسطها الداخلي» (كما يقول لوروا - غورهان) ببيكانزم الذاتية - المتبادلة ، من جهة أخرى ، نجد أنفسنا ، إذا ما سلطنا علاقتهما ، أمام موقفين متناقضين تماماً : أحدهما ، وهو محسوس بشكل خاص عند بعض مؤرخي الأدب ، بالباد Eliade ، مثلاً [بحسب بالامتيار حملة طفوس التي تبدو ترافق الأشكال البدائية لإنتاج العيش ، بل وسيتكلم بعض الباحثين عن منشأ ديني لتدجين النبات والحيوان] ، والآخر «مادي» ، يعتبر كل واقعة دينية ظاهرة ملحقة وسيبقى في هذه الطقوس وهذه المعتقدات الانعكاس التدريجي وال«ثاني» لتعيرات اقتصادية . لكن يجب ألا ننسى أن كلا الموقفين استمداً بشكل خاص من تحريات إثنوغرافية على المجتمعات البدائية الراهنة ، حيث هذه الوقائع تشاهد بأن معاً دوماً إشارة تُعَم عن الترتيب الفعلي لتولدها ، فالترتيب الذي يختاره العالم ليس في الحاصل أكثر من فرضية . وحده انضباط علمي تاريخي يعمل على مستوثقات مرتبة فعلياً في الزمان قادراً مبدئياً على الحسم في قضية قيمة هذا الخيار أو ذاك .

لذا يبدو لنا أن المهمة الأولى المطلوب إنجازها قبل أي جهد تفسيري هي ترتيب العوامل المختلفة ترتيباً واضحاً دقيقاً في الزمان . إن الأسقية المنصبة لنسب على النتيجة في

علم تاريخي منضبط لا يمكن إلا أن تغطي أسبقية كرونولوجية ، وقد تحدثت انتقالات مذهلة إذا ما كشف تحليل أدق أن سبباً مفترضاً معيناً إنما هو بالواقع لاحق لنتيجته المفترضة . حدث انقلاب من هذا النوع قبل عشرين سنة ، حين بين اكتشاف عين ملاحية اسبقية القرى على إنتاج العيش الذي كان يُعتبر حتى ذلك الحين العامل الأول والمقرر .

إن السؤال المطروح في تاريخ قرية واحدة تقع فيها تعيرات شتى ، هو قبل كل شيء سؤال استراتيجي (تناضدي) وهو يحيلنا إذاً إلى تقنيات الحفر والتقيب . وحده منهنج أكثر تطلباً على الأرض من شأنه أحياناً أن يوضح الترتيب الحقيقي الذي تحصل فيه هذه التغيرات وأن يطرد بذلك عينه كثيراً من «السببيات الزائفة» . هذا صحيح على نحو خاص في المراحل التي يتسارع فيها التطور وتقوم فيها سلسلة تعديلات تقلب رأساً على عقب وفي زمن قصير نسبياً قطاعات عديدة من حياة المجتمعات : هكذا الحال ، كما سيرى القارئ ، في القسم الأول من الألف الثامن في سورية .

إذاً فعملنا الحاضر لا يدعي الإتيان بأجوبة فلسفية عن المسائل المذكورة أعلاه ، حتى وإن كانت طبيعة هذه المسائل تصب في المرجع الأخير على أسئلة أساسية بالنسبة لثقافتنا الحاضرة . على العكس ، القضية بالأحرى هي ، بواسطة جرد موضوعي للوقائع المتوفرة الآن والمعالجة علمياً ، إخلاء (أو تثبيت) عدد من هذه «القبليات» المذهبية التي لافز منها حين تكون المعطيات الواقعية قليلة مما يجعل الفكر النظري المضارب يستيق بنجاح متفاوت نتائج المعرفة العلمية . انطلاقاً من هذا الجرد فقط قد تنفتح سبل أصيلة للتفكير النظري



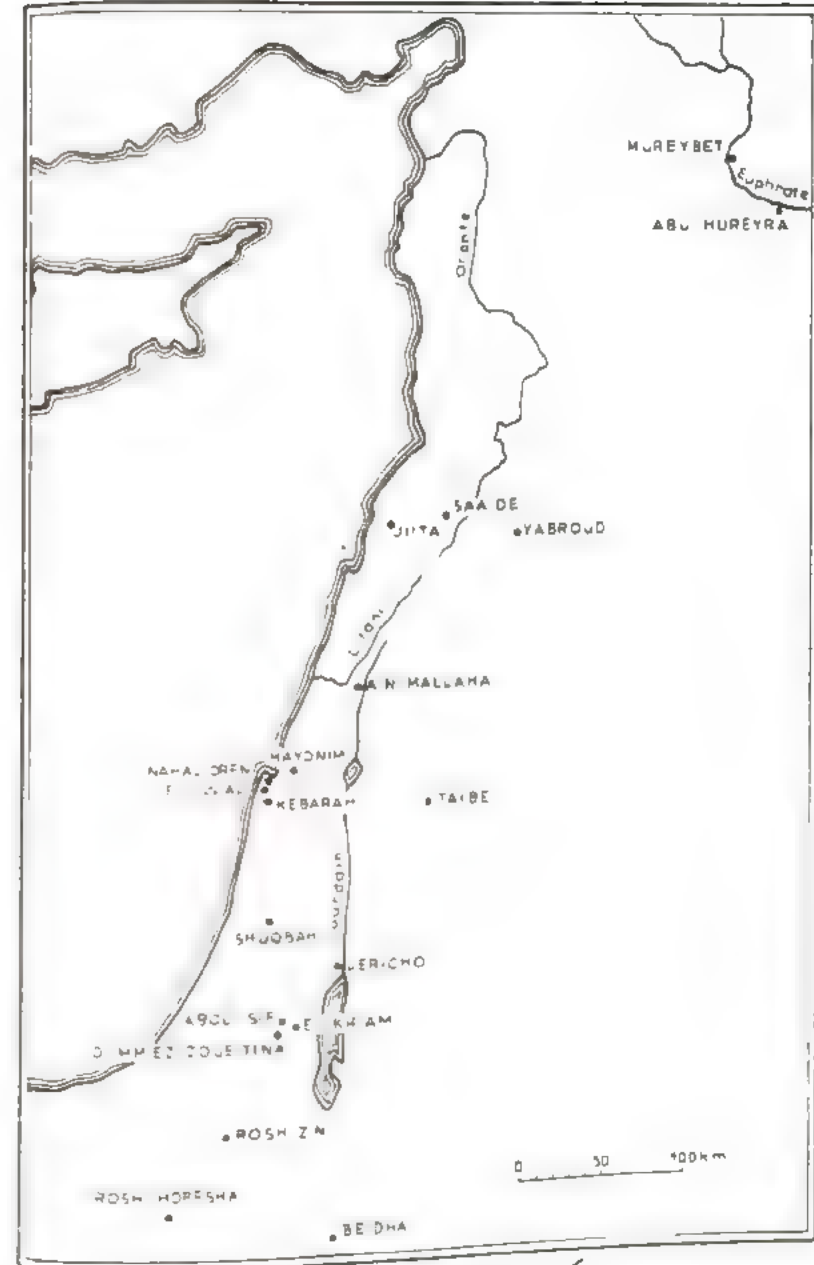
## الفصل الثاني

### «الخروج من الكهوف» والاستقرار : القرى النطوفية الأولى

إن احتلال الملاجئ الطبيعية هو أحد الملامح المميزة لحضارات الباليوليتي الأعلى . كان لذلك لاربع مزايا تتناسب للمناخ ، قصبتنا الحماية التي كانت توفرها هذه الملاجئ إزاء مناخ أبرد من مناخنا ، لكن ذلك يجب ألا يُنسبنا الحضور الموازي لإقامات في العراء ، اهتمها علماء ما قبل التاريخ مدة أطول لأن العثور عليها أصعب . لكن ، حين لا تنكشف هذه الإقامات الخارجية بحضور صناعات حجرية على السطح ، حينئذٍ تتوصل وحدها تنقيبات بالغة الدقة إلى كشف تنظيم المساكن نفسها ، فهي عشكرات أو مضارب خفيفة البنى (خيم أو أكواخ نباتية) أكثر منها عمائر حقيقية ولما تركت أثراً .

على الأقل هذه الإنشاءات موجودة . حين ستتكلم عن «خروج من الكهوف» ، ليس ماستحضره إقامة جديدة خارج الملاجئ الطبيعية ، بل التخلي التدريجي عن هذه الملاجئ ، أي عن نمط سكن كان حتى ذلك الحين موضوع تفضيل مشدد . وهنا لا يبدو أن العوامل المناخية لعبت دوراً مقررراً في هذا التخلي . في الشرق الأدنى ، بين ١٤٠٠٠ و ١١٠٠٠ سنة ق . م ، حسب الرسم التخطيطي لغبار الطلع عن بحيرة زيبار في جبال زاغروس<sup>(١)</sup> ، يتم تسخن المناخ في أواخر البليستوسينية ، حين تحمل مغارة شجرتي البلوط والفسق ، الدالة على سياق أكثر حرارة ورطوبة ، محل السهب البارد في الأرتيميزيا .

(١) van zeist 1967 . التواريخ المعطاة مبنية على كرونولوجيا الكربون ١٤ (١٤) غير المصححة ، ككل تواريخ هذا المؤلف .



شكل - ١ - توضع النطوفيين الرئيسية

أيضاً في هذا العصر تخرج الجيوب البرية من ملاحظتها الطبيعية في الحقب الباردة وتنتشر على الحواف الجبلية للسهل الخصيب .

والحال ، في زاغروس الشرقي عنه ، يتواصل المسلسل الباليوليتي لكهف شانيندار<sup>(٢)</sup> حتى نحو ٨٥٠٠ ق .م وجميع مواقع «الباليوليتي المضاف» المعروفة في العراق ، وإيران ، أو على بحر قزوين ، هي مواقع بكهوف أو ملاجئ<sup>(٣)</sup> .

في سورية وفلسطين ، يتوافق العصر الداهم من ١٤٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ق .م<sup>(٤)</sup> مع صناعات «الباليوليتي المضاف» التي تعقب الأورينياسبي الأخير والمستاة باسم «كباري» . إنها تتميز بكثرة الميكروليتات ومنها بشكل خاص الصفيحات أو النصيحات من دوات الظهر ، أو المجذوعة الظهر ، والمخارز الدقيقة والمثلثات . نجدتها من النقب حتى لبنان وحتى الفرات شرقاً<sup>(٥)</sup> . نحو سنة ١٢٠٠٠ تعقبها في فلسطين وفي لبنان صحنة ميكروليتية تتميز بأشياء المنحرف - المستطيلات : إنه «فالييتي» رشت<sup>(٦)</sup> أو «الكباري ذات الهندسيات A» حسب بار يوسف<sup>(٧)</sup> .

في معظم الملاجئ الطبيعية المنقبة فيها حتى الوقت الحاضر ، تواصل هذه الصناعات مسلسلات الباليوليتي بلا انقطاع ، تلك هي الحال في كباره والواد و كسار آكل .

عثر عليها أيضاً في الرءاء ، بل أن موقع عين جوف<sup>(٨)</sup> في وادي الأردن العالي اسفر عن كوخ مبني على شكل حفرة دائرية تعطي صورة مسيكة عن أكواخ النطوفي المستديرة . ولقد عثر في عين جوف II وحوآن III على عناصر أثاث طالما اعتبروا من قبل أنها لا تظهر إلا في العصر النطوفي ، ألا وهي معذات طحن وهرس وجرش (رخيات ، هواون ، مدقات) وأنصال - مناجل . وهذا يشهد ، بالأقل في منطقة الجيوب البرية ، على اقتصاد عيش يتمركز منذئذ ، كما في النطوفي ، على قطف هذه الجيوب .

حتى الوقت الحاضر يبقى اكتشاف عين جوف I استثنائياً ، وبما أن كوخاً مستديراً

واحداً لا يصنع قرية لذا لم يخطر لأحد أن يتكلم عن «قرية كبارية» . وهذا ، شأنه شأن الاستمرار في احتلال الكهوف ، يبين أنه لم تحدث بعد أية ثورة أساسية في تصور السكن .

## «الخروج من الكهوف» في العصر النطوفي

في تاريخ لم يُضبط بعد بشكل مقبول ، وعلى الأرجح نحو ١٠٠٠٠ ق .م ، تظهر في المشرق حضارة جديدة ، يقال لها نطوفية ، وتدوم حتى حوالي ٨٣٠٠ . أهميتها كبيرة بالنسبة للسيرورة التي تشغلنا .

تميزتها الرئيسية صناعة ميكروبيتية ذات هندسيات تغلب فيها الآل قطع الدوائر ، وتتضاف إليها ميكوليتات أخرى (مثلثات مختلفة الأضلاع أو متساوية الساقين ، صفيحات ذات ظهر ، مناقشات دقيقة) بنسب متغيرة ، وأيضاً أنصال - مناجل ، مكاشط ، مناقشات ، مخارز ، مثاقب ومستنثات . ثمة تطوّر ما في النماذج يمكن أن يلاحظ ، خلال الفترة ، زهاء ٢٠٠٠ سنة ، التي عاشتها هذه الحضارة ، وإن كان هذا التطور بحاجة إلى توضيح مضبوط : هكذا يظهر أن «الروتوش» المائل على الوجهين ، الذي يقال له «حلوان» ، لظهر الميكروليت ، يميّز المرحلة القديمة لهذه الحضارة . كذلك نكله الباحثون عن اتجاه إلى تنمية الهندسيات في المرحلة الأخيرة بينما تزداد نسبة المناقشات الدقيقة والمخارز<sup>(٩)</sup> .

بيد أن هذه الصناعة الحجرية ليست إلا عنصراً بين عناصر في جملة معقدة من العوامل الحضارية تشمل الأثاث الثقيل المتمثل في معذات الطحن أو الهرس أو الجرش ، والصناعة العظمية ، وأحياناً تحفاً فنية من الحجر أو العظم ، أغراضاً شتى للزينة من الحجر أو العظم أو القواقع ، والحضور الذي بات شائعاً لبنى منشأة (أكواخ مستديرة ، صوامع) ولمدافن فردية أو جماعية . بار يوسف اقترح إذا الاحتفاظ بتسمية «النطوفي» للحضارة الفلسطينية وحدها التي تقدّم معظم هذه الخصائص مجتمعة ، بينما تكون الصناعة الحجرية نفسها ، المعثور عليها منفردة ، تميز في سورية أو في لبنان أو في النقب حضارة مختلفة يدعوها «الكباري الهندسي B» . لقد سبق أن شدد علماء<sup>(١٠)</sup> على التناقض الموجود بين

(٩) neuville 1951; Cauvin M - C. 1974b; Henry 1973

(١٠) Hours, Copeland et Aurenche 1973 ، ص ٤٥٨

(٢) Solecki 1963

(٣) Hours, Copeland et Aurenche 1973 ، ص ٤٤٠ - ٤٤٣

(٤) انظر Henry et Servello 1947 ، ص ٣٤

(٥) في نهر الحمر . انظر Roodenberg ، يصدر لاحقاً .

(٦) Rust 1950

(٧) Bar Yosef 1970

(٨) Stekelis et Bar Yosef 1965



هذا التفريق الحضاري الذي يخص الحيز الفلسطيني وحده بالنطوفي وواقع أن الصناعة الحجرية عنها حين يُعثر عليها منفردة في فلسطين بالذات تزوّل على أنها هنا سحنة خاصة ، موسمية وعابرة ، للنطوفي . هذه الرؤية تنقضها من جهة أخرى الاكتشافات الأخيرة التي جرت في لبنان وفي سورية ، فقد وجدوا مع هذه الصناعة أثاث طحن وهرس وجرش في حوران - موقع طيبة<sup>(١١)</sup> ، في لبنان - موقع سعيده II<sup>(١٢)</sup> وموقع جعينة III<sup>(١٣)</sup> ، وعلى الفرات . ولقد أسفر الفرات أيضاً ، في أبو هريرة<sup>(١٤)</sup> أو مريبط<sup>(١٥)</sup> ، عن بني منشأة وعن صناعة عظيمة مع أغراض اشتهرت بأنها جدّ مألوفة لدى النطوفيين ألا وهي المزدوجات الرأس والسلاميات المثقوبة . أخيراً بدأنا نسجل بعض المؤشرات على أن تطوراً من نوع واحد يمكن أن يكون قد حصل في فلسطين وعلى الفرات داخل الحضارة النطوفية انطلاقاً من قاع كبريتي واحد<sup>(١٦)</sup> . إذا ، المكرة التي يقرحها هورس وكوبلاند وأورنش<sup>(١٧)</sup> والقائلة بوجود قاعدة حضارية وحيدة تمتد في ذلك العصر من الليل إلى الفرات مثبتة الآن ، بدون خسارة للخصائص الخاصة التي تنوع النطوفي إلى سحنات إقليمية متميزة .

ولكن أمكن حدوث ترددات حول الثسب الحضاري للصناعات ذوات القطع فذلك مرده ، كما رأينا ، إلى بعض التنوع أو التغير في سياقها ، ولا سيما إلى الأنماط المختلفة جداً في احتلال المجال التي يكشفها حضور هذه الصناعات . كذلك تمت اكتشافات النطوفي الأولى في كهوف أو ملاجئ ، في منطقة القدس أو على جبل الكرمل . لكن وقائع جديدة عديدة باتت مشهودة .

من جهة ، إن الاحتلال الكهفي لا ينحصر في السطح المحمي بل يفيض بشكل أوسع من الأمس القريب على المجال الطلق الذي يمتد أمامه ، تحتل شرفات أو مصاطب مع آثار كثيرة لتسويات : تلك هي الحال في منطقة القدس بالنسبة للشرفات الصعيرة في موقع

أم الزويتينة أو موقع طور أبوسيف<sup>(١٨)</sup> . وهي الحال بشكل خاص في جبل الكرمل وفي الساحل الفلسطيني : في موقع إلواد<sup>(١٩)</sup> جرى تدبير الشرفة التي مساحتها ٥٠٠ م<sup>٢</sup> بتسوية الأرض وحفر الصخر ، ويبدو جدار مستدير الشكل (تصوينة) من بلوكات كبيرة يحدّ حيز السكن ، كذلك ، في شقبة<sup>(٢٠)</sup> ، في هابونيم<sup>(٢١)</sup> ، نجد شرفات رحبة محتملة على مساحة حوالي ٢١٠٠ م<sup>٢</sup> . والأمر كذلك في وادي الفلاح<sup>(٢٢)</sup> . وحده كهف كباره<sup>(٢٣)</sup> يبدو يجهل هذا التجاوز ، لكن هذا الكهف الواسع بشكل خاص (٢٢٠٠ م<sup>٢</sup>) كان يؤلف بمفرده مساحة كافية للسكن ، وكذلك الحال بالنسبة للملاجئ تحت الصخور مثل يبرود III ، في سورية ، حيث يمكن لزمرة بشرية أن تنمو على راحتها بدون أن تفقد مزية الحماية الطبيعية .

الواقعة الثانية الهائلة هي تكاثر المناجم في الأرض المكشوفة ، بما لا يقاس مع ما كان موجوداً في العصر الكباري . هنا تُميّز محطات صغيرة تحصد فيها الصناعة الحجرية وحدها في السطح وتزوّل بوصفها محطات انتقالية لصيادين ، ومناجم أكبر شأناً تُسفر عند التنقيب عن كونها تجمعات حقيقية من أكواخ مستديرة وتُعتبر «معسكرات قاعدة» .

من الصعب جداً أن نعيد إنشاء صورة ماذا كان يمكن أن يكون في لحظة معطاة الاتساع الحقيقي لتلك القرى الأولى ، فالتنقيب لم يحترز إلى الآن سوى مساحات متواضعة بالقياس مع الاتساع الإجمالي للمنجم . هكذا في عين ملاح<sup>(٢٤)</sup> ، التي بدأ فيها الحفر منذ سنة ١٩٥١ ، تمّ حتى هذا اليوم تحرير حوالي عشرين من الأكواخ الصغيرة «نصف - المدفونة» ، لكن توجد حسب فاللا<sup>(٢٥)</sup> أربعة مستويات احتلال ولم يجر التعرف حتى الآن إلا على مسكنين متراعتين فعلاً . يبقى أن المساحة الاجمالية للمنجم تبلغ ٢٠٠٠ م<sup>٢</sup> وأنا إذن بشكل مؤكّد إزاء تجمع سكني حقيقي .

(١٨) Neuville 1951

(١٩) Garrod et Bate 1937 . لا يوجد أي شيء على شرفة إلواد أقدم من النطوفي .

(٢٠) Garrod 1942

(٢١) Henry et Davis 1974

(٢٢) Siekels et Yizraeli 1963 ; Noy, Legge et Higgs 1973

(٢٣) turville - Petre 1932

(٢٤) Perrot 1966 a

(٢٥) Valla 1975

(١١) Cauvin M - C. 1974b

(١٢) schreder 1970

(١٣) Hours 1966

(١٤) Moore, Hillman et Legge 1975

(١٥) Couvin J. (a) ، يصدر لاحقاً

(١٦) Cauvin M - C. (a) ، يصدر لاحقاً

(١٧) 1973 ، ص ١٥٨

في النقب يمتد منجم رأس زين ، حيث حُفرت خمسة بيوت ميسورية الشكل<sup>(٢٦)</sup> ، فوق ٢٩٠٠ م<sup>٢</sup> ، ومنجم رأس حريشة<sup>(٢٧)</sup> حيث لم يطل التنقيب سوى بيتين يمتد فوق ٣٠٠٠ م<sup>٢</sup> . لنذكر أخيراً في فلسطين الآثار الغامضة لعناصر نطوفية حددت فوق مساحات صغيرة في قاعدة البيضاء أو أريحا .

على الفرات ، توجد قرى نطوفية بوضعية حُفر مستديرة في قاعدة أبو هريرة والمربيط . في كلا الحالتين لم يتمكن العلماء من تحديد الاتساع الحقيقي لهذه التوطنات الأصلية بشكل مضبوط .

إذا ففي العصر النطوفي تنطلق في بلاد الشام ظاهرة «الخروج من الكهوف» بالمعنى الذي اعتمدناه لهذه العبارة . رأينا أن الكهوف لم تهجر بعد كما سوف تهجر في الألف الثامن : ثمة استمرارية حضارية ما انطلاقاً من القاع الكباري الذي يبدو أن النطوفي يبتثق منه ، تؤمن بقاء الجماعات العديدة في الأماكن ذاتها التي كان الباليوليتيون يحتلون فيها حينهم . إن فيض المنشأة خارج الحيز المحمي باحتلال الشرفة وتديرها لا يعني موقف هجر إزاء السكن القديم بقدر ما يعني عدم كفايته لاحتواء زمرة بشرية أكبر مما كانت في الماضي .

بموازاة ذلك تظهر القرى الأولى التي هي جديدة في المواقع التي تقيم عليها ولا تعقب أي احتلال سابق . ويكون وادي الفلاح على جبل الكرمل حلاً متوسطاً إذا صح أنه ، عدا عن القرية PPNA و PPNB (النبوليتي ماقبل الفخار : A و B ) ، توجد أيضاً أكواخ مستديرة نطوفية ، أي توجد قرية أمام الكهف<sup>(٢٨)</sup> . ربما كان الأمر كذلك بالنسبة لموقع الخيام<sup>(٢٩)</sup> في منطقة القدس ، وإن لم يُعثر فيه حتى الآن على أي بيت .

داخل الـ ٢٠٠٠ سنة التي دامها النطوفي ، قلما يكون ممكناً في الوقت الحاضر تتبع تدوّر في تطور ، عملية «الخروج من الكهوف» هذه . أجل ، إن قرى العراء في النقب وفي الفرات تتراعى جميعاً تنتمي لنطوفي حديث نسبياً تحمل فيه الميكروليتات جميعاً «رتوشات» حادّة . لكن قرية عين ملاحه ، على الأقل مستوياتها الدنيا حيث القطع دات رتوشات «حيوان» ، تنتمي للنطوفي القديم ، وبالنقائيل إن المستوى B الأوّل في إلواد واحتلال طور أبو سيف هما من نموذج كهفي وإن كانا ، تعريفاً ، حديثي العهد .

Henry 1975 a (٢٦)

Marks 1975 (٢٧)

(٢٨) Stekelis et Yizraeli 1963 ، ص ١١

(٢٩) Parrot 1951 ; Echegaray 1966

## معايير الاستقرار الحضري

إذا كانت توجد قرى في العصر النطوفي . أما المفاجأة حين اكتشف بيرزو عين ملاحه فكانت أن علماء الطبيعيات لم يجدوا فيها أي أثر لزراعة ولا لتربية حيوان<sup>(٣٠)</sup> . أصبح يجب القبول ، ضد كل توقع ، بأنّ ظهور تجمعات مبنية لم يكن نتيجة لإنتاج القوت ، بل كان قد سبقه ، مع ابقاء اقتصاد القنص - القطف التقليدي .

هل كانت بذلك قرى حضرية ؟ أي بعد تأييد ثبات المنشأة نفسها ، هل كانت هذه الأخيرة يحتلها بشكل دائم سكّان مستقرّون ؟ هذا السؤال الهام يبرّره وجود منشآت قروية موسمية في الوقت الحاضر أيضاً ، يشته علم الإثنوغرافيا .

إن كون العديد من علماء ما قبل التاريخ يفضلون كسمية لهذه التجمعات تعبير «معسكرات القاعدة» على تعبير «القرى» يعكس على نحو لا بأس به عدم يقينهم في هذا الصدد . بالفعل إن «المعسكر» ( Camp ، «مخيم» ) سواء أكان «معسكر قاعدة» أم لم يكن ، يستحضر ليس فقط بعض الخفة في البناء بل شيئاً عابراً وموقفاً في الاحتلال نفسه ، وإن كان هذا الاحتلال يُعتبر هنا أكثر دواماً منه في المحطات الانتقالية التي يوضع إزاءها في تقابل أو تعارض .

بالحقيقة ، إن مورتنسن<sup>(٣١)</sup> ، إذ يقترح موديلاً لتمييز مختلف نماذج المساكن ما قبل التاريخية بالارتباط مع حركات السكان المحتملة ، يؤيد إمكانية مخططين متميزين ، أحدهما دائري والآخر إشعاعي (الرسم ٢) . في المخطط الأوّل ، ليس «المعسكر القاعدة» ، في حركة التنقلات السنوية للسكان سوى محطة أكثر طولاً وأفضل تنظيماً من المحطات الأخرى : الشكل الأبسط هو التناوب بين معسكر صيفي ومعسكر شتوي . في المخطط الثاني ، ذي البنية الإشعاعية ، يخدم معسكر قاعدي واحد كنقطة انطلاق وحيدة لمختلف الحملات الغذائية ، ويستحق عندئذ فقط أن يُعتبر منشأة دائمة حقاً . بل ومن الممكن ، حتى في هذه الحال ، أن تصوّر حلولاً جدّ متنوعة تبعاً لاختلاف حجم أجزاء السكان التي تشارك في الحملات خارج «المعسكر» وتبعاً لاختلاف بُعد وطول هذه التنقلات .

من السهل نسبياً ، كما يرى القارئ ، تكثير المخططات النظرية ، ومن الممكن أن

Ducos 1968 (٣٠)

Mortensen 1972 (٣١)



سواء أكان المحيط الحيواني الذي يوقر تمونها الجوهري بلحوم الصيد البري يبقى ثابتاً<sup>(٣٣)</sup> أو أن موارد مناوئة وموسمية لكنها وافرة هي أيضاً تكفل على نحو آخر تمونها ثابتاً وإن كان متنوعاً . وليست المعضلة ، كما سيرى القارئ ، مختلفة بشكل أساسي حين تطرحها بالنسبة لقرى الصيادين - القاطنين - صيادي السمك ، الأولى ، فيما عدا أن الزمرة القانصة هنا هي ، بحكم التعريف ، أكبر .

الملاحظة الثانية تتصل ، تاريخياً ، بتطبيق مفهوم «معسكر القاعدة» على مواقع ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى . هذا المصطلح ، الإثنوغرافي المنشأ ، أدخله هنا هول وفلانري أولاً ، بصدد أقدم مواقع سهل ده لوران بإيران ، في مرحلة بوز مورده<sup>(٣٤)</sup> . على هذه المواقع ، تظهر يادئ ذي بدء بنى منشآت موسمية الاحتلال ، أما احتلالها الدائم فلا يسبق مرحلة علي كوش . من هنا الفكرة ، الصالحة لهذه المنطقة ، والقائلة بسكان نصف - بداء يحتلون احتلالاً مؤقتاً التجمعات الأولى المبنية «معسكرات قاعدة» قبل تثبيتهم النهائي في قرى حضرية حقيقية .

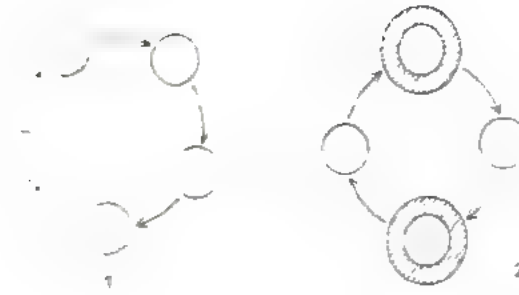
إلا أنه من المناسب التأكيد على أن أنصاف - البداء المعنيين ليسوا قناصين - قاطنين ، بل في هذه البداية للألف السابع التي تعود لها مرحلة بوز مورده ، تحرك إنتاج القوت ليس فقط في شكل بداية زراعة بل خاصة في شكل تربية لماشية صغيرة . من المعلوم أن التربية البدائية لأنواع جثمة (قطيعية) ليس مرتبطاً في المنطلق بالاستقرار الحضري بل يفترض على العكس حركة ترحال للزمر البشرية بمرافقة القطعان التي تعيش عليها . إن طبيعة الموارد الرئيسية هي التي فرضت على المربين - الرعاة في سهل ده لوران ضرورة التنقل . وليست حركتهم إذا ظاهرة «أولى» ، بل بالعكس يمكن أن تكون مشتقة من سيرورة «تحول نيوليتي» متمركزة هنا حول حياة الرعي ، على سبيل الأفضلية .

تختلف المعضلة تماماً حين تناول القناصين - القاطنين التطوفيين في بلاد الشام ، وهم أقدم بالفين من السنين . لأن تكون القرى هنا أيضاً سُميت «معسكرات قاعدة»<sup>(٣٥)</sup> يعكس عدم يقين حول درجة ثبات الزمر أكثر مما يعكس تأكيداً حقيقياً لحركتها . بالفعل من الصعب الإتيان بالدليل على أن منشأة من القناصين - القاطنين حاضرة مستقرة . لدينا على

(٣٣) تلك تكون الحال في منطقة البيرون Perigord (فرسا) الباليوليتية لو لم تكن حيوانات الرنة تقوم هنا بهجرات موسمية . انظر Bouchud 1959

(٣٤) Hole, Flannery et Neely 1969

Bar Yosef 1970 (٣٥)



الرسم ٢ - نماذج منشآت ما قبل التاريخ (حسب مورتيس) : ١- حركة سنوية دائرية ؛ ٢- معسكرات قاعدة شبه دائمة موسمية التناوب ؛ ٣- قرية دائمة .

تُبسط فيها صرامة شكلية كبيرة . لكن يبدأ الارتباك ، ومع الغموض ، لدى العودة إلى الوقائع ، أي حين يسعى عالم الآثار المتقاضي مع مجسم معين وراء معايير عينية ستتمكن من ربط المنجم المعني بهذا الموديل أو ذاك .

قبل أن نطرح على أنفسنا هذا النوع من المعضلات بصدد القرى التطوفية ، يجدر إبداء ملاحظتين .

من جهة ، إن معضلة الاستقرار الحضري لا تنطرح فقط ابتداءً من التطوفي ، بل هي تُذكر نظامياً ويحق عن مساكن الباليوليتي الكهفية نفسها ، التي يمكن أن تكون هي أيضاً دائمة أو موسمية أو متقطعة<sup>(٣٦)</sup> . عندئذ تحيل المعضلة على طبيعة وتوزيع الموارد البرية التي تعيش عليها الزمرة البشرية والتي تأذن لها أو لا تأذن بالبقاء طوال السنة في الموقع نفسه ،

(٣٦) Bordes, Rigaud et Sanneville - Bordes 1972

الأكثر مؤشرات مباشرة أو غير مباشرة ، وتأويلها موضع إشكال إلى هذا الحد أو ذاك وينتهي في أفضل الأحوال إلى تخمينات قوية . هذه المؤشرات أركيولوجية (آثارية) وبكولوجية (بيئية) .

المؤشر الأول ، الآثاري ، هو تطور المعدات الثقيلة (معدات هرس وجرش) ، آنية طعام حجرية . . . ويدلو وزنها نفسه يستبعد حملها من قبل زمر متقلة . هذه المعدات الثقيلة تدل في تعريف «معسكرات القاعدة» الطوفية حسب بار يوسف .

هناك من ثم كل المنشآت الثابتة التي يدعوها بنفورد<sup>(٣٦)</sup> ، وراء الجغرافي فاغنر ، «تسهيلات» (Facilities, Commodities) بمعارضة «الأدوات» (implements, outils) ، أي كل هذا الذي يخدم ليس في نقل القدرة من فاعل إلى آخر أو من مكان إلى آخر ، كما هو شأن الأدوات ، بل في تخزينها ومنع نقلها : هكذا الهواون الدائمة المحفورة في صخر عين ملاحه والصوامع الجرسية الشكل في الموقع نفسه والحفر - المواقف في مريبط الصوفي الخ . . .

وأخيراً هناك البيوت نفسها التي تزيد تخميننا عن الاستقرار الحضري بما يتناسب طردأً مع متانتها ومع الكدح المعماري الذي فرضه تشييدها<sup>(٣٧)</sup> ، وباختصار مع كل هذا الذي يبعدها عن «الملاجئ الخفيفة» التي بسهولة بالغة يهجرها ويعيد بناءها قوم وتُحل .

يبقى أن كل هذه المؤشرات الآثارية التي تشهد بالتأكيد على سكن مديد قلماً نتيج لنا أن نخلص إلى أكثر من «درجة» ما في الاستقرار الحضري كما يقترحها فالأ بحذر<sup>(٣٨)</sup> . عدا عن أن الهجر الدوري الكامل للمنشآت حتى المثينة البناء لا يمكن استبعاده تماماً (ثمة أمثلة إثنوغرافية معروفة) ، فإنه توجد أيضاً ، نظرياً ، حلول مختلطة شتى ، يقضي فيها قسم من السكان متفاوت الحجم جزءاً من السنة في مكان آخر ، ولا يترك عند الحد الأخير في الموقع سوى حراسة متواضعة قد لا تكفي لجعلنا نتكلم عن جماعة حضرية مستقرة

المعضلة تُنقل عندئذٍ إلى هذه التقلبات ذاتها وإلى ضرورتها ، الأمر الذي يتسبب إلى الأيكولوجيا ، ميدان علاقات الكائن الحي مع البيئة الطبيعية . إن المنهج الأيكولوجي

(٣٦) ذكره Flannery ، 1972 ص ٢٦

(٣٧) انظر لاحقاً (الفصل الثالث ، تل مريبط ، الرسم ٧)

(٣٨) Valla 1975 ، ص ٦٣

(البيئي) يمكن أن يسهم إسهاماً غير مباشر في تقدير درجة تحضر موقع وذلك بواسطة مجرد الموارد المتوفرة حوله وإمكانية العيش على هذه الموارد طوال السنة دونما اضطراب لهجرة موسمية .

من الضروري في سبيل ذلك عدم الاكتفاء بموارد المنطقة الأيكولوجية بالمعنى الواسع بل يجب النظر في المحيط القريب من الموقع والذي يمكن أن تُعقد معه علاقات فعلية<sup>(٣٩)</sup> ، وهذا مايسميه البعض «إيكو ميشكاف» الموقع ، أو «كؤته الحيا بيئية» . وبالفعل إن إحدى الملاحظات الأكثر حصصاً التي أنشئت في هذا الصدد هي أن مواقع القصر - القطف ، والقرى النطوفية بشكل خاص ، هي في الغالب غير نموذجية في منطقتها<sup>(٤٠)</sup> ، أو هي قائمة عند مفصلة عدة مناطق ، وذلك لكي تتوفر لها في محيطها الخاص مجموعة من الموارد النباتية والحيوانية المتنوعة أكثر مما يمكن . بما أن سافانا السنديانة وشجرة القستق هي القاع المشترك لهذه المستوطنات جميعاً ، لذا فالقرى النطوفية قائمة على نحو متكرر في السهل ، لكن عند قَدَم جبال (عين ملاحه ، أريحا) ، على ضفاف بحيرات (عين ملاحه) أو مجاري مياه دائمة (مريبط ، أبو هريرة) ، في واحات (أريحا) ، الخ . . . ، وذلك لكي تنضاف إلى حبوب وحافريات السهب الخاصة بمجموع منطقتها كل الموارد المائية وطرائد غائية . بالنسبة لمواقع النقب ، هنري<sup>(٤١)</sup> يلح أيضاً على أهمية «الميكروبيئات» الكثيرة ذات الموارد المتنوعة التي تسهل وجودها أرض متعرجة .

إذاً ، فدراسة هذه البيئات الخاصة شيء لاغنى عنه ، شرط تجنب بعض التجاوزات<sup>(٤٢)</sup> . والتحري الأيكولوجي يمكن أن يكون هو نفسه غير إجرائي وقد ينتهي إلى فرضيات محزرة ، إذا لم يجابه على وجه التحديد بمعطيات النقيب نفسه عن الاستثمار الفعلي للبيئة على يد رجال ماقبل التاريخ . وهكذا بناءً على معاينة وجود «إمكانات» أو «طاقات» متكاملة ، أمكن اقتراح<sup>(٤٣)</sup> تناوب موسمي بين احتلال كهوف

(٣٩) Binford 1968 ، ص ٣٢٣

(٤٠) نفسه .

(٤١) Henry 1973 ، ص ٢٠١

(٤٢) إن «عملية تحليل مواقع القصر» التي وضعها ميتا - فري وهينس (سنة ١٩٧٠) تمثل جهداً منهجياً مثيراً للاهتمام هدفه تحليل «طاقة» محيط معيّن من الموارد تبعاً لتفاوت إمكانية الوصول إلى هذه الموارد . إلا أن النتائج المحددة والرقمة التي تنتهي إليها على هذا النحو تبقى صمية الاستعمال لعالم ما قبل التاريخ ، نظراً لكثرة الطرق المحتملة ، والباغمة في كثير من الأحيان عن خيارات ثقافية ، في استثمار (أو إهمال...) «طاقة» معطاة .

(٤٣) Vita - Finzi et Higgs 1970 ، ص ٢١

جبل الكرمل وكهف هايونيم أو راكفيت ، وهذا ليس مستحيلاً لكنه يبقى قليل التدعيم  
ملاحظات مباشرة أكثر .

ماذا عن القرى النطوفية حيث يقدم علم الآثار كما رأينا عدداً أكبر من التخمينات  
لصالح الاستقرار الحضري ؟

إن حضور هذه القرى على ضفاف مياه مستديمة هو بحد ذاته ، كما شدد  
بنفورد<sup>(٤٤)</sup> ، عامل هام للاستقرار ، إذ أن الصيد المائي يشكل هنا مورداً دائماً . فالنطوفيون  
في الواقع صيادون . وقد أسفرت عين ملاحه على بحيرة الحولة عن بقايا وافرة من  
الأسماك والقشريات والفواقع . وتستفيد مواقع الفرات من الميزة نفسها : في مريبط  
تجمعت كمية كبيرة من الأسماك (سلور ، كبيت) في المرحلتين الأولى A والأولى B  
وكذلك بعض فواقع المياه العذبة (أونيوس ، ميلانوبسيس)<sup>(٤٥)</sup> .

فضلاً عن ذلك ، إن ضفاف المياه ، وهي أغنى من السهب المحيط بالنبات  
الشجري ، تؤلف حيزاً حيوياً خاصاً لبعض الطيور (غشائيات الأرجل) واللبونات (الخنزير ،  
الأمليات) المتميزة عن حيوان السهب (الغزلان ، الأبقار ، الخيليات) وحيوان الجبل  
(الماعزيات) وهما أيضاً يجذبهما الماء في فصل الجفاف . إذا فإمكانات القنص مضاعفة هنا  
وكل هذه الأنواع ممثلة إلى هذا الحد أو ذاك في بقايا الحيوان الملتقطة في التنقيبات .

أخيراً ، بما أن قطف الحبوب البرية يبقى مورداً جوهرياً ، لنذكر بأن عين ملاحه  
موجودة في منطقة القمح النشوي والشعير البري ، ولنذكر أيضاً ، كما بين سيمس<sup>(٤٦)</sup> ،  
أن قرب الجبال ، إذ يمتد في الزمن ، تبعاً للارتفاعات ، فترة تضج الحبوب ، يتيح بدون  
تخطي مسافة خمسة كيلومترات حول الموقع ، الاستمرار مدة تصل إلى حوالي شهر كامل  
في حصاد كان لن يدوم فيما لو جرى في الأرض المبسوطة أكثر من أسبوع .

على الفرات الأوسط ، يبدو القمح البري قد اختفى في أيامنا ، لكن حضوره مؤكد  
في العصر النطوفي ، في مريبط<sup>(٤٧)</sup> وفي أبو هريرة<sup>(٤٨)</sup> ، ومعه شعير بري ونباتات غذائية  
أخرى متنوعة (عدس ، بيقه ، «سيتاريا» ، الخ) .

نحن إذاً أمام طاقة من الموارد ليست غنية فقط ومتنوعة وممتدة بشكل جيد على  
فصول السنة ، بل مستعجلة فعلياً من قبل سكان القرى المعنية .

إذاً ، رغم الاقتراحات الحديثة بأن نرى في عين ملاحه منشأة موسمية فقط<sup>(٤٩)</sup>  
ورغم مواقف الشك التي يحتفظ بها باحثون آخرون ، يبدو أنه لامجال للرجوع عن رأي  
بيرو<sup>(٥٠)</sup> الذي جعلها قرية مستقرة وأن النتيجة عينها تفرض نفسها فيما يخص موقعي  
الفرات حيث جاء التحري البيئي يدعم بشكل كاف تخمينات علم الآثار . أولئك السكان  
لم يكونوا متقلبين لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك ، أو على الأقل يجب التوضيح وضبط  
ماذا يقصد بالمصطلح المستخدم : أجل كانت القرية نقطة انطلاق لحملات غذائية بالقدر  
الذي لم تكن فيه الموارد المعنية متركزة في الضواحي المباشرة للسكن كما هو الحال  
بالنسبة لقرى المنتجين حيث هذا التحديد لمكان القوت هو من صنع الانسان نفسه .  
كانت هذه الموارد منتشرة في مختلف أرجاء المحيط حيث كان يجب الذهاب بحثاً عنها .  
من هنا فعلاً سعي ما متقل ، يمكن أن نتصور ، وراء فلانري<sup>(٥١)</sup> ، أنه تنقل زمرة صغيرة  
جداً مؤلفة من شخصين أو ثلاثة أشخاص وتوزع الإقليم كما هي العادة في الجماعات  
التي تعيش على الجمع ، سواء كانت قروية أو لا .

لكن ليس في ذلك ما يشبه انتقالاً موسمياً وجماعياً : لقد بينا بصدد مريبط<sup>(٥٢)</sup> أن  
سكان هذا الموقع ماكانوا ليجدوا على مسافة ٢٠٠ كم من حولهم ما هو أفضل من  
السهب المقطوع بتلال طبيعية والذي كانوا يستشرونه في موقعهم ذاته . بالمقابل هناك  
خصوصية جيولوجية ، وهي حضور مصطبة من الصوان الإيوسيني محددة الموقع في أسفل  
السنح الصغير الذي أقام فيه النطوفيون ، كانت تبرز بشكل كاف إقامتهم الأصلية  
وبقاءهم في هذا المكان المحدد .

إذاً في عصر القرى النطوفية الأولى مازال الاستقرار الحضري لا يخص سوى السكن  
والنشاطات المنزلية . أما استثمار المحيط فيبقى «متحركاً» ، أي خاضعاً لحركية الموارد  
وتأثرها الطبيعي . لكن : في المناطق التي كانت فيها الموارد على ما يكفي من الوفرة  
والترزح مع التكملة الآتية من المنتجات المائية والمثبتة دوماً تقريباً بالشواهد ، بات هذا

(٤٤) Binford 1968 ، ص ٣٣٢

(٤٥) انظر J. Cauvin (a) ، مصدر لاحقاً .

(٤٦) إبلاغ شخصي : Simms

(٤٧) إبلاغ شخصي : Van Zeist

(٤٨) حسب هيلمان ، في Moore, Hillman et Legge 1975 ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٤٩) Vita - Finzi et Higgs 1970 ، ص ٢١

(٥٠) Perrot 1966 a ، ص ٤٧٧ ؛ Perrot 1974 ، ص ٤٨٦

(٥١) Flannery 1972

(٥٢) J. Cauvin (a) ، مصدر لاحقاً .



الاستقرار مسموحاً به لزمر بشرية أوفر عدداً مما كانت في أمس قريب ، وـ تعد تكفيها الملاجئ الطبيعية . فالقرية هي فعلاً الواقعة الجديدة ، أي الظاهرة الاجتماعية - الديموغرافية التي توضع الساكن في موقع واحد إلى عدد أكبر من الأفراد .

وفي هذا الوسط الجديد ، الذي ظهر في العصر النطوفي ، حيث اجتمع اثنان من المتحولات الستة التي عددها ، وهما القرية والاستقرار الحضري ، مستحق الآن التحولات التي كان وحده قادراً على السماح بها : من جهة ، تحسين السكن المبنى ، ومن جهة أخرى نماذج جديدة من النشاطات ، كزراعة الأرض .

## الفصل الثالث

### تطور العمارة :

#### من النطوفي

#### إلى منتصف الألف الثامن

في أصل البيت المعمر نجد الحفرة المستديرة . إن فكرة بناء جدار مشكن على سطح الأرض لا تبدو تفرض نفسها في الحال ، ربما بسبب نقص المهارة .

أول «بيت» معروف في بلاد الشام ، وهو بيت عين جويف I في الكباري<sup>(١)</sup> ، هو حفرة دائرية محفورة في أحد المنحدرات ، معززة بتصويئة نصف دائرية من الأحجار الجافة بارتفاع ٤٠ سم . هكذا فالوظيفة الأولى لـ «الجدار» بوصفه تكديساً مرتباً من مواد تبدو وظيفة تدعيم .

والأمر كذلك حين يقوم النطوفيون بتمهيد الشرفات أمام الكهوف . من جهة إن عملهم الأول لإعداد سطح مستو هو حفرهم فيه جيوباً ، ليست بالضرورة للسكن نفسه : هكذا «الحوضان» ، المستدير والكيلوي ، المحفوران في الصخر عينه ، الذي شوي بـ «المنقر» ، في مصطبة إلواد<sup>(٢)</sup> . من جهة أخرى ، بما أن هذه السطوح المستوية تمتد بوجه عام أمام الكهف بمنحدرات قوية ، لذا لا توجد وسيلة أخرى ، إذا ما أرادوا تدبير ملاجئ على المنحدر ، سوى أن يقطعوه إلى عتمة مساطح أفقية مدرجة ، مع تأمين القطعات

(١) Stekels et Bar Yosef 1965

(٢) Garrod et Bate 1937

العمودية بواسطة تـنـدـيـسـات حـجـريـة . هـكـذا يـبـدو الخـال فـي وادي العـلـاح الطـوفـي حـيـث يـشـير سـتـيـكـلـيـس وـيـسـرـائـيـلي<sup>(٣)</sup> مـن جـهـة إـلى مـسـكـن يـضـوي الشـكل ، لـيـس أـسـلـوب تـشـيـيدـه واضـحاً ، وـمـن جـهـة أـخـرى إـلى «مـعـسـكـر» أقـدم ، طـول قـطـره مـن ٧ إـلى ١٠ م ، مـسـوّر مـن جـهـة الشـمال ، وـهي جـهـة عـالـيـة المـحـدر ، بـنـصـوبـة مـن الأحـجار الحـدافـة والمـلاط المـكـثـر الاستـعـمال ، يـنـمـا يـكـون الجـزء الجنـوبي ، فـي سـافـلة المـحـدر ، قـد انـدثـر . لـيـس فـي هـذا تـناقـض مـع تـأويـل هـذا الجـدار مـن قـبل يـيرو<sup>(٤)</sup> الذـي يـعـتـبره «جـداراً داعمـاً» ، فالمـسـكـر نـفسـه ، و يـشـهـد عـلـيـه وـجـود مـوقـد ، يـمـكـن أن يـكـون هـذا «الجـدار» بـأن وـاحـد حـائـطاً يـحـده وضيـامناً لـه ضـد انـهـيار الأراضـي المشـجـوجـة .

### القرية النطوفية

فـي حـال القرى المنشأة فـي الأرض المكشوفة ، التي يـكـون الانحدار فـيها أقل إذا وُجِدَ ، تُصـبـح مـهـمـة النطوفين الأولى مـن أجـل إقـامة بيوتهم هي أيضاً حفر الأرض . كل



الرسم ٣ - بيوت مستديرة في عين ملاحه (حسب ييرو)

Stekels et Yisraeli 1963 (٣)

Perrot 1968 col. 367 (٤)

بيوت عين ملاحه<sup>(٥)</sup> هي بحفر دائرية (انظر الرسم ٣) ، والبيوت الأكثر قدماً هي الأكثر كبراً مـن ٧ إـلى ٩ أمتار ، والأحدث يتراوح قطرها بين ٣ و٤ أمتار . «الحائط» أو الجانب الداخلي لهذه الحفر يُحافظ عليه «جدار» مـن أحجار أو بلوكات بلا مـلـاط ولا طلاء كُـدِّسـت فـي عـدّة طبقات وصـفّ وـاحـد مـع بـعض المـيـلان مـن الخـارج إـلى الدـاخل تـبعاً لحـائـط الحفرة المـوسـع قليلاً (المـلـاجـي رـقـم ٦٢ و٢٦ و٥١) . فـي المـلـجـأ رـقـمـة الحـسـيـم ، ٢٩ الذـي يـنـتـمـي عـلى الأـرجـح لـلمـرحـلة الأقدم ، تـؤـدي طبـقة وـاحـدة مـن «الـلـاطـات» المـنـتـصـبة والمـعـززة بـبلوكات صـغـيرة مـهـمـة المـحـافظة عـلى «حائـط» الحفرة . إن أجهـزة الدـعـم هـذه يـتـراوـح ارتـفـاعـها بـيـن ٥٠ سم (الملجأ ٢٩) و ١,٢ م (الملجأ ٦٢) ، و هي ارتـفـاعـات تـعـرّف عـلى الأـرجـح الأعـماق الأصـبـية لـلـحـفر التي كان مـن المـفـترـص أن لا تـخـطـأها الجـدران وتـطـفو فـوقـها . بـالفـعل إن وـاحـداً مـن هـذه البـنـاءات - الحفر ، و هو المـلـجـأ رـقـم ١ كان حائـطـه غـير المـعـزـز بجدار مـغـطى لأكثر ، فـي قـسمـه المـحـفوظ ، بـطلاء طـيـني - رملـي مـصـبـوغ بالأحمر ، عـلى عمق ٤٠ سم : الطلاء يـتـخـطى إـلى خـارج الحفرة وبـشـكل «مـثـابة» عـرضـها ٧٠ سم ، هي بـدورـها مـحـدّدة (مـحـاطة) جـزئياً بـحـجارة مـن الخـارج فـهي إذـا تـعـرّف تـمـاماً مـستوى الأرض خـارج المـلـجـأ عـند احتـلالها .

أخيراً أتاحت حملة ١٩٧٥ عـلى هـذا المنجم اكـتـشاف فـالاً ، فـي مـلـجـأ جـديـد دائري بحفرة (رقم ١٣١) مـثـوّرة عـلى رـبع مـسـاحـته ، وبـصـف دائري أيضاً يـضم سـتة أوتاد (أعمدة) ، تـتراوـح المـسـافـة الفاصـلة بـيـنـها بـيـن ١ م و ١,٥ مـتر ، قـطـرها ٢٠ سم ، مرتبة «على قوس دائرة لها مـركـز وـاحـد مـع الدائرة التي يـؤلفـها جـدار المـسـكـن وعلـى مـسـافـة مـتر وـاحـد تقريباً أمام المـسـكـن»<sup>(٦)</sup> . إن صـلاـبة هـذا الجـهـاز تـؤكـد صـلاـبة السـقف الذـي كان عـلـيـه أن يـتـحـملـه .

تـكـشـف قـاعـدة أريـحا النطوفية عـن آثار لتـسـوية<sup>(٧)</sup> لـكن لـيـس عـن بـيـت بالمعنى الخاص . فـي قـاعـدة البـيـضا ، فـي شـرقـي الأردن ، تـوجـد حـفـرة كـبـيرة غـير مـنـتـظـمة حـفـرت فـي الرمال وفـرشت بالـحـصى ، مـجـتمعة مـع بـعض الصـنـاعة مـن النطوفـي القـديم<sup>(٨)</sup> .

(٥) Valla 1975 ; Perrot 1966 a ص ٥٣ - ٥٧

(٦) Perrot 1974 ص ٤٨٥

(٧) Kenyon 1960 . القـصـود سـطح يـصـري الشـكل نـمـده بـلوكات ومـلاط مـكر الاستـعـمال .

(٨) Kirkbride ، ص ٢٦٤ . فـي صـفـحة تـالـيـة (٢٦٥) يـذـكـر الكـاتب كـو خـاً مـسـتـديراً فـي حـفـرة يُعـبـر هـو أيضاً «مـيزوليتياً» (أي مـن المـصـر الحـجـري الوـسـيـط) ، أنشأ بـه «قـطـع الأجر النـي» : لـكن كـما يـدو لـسـنا أمام آجر حـقـيقي بـل أمام «لـين» رـكـب بـكـل مـتـالـيـة .

تنتمي قرى النقب للتطوفي الحديث . هناك في الجزء من رأس زين الذي تناوله التنقيب<sup>(٩)</sup> ، إن حوض طبيعي في الصحر ، طول قطره حوالي ٨ أمتار وعمقه ٥٠ سم في مركزه ، هو الذي سكن ذي باديء كما هو<sup>(١٠)</sup> ، ثم بُلُط على مساحة ٦ م ، ٢ ، وأخيراً قُسم إلى أربع بُنى يعضوية الشكل طول قطرها من ٥٢ ، إلى ٣ م ، تحدها حجارة . هذه الحجارة ليست في مكانها إلا على قاعدة واحدة ، استثنائاً اثنين : بموجب ، الحجارة ، المنهارة ، والتي تحيط بها ، يستنتج المنقب أن «الجدران» الأصلية كان يمكن أن تشتمل على ثلاث أو أربع قواعد من الحجارة الجافة : هذا معناه أنها كانت بالأصغر «جذريات» وأن الأجزاء العلوية كانت هنا أيضاً من مادة أخرى . في رأس هريشة ، لا توجد بعد معصيت عن البنى المعترية ، فيما عدا أنها دائرية أو بيضوية<sup>(١١)</sup> .

على الفرات في أبو هريرة ، لم يتردد التطوفيون في حفر الأرض الصخرية ، المؤلفة ، أجل ، من الطباشير اللين ، ليقتعدوا ملاجئهم في حفر طول قطرها ٢٠ م وعمقها ٧٠ سم<sup>(١٢)</sup> أقيمت هي نفسها وراء «مقعد» طبيعي مرتفع كان يقبها من الريح وكانت عدة موائد موجودة عند أسفله . حول هذه الحفر تدل ثقوب الأوتاد وهي كثيرة على أن هذه البنى كانت مسقوفة . وقد ظهر للمتقبين أن أرضية الحفر معروشة بالعدد الثقيل (زخيات ، رُحيات ، مدقات ، هواون) والأدوات المتنوعة .

في المريط<sup>(١٣)</sup> ، لم يبلغ التطوفي بحصر المعنى (المرحلة الأولى A) إلا على مسافة محدودة (٣٥ م) ، وقُلصتها هي نفسها حفريات لاحقة : لم يُسفر إذاً إلا عن بضع تنب من أرضية قائمة ، صُنعت من الطين المكثف . وثلاث حفر - موائد . لكن بعد ذلك مباشرة ، في المرحلة الأولى B «التطوفية الفوقية» التي تمد التطوفي إلى حوالي ٨٣٠٠ ق . م ، يوجد بيت مستدير كبير (هو البنية رقم ٣٧) قطره سنة أمتار ومكوّن من حفره عمقها نصف متر وحائطها المحيط دُعم بأوتاد صائفة معصاة هي نفسها في الداخل بعلاء من العصار سمكه ١٠ سم وكان ذلك بمثابة «جدار صغير» حقيقي<sup>(١٤)</sup> ، محفوظ تماماً

على طول ثلاثة أمتار . من جهة أخرى ، لدينا ، على القسم المحفوظ ، الدليل على أن الطين لا يرتفع فوق مستوى الأرض خارج الحفرة ، فالطلاء ينتهي عند قمتها بسطح مستو أفقي مُلس بعناية . بتعبير آخر ، وحدها الأقسام المخشوشة من البناء كانت تطفو فوق الحفرة ، وهذا ينضم إلى المعانيات المحققة في عين ملاحه . أرض البيت من الغضار المكمل ومملّسة . وقد عُثر على «جرن» محفور في عجيرة كبيرة على السطح .

هكذا «البيوت» التي يمكن وصفها عن العصر التطوفي . إن ما يميز مجموع هذه البيوت ، مع ترتيبها العام في حفر ، محفورة أو طبيعية ، هو إذا التدبير المعني بكل ما تحويه الحفرة نفسها : تدعيم الحوائط بالحجارة أو بالخشب ، تلييسات جدارية (عين ملاحه ، المريط) ، صباغات (عين ملاحه) ، أرضيات «مبلطة» (عين ملاحه ، رأس زين ، البيضاء) ، أو طلاءات (المريط) : ذلك كله يساهم ، مع المعدّات أو الأثاثات الثقيلة الحاضرة في جميع المواقع ومجمل المنشآت الثابتة المستعملة لغير المساكن والمحيطه بحفر السكن<sup>(١٥)</sup> ، في إعطائنا الشعور بوجود حياة أهلية منزلية منضجة ومتقدمة منذئذ . بالمقابل ، يبدو أن غياب (أو ندرة) الوثائق المتعلقة بالقسم الطائفي فوق الحفر هو الذي دفع ، في تقارير التنقيبات ، إلى كثرة استعمال عبارات : بنى فوقية أو غطاءات «خفيفة» ، والذي أنبت شكوكاً حول الدوام الفعلي لهذه التجمعات السكنية .

لنلاحظ مع ذلك أن ندرة المؤشرات الخاصة بهذه البنى الفوقية معناها في أقصى حد أن هذه البنى كانت فانية . أجل كانت «أخف» مما تكونه جدران من الحجارة أو من الآجر ، لكن درجة هذه الخفة هي نفسها موضع إشكال : أوتاد عين ملاحه تستحضر ، كما يشدّد بيرو<sup>(١٦)</sup> ، عملاً بنائياً قوياً وصلباً . أوتاد البنية رقم ٣٧ في المريط أكثر نحالة لكنها متلاصقة : لئن كان الطلاء الداخلي يتوقف عند سطح الحفرة ، إلا أن جباكاً متيناً كان يطفو فوقها مكوناً حائط المسكن في العراء .

يدو إذاً أن للوقائع المعانية دلالة تكنولوجية بشكل خاص : لم يمتلك التطوفيون الإنشاء الثقيل بالحجارة إلا على نحو محدود . تُعزى إليهم «جدران» ثم يمكن أن نستغرب كيف لا ترتفع هذه الجدران أكثر ، لكن مهارتهم في هذا الميدان تبدو جدّ متواضعة : حين تكون هذه «الجدران» في السطح ، نحن بالحقيقة ، كما في إلوا أو أريحا ، إزاء صف من البلوكات المدفوعة جنباً إلى جنب لتشكل حذاءً أكثر منه حاجزاً أو حائطاً . وحين

(١٥) صوامع جرسية الشكل ومطلية الحواف (ملاحه) ، هواون ثابتة (رأس زين ، ملاحه) ، حفر - موائد (مريط) ، أحواض متنوعة محفورة في الصخر (أبو هريرة ، ملاحه) ، مهد حجري معتر (ملاحه) .

(١٦) Perrot 1974 ، ص ٤٨٦

(٩) Henry 1976

(١٠) مع حفر لفجرة صغيرة واحدة (هواون) ثابت

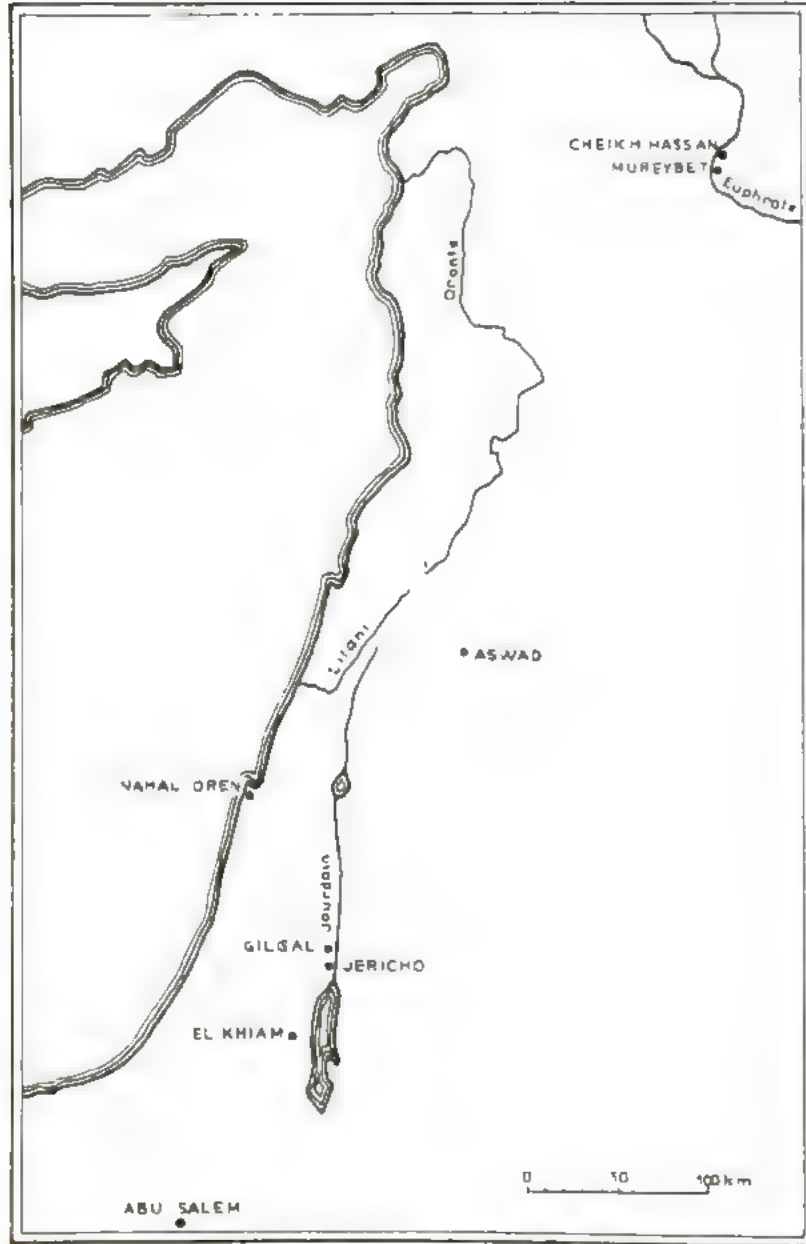
(١١) Marks ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ، التواريخ بالكربون ١٤ : ٨٥٤٠ و ٨٩٣٠ ق م .

(١٢) عُثر على خمس حفر من هذا النوع في المساحة التي شملها التنقيب وهي ٤٩ م<sup>٢</sup> . انظر Moore, 1973 ، Hillman et legge ، ص ٥٦ - ٥٨

(١٣) Cauvin J. (a) ، يصدر لاحقاً .

(١٤) Cauvin J. 1973





خريطة تبين التوضعات بين ٨٣٠٠ - ٧٦٠٠ قبل الميلاد

بشار ، في ملاحه ، إلى وجود تكديسات من الحجارة تفوق طبقتين أو ثلاث ، فإن هذه الجدران هي بالحقيقة أجهزة دعم بلا ملاط مسندة على حاجز ترابي ، ولعل الغرض منها تأمين بعض المواجهة الصحية داخل المساكن أكثر مما هو تخمين المجموع فعلياً<sup>(١٧)</sup> .

إذاً كان للقرى الأولى ، في العصر النطوفي ، بيوت من الخشب ، راسية بقوة على بني تحتية قائمة تحت الأرض<sup>(١٨)</sup> . رأينا أننا لا نعلم إلا القليل عن الاتساع الحقيقي لهذه التجمعات . أما ترتيب البيوت بعضها نسبة لبعض ، فيبدو حسب عين ملاحه أو أبو هريرة ، إنها كانت متقاربة جداً لكن غير متلاصقة ، والحفر المتعاصرة قلما تنقطع . إنها مشتل متماثل من أكواخ مستديرة نجعل حسب أية مبادئ كانت مجتمعة ، تتخللها مساحات فيها مواقع غير المواقف التي نجد أحياناً في البيوت ، وفي عين ملاحه ، صوامع تحت الأرض كانت ربما جماعية الاستعمال ، تلكم هي الصورة التي يمكن أن نحفظها عن القرية النطوفية .

إن هذا الوسط القروي البدائي ، الذي مازال في ما قبل الزراعة ، هو ما سنراه الآن يتطور ويتحول .

### التحولات المعمارية في عصر النيوليتي ما قبل الفخار A

ستدرس الحقبة الذاهبة من حوالي ٨٣٠٠ حتى ٧٦٠٠ ق م بوصفها كلاً واحداً . إنها تتوافق مع النيوليتي التمهيدي ومع النيوليتي ما قبل الفخار A في أريحا عموماً ومع المرحلتين الثابتة والثالثة في مريبط . كانت ، حتى لوضع سموات حلت ، الحقبة المجهولة في مقل تاريخ المشرق إذ لم يكن لدينا سوى الوثائق (المستندات) المنشورة عن أريحا ، وهي مدهلة لكنها قليلة . مع أن هذه الحقبة ، التي تندرج بين حصارين قرويين متضادين تصاد تجمعات الأكواخ المستديرة للصيادين - القاطنين النطوفيين من جهة وقرى المتجين وجميعها تقريباً ذات بيوت مستطيلة في عصر النيوليتي السابق للفخار B من الجهة الثانية ، ما كان يمس إلا أن تترأى ، بصورة قليلة ، حقبة ذات أهمية رئيسية بالتغيرات الحاسمة التي لا بد أنها تحققت أثناءها . في الوقت الحاضر ، إن بعض الاكتشافات الجديدة في فلسطين وبشكل خاص الحفريات الأخيرة في سورية ، سواء في غوطة دمشق أو على الفرات ، تتيح فهم تلك الحقبة على نحو أفضل (الرسم ٤) .

(١٧) الهيئة «الذاهبة» لحفر السكن مع حوائطها الموشعة بعض الشيء ضمان أفضل ضد الانهيار : سصادوها مرة أخرى في مريبط III .

(١٨) في عين ملاحه كان الهيكل على ما يكتفي من الثانة ليتحمل الانقضاء سقفاً من التراب المصلب . انظر Perrot 1976 ، ص ٤٧ .

حتى وقد أغنيت على هذا النحو ، تبقى الوثائق نادرة . إن لائحة المناجم المعروفة في مجموع المشرق أصغر بكثير من لائحة العصر النطوفي<sup>(١٩)</sup> . أجل ، تضم هذه الأخيرة عديداً من المحطات الثانوية الشأن ، المؤولة على أنها محطات صيد ، وكثيراً من المناجم الكهفية . وعلى هذين الصنفين يقع جوهرياً انخفاض عدد المواقع ، الذي من شأنه أن يعطي ، إذا ما قارنا خرائط التوطنات ، انطباعاً عن حدوث إفقار ديموغرافي إجمالي كبير .

أولاً هجر الكهوف : السيورة البادية في النطوفي تتجذر . فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة جداً<sup>(٢٠)</sup> ، تُهجر الكهوف تماماً . على الساحل ، لا يبقى أي شيء ، في كباره ، في هابونيم . وادي الفلاح ، حيث لم يعد الكهف نفسه محتلاً ، تُسبب في النيوليتي السابق للفخار A المنشأة القروية التي كان النطوفي على ما يبدو قد دشتها على شرفة الكهف . ونجد نفس التخلي عن كهوف بادية منطقة القدس ، باستثناء شرفة الحيام .

الأغرب أن نعاين أن قرى أسست في النطوفي نفسه على تلال جديدة تماماً لم تعد محتلة بعد النطوفي : تلك حال ملاحه ، قرى النقب مثل رأس زين ورأس حريشة ، البيضاء ، حيث يكون الموقع مهجوراً حتى النيوليتي السابق للفخار B<sup>(٢١)</sup> ، بل وأريحا ، إذا صح أن الاحتلال الأساسي ينتمي للنطوفي القديم<sup>(٢٢)</sup> ، وهذا يفترض فجوة كبيرة قبل وصول النيوليتي السابق للفخار A . هكذا أخيراً على الفرات حال أبو هريرة التي لن تعود إلى الحياة إلا في الألف السابع .

هذه الهجرات وهذه الانقطاعات ، وكذلك كون أريحا النيوليتي - التمهيدى ، التي يعود تاريخها كما يبدو لأواخر الألف التاسع ، لم تُسمر عن مكرويلينات ، يمكن أن تجمعنا

(١٩) ستكون أكثر عدداً ما أدخلنا في هذه الحقبة محطات السطح العديدة ، «الطاحونية» ، في منطقة القدس ، نموذج طنطور (Mallon 1925) .

(٢٠) مستوى B الأول في إلود ، حسب حصور بعض رؤوس الأسهم وحسب الكربون ١٤ ٧٨٤٥٠ ق م ، يبدو يحوي عناصر من النيوليتي السابق للفخار A . توجد أيضاً مسروعة من هذه الحقبة في كهف باشريبي الصغير ، في جبال لسان الشرفة ، لكن السياق الجلي والهامشي لهذا الموقع يمكن أن يعزل هذا النمط السكاني العتيق (Schroeder 1976) .

(٢١) عملاً بأن وصية البيضاء غير واضحة في هذه الحقبة . يبدو أن هناك توطناً لم يحدد بعد حصل بين النطوفي والمستوى السادس من النيوليتي السابق للفخار B : إنه المستويات ٩ - ٧ ، وهي قليلة الأدوات . (٢٢) يدع إلى هذا الافتراض وجود عظام من العظم وقطعة «حلوان» ، وكذلك التأريخ بالكربون ١٤ وهو ٩٢١٦ ق م .

نعتقد باندثار مفاجئ للحضارة النطوفية وبانطلاق جديد مع أناس آخرين . ثمة بعض الاستمرار للتقليد النطوفي في النقب فقط مع المواقع «الحريفية» المؤرخة ، حسب قرية أبو سالم ، من ٨٣٠٠ إلى ٨٠٠٠ ق م ، حيث تنضاف سهام إلى صناعة القِطع ، والتي لا يبدو أن لها هي نفسها بالمكان ذرية مباشرة .

مع ذلك يمكن لمواقع أخرى أن تذهب ضد هذه الاستنتاجات ، وأن تشهد على بعض التواصل بين النطوفي والنيوليتي السابق للفخار A : إنها ، من جهة ، ربما ، وادي الفلاح والحيام ، وقد سبق أن ذكرناهما<sup>(٢٣)</sup> . ثم قرية جلجلال ، التي حفرها نوبي مؤخراً في وادي نهر الأردن ، لكن ليس لدينا عنها سوى قليل من العناصر إلى الآن .

بالحقيقة ، حتى الوقت الحاضر ، وحدها المربط تشهد على «مرور» متصل ومتدرج من النطوفي الحديث إلى الألف الثامن<sup>(٢٤)</sup> . سترك إذاً ، نظراً لعدم توفر حجج حاسمة ، مسألة «النقل الثقافي» في فلسطين نفسها ، لنصف التجمعات الجديدة التي كشفتها الحفريات في الحقبة المعنية .

القرى غير كثيرة لكنها معبرة : إنها في وادي نهر الأردن أريحا وجلجلال ، على الشاطئ وادي الفلاح ، في النقب أبو سالم . في سورية ، إنها تل أسود في غوطة دمشق ، المربط والشيخ حسن على الفرات .

## أريحا

كان لاكتشاف أريحا النيوليتي السابق للفخار A<sup>(٢٥)</sup> صدئ مستحق ، نظراً لمهابة العمارات التي أخرجت إلى النور . لكن قبل النيوليتي السابق للفخار A نفسه وبحصر المعنى ، حشد كينيون في مكان واحد من التل ، على استبار لـ ٥٠ فقط ، آثار احتلال سابق ، أضيق ، يقال له «نيوليتي تمهيدى» Protoneolithic . لم تحزر أية بنية عند الحفر

(٢٣) استمرار الاحتلال في المكان الواحد مؤشر أول على ذلك . لكن المصاطب الشديدة الانحدار التي تميز هذين الموقعين تسهل عمليات الترتيب وتمازج الصناعات ومن الصعب استخلاص حجة موثوقة من استمرار الميكرويليت في المستويات الحديثة .

(٢٤) الهندسيات النطوفية للمرحلة الأولى A تستمر في ملحق نطوفي المرحلة الأولى B حيث تظهر السهام الأولى . وهذه تتكاثر في المرحلة الثانية حين تصبح الهندسيات استثنائية .

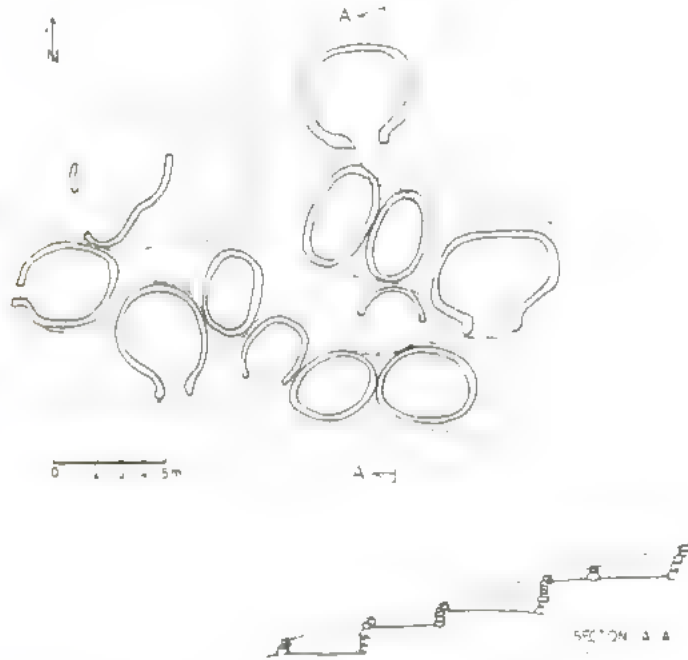
(٢٥) Kenyon an 1960

(٢٦) الهامش مفقود في النص الأجنبي .

تُشتر إلا جزئياً<sup>(٢٠)</sup>، تتميز على ما يبدو بوفرة القاطعات المزدوجة الوجه لكن السهام نادرة جداً والميكروليات غالبة : يكون هذا العتاد بعيداً إلى حد كاف عن التطوفي<sup>(٢١)</sup> وقَلما يبدو آتياً منه . مع ذلك ، كما رأينا ، يبقى السكن ، فيما عدا الاستعمال الجديد لقطع الآجر النيفة في خط بيوت التطوفي المستديرة ، إلى حد لا بأس به .

### جلجال

على مسافة ٢٠ كم فقط شمال أريحا ، اكتشفت وثائق جديدة ، لاسابق لها فيما يتعلق بالأهم ، على يد نوي<sup>(٢٢)</sup> التي نسبتها إلى الأفق الزمني للنيلوتي - التمهيدي .



الرسم ٥ - مخطط قرية وادي الفلاح ، النيلوتي السابق A (حسب ستيكليس وبيزالي)

Kiskbnde 1960 (٣٠)

(٣١) أدوات «تمهيد النيلوتي» التي عُثر عليها قليلة ولا تسمح باستنتاجات صالحة .

Noy 1976 (٣٢)

التنقيبي ، الضيق جداً ، لكن كان يميز على المقطع «تعاقب من مسطوح لانهك تقريباً» مترتبة عمودياً وتنتهي ليس بجدران بل بـ «حديبات صغيرة» (lumps) يؤولها المنقب بأنها قاعدة انشاءات خفيفة ، تُعزى بطبيعة الحال لأقوام من البدو الرحل . نلاحظ ببساطة أن بقايا الانشاءات في المرحلة الثانية من مريط ، التي ليس من موجب لاعتبارها خفيفة بشكل خاص<sup>(٢٣)</sup> ، كثيراً ما تمثل على المقطع مع أرضياتها الغضارية الخفيفة المعاد صنعها مراراً ومع قواعد جدارية مدمرة في الطرفين ، تماماً كما يضعها كنيون هنا . من الأفضل إذاً ، بناءً على هذه الوثائق الوحيدة ، أن لانكون قطعين بصدد الطابع المتنقل لهؤلاء «النيلوتيين البادئين» .

يقدر أن النيلوتي السابق للفخار A نفسه<sup>(٢٤)</sup> يغطي ثلاثة هكتارات : وصلوا إليه عن طريق الخنادق الثلاثة المفتوحة فوق التل ، في أقسامه الشمالية والجنوبية والغربية . البيوت هنا ، كما في التطوفي ، دائرية ومدفونة . يتم بلوغها من الخارج بواسطة منحدر أو مندرج صغير . ينتصب جدار على محيط الحفرة : إنه هنا مصنوع من قطع الآجر النيف الطويلة في شكل الخيز الفرنسي ويحتوي أيضاً على عناصر خشبية .

لكن العمارات الأكثر تعبيراً ليست إنشاءات لاستعمال فردي : يوجد في أريحا النيلوتي السابق للفخار A برج كبير من الحجارة ارتفاعه ٨,٥ م ، عرضه عند القاعدة ١٠ م ، مع درج داخلي ، يصل إلى قمته ، مؤلف من ٢٢ درجة . يوجد من جهة أخرى ، سور يستند على البرج وهو أيضاً من الحجارة ، عرضه ٣ أمتار وارتفاعه ٣,٩٠ م ، وقد حُرر على امتداد ٨ أمتار طوياً . ويُعتقد أنه عثر على هذا الجدار مرة أخرى ، بعرض أقل ، في الخندقين الآخرين ، الشمالي والجنوبي ، ويؤوله المنقب بأنه تحصين دفاعي أول . بينما لاحظ بيرو<sup>(٢٥)</sup> أنه بما أن البرج ناتئ على الداخل وليس على خارج الجدار وبما أن جواره سرعان ما يحتقن بـ «صوامع» أو بيوت تسد النفوذ إليه وتفرقه تدريجياً ، لذا فإن الدور الدفاعي لهذا المجموع ليس جلياً . مهما يكن من أمر ، نحن إزاء عمل جماعي هام يفتح منظورات على تنظيم جماعي - متحدي لنشاطات القرية ، كما يشدد كنيون بحق .

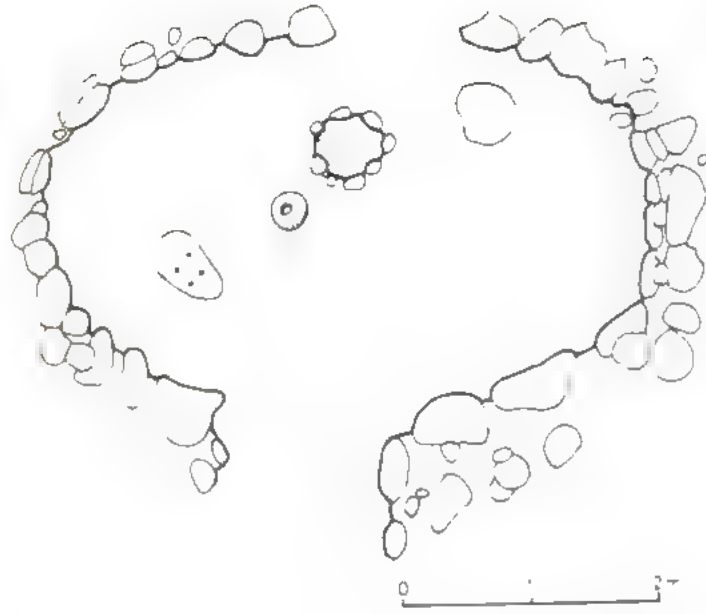
المعدات المعثور عليها في النيلوتي التمهيدي وفي النيلوتي السابق للفخار A ، ولم

(٢٧) انظر لاحقاً ، المريط ، الرسم ٧ .

(٢٨) يمكن الاحتفاظ بسبعة تواريخ كربون ١٤ عن النيلوتي السابق للفخار | . هذه التواريخ تمتد من ٨٣٥٠ ق م إلى ٧٦٢٠ ق م . انظر 1974 Henry et Servello ، ص ٣٧ .

(٢٩) Perrot 1968, col.368





الرسم ٦ - بيت مستدير من النيوليتي السابق للفخار A في وادي الفلاح (المرجع المذكور).

(الرسم ٦) - يقع المدخل على سبيل الأفضلية في الجنوب أو الجنوب الغربي ، أي نحو أسفل المنحدر . وكثيراً ما يؤكد بتوسيع مزدوج لجدار البيت يرسم «دحلة» قصيرة ، وهذه خاصية نجدها في مريط الثاني .

### أبو سالم

قرية أبو سالم موجودة في النقب الأوسط . تأريخها هو أواخر الألف التاسع (٣٧) ، أي أنها تبدأ على أفق مريط الأول B ، وتمثل درجة ثقافية مكافئة لها ، لكنها تتواصل حتى نحو ٨٠٠٠ ق م . بموازاة مريط الثاني ، وهي أيضاً على الأرجح معاصرة للجبل للنيوليتي التمهيدي بأريحا .

(٣٧) كربون ١٤ : ٨٠٢٠ و ٨٢٨٠ ق م (Henry et Servello 1974 ، ص ٣٧)

المقصود قرية تحدد فيها حوالي ١٢ بيتاً مستديراً أو بيضوياً ، بجدران من الحجارة ، وقد تم التنقيب في واحد منها فقط . عُثر فيه (٣٣) على أثاث ثقيل وعلى سهام عديدة ذات فريضات وقاعدة مجذوعة ورتوشات حادة ( «رؤوس الحياض» ) .

السهام هي تلك التي ترافق عادةً كما يبدو في مريط الأول B والثاني في وادي الفلاح (٣٤) والحياض (٣٥) ، الصناعات المشتقة مباشرة من النطوفي في أواخر الألف التاسع . حضورها في جلدجال ، بالقرب من أريحا وعلى نفس الأفق ، يطرح مسألة تجانس ثقافات وادي الأردن في العصر النيوليتي السابق للفخار A .

### وادي الفلاح

نَقَب ستيكليس وإيزرايلي (٣٦) في شرفة نِحال أورين (وادي الفلاح) على مساحة كبيرة ، لم يجدا أقل من أربعة عشر بيتاً في المستوى الثاني المنسوب للنيوليتي السابق للفخار A (الرسم ٥) . لما كان الموقع ينحدر بقوة من الشمال إلى الجنوب ، فقد بُنيت أربع مصاطب مدرجة ، وبينها تتوزع مساكن ، دائرية أو بيضوية ، يتراوح طول قطرها بين ٣ و ٤ م . لهذه البيوت المتفارية جداً والمتلاصقة أحياناً ، جدار من الحجارة محموط أحياناً حتى ارتفاع متر واحد . ويلاحظ أن الجدار المشترك يخدم بأن معاً كحائط شمالي لبيت يقع على المصطبة الدنيا وكحائط جنوبي لبيت أعلى منه . بالتالي ، فالجدار الواحد له في قسمه الأسفل وظيفة إسناد للأراضي المقطوعة ، كما في النطوفي ، لكن لا بد أن يطفو في العراء في طبقاته العليا لكي يحدد المسكن الآخر . بوجه أعم ، كما هو طبيعي على منحدر شديد ، إن البيت الواحد نفسه كان لابد أن يكون مدفوناً باتجاه الأعلى ومبنياً في الهواء الطلق باتجاه الأسفل ، وهذا يتطلب تقنية عمار أكثر إنضاجاً وقدماء منها في النطوفي . أرضية البيت مطلية بالقضار ، مع موقد تحده أحجار وبلاطات قمعية وأثاث ثقيل

(٣٣) . Nozy . إبلاغ شخصي .

(٣٤) Nozy, Legge et Higgs 1973

(٣٥) Eckegaray 1966

(٣٦) Stckels et Yisraeli 1963

جرى التنقيب على مساحة ٢٣٤ م أي حوالي ١٤,٥٪ من الموقع ، فأُسفر<sup>(٣٨)</sup> عن ثلاثة بيوت بيضوية طول قطرها ٣ - ٤ م ، وعن بئ دائرية أخرى أصغر ، يراوح طول قطرها بين متر ومترين . للبيوت جدار من الحجارة سمكها من ٢٥ إلى ٥٠ سم ومحفوظ حتى ارتفاع ٥٠ سم . يستعملون أحجاراً صغيرة أو بلوكات كبيرة ويملأون الفجوات بالوحل (midden) . أرضية البيت رقم ١ ، وهو الأفضل حفظاً ، موسعة قليلاً مع موقد محفور قرب المركز وإلى جانبه بلاطة ثقيلة ذات قموع . يبدو أن المدخل يقع في الجنوب الشرقي . هذه إذاً أول مرة نسمع فيها عن جدران حقيقية ، بُنيت بالحجارة والملاط .

## تل أسود

قرية تل أسود موجودة في سورية في واحة دمشق ، في منطقة كانت بالأمس القريب مستنقعية بين بحيرتين . حقبة الاحتلال أو التوطن التي تتوافق ، حسب تأريخات الكربون ١٤<sup>(٣٩)</sup> وحسب التيولوجيا - «علم النماذج»<sup>(٤٠)</sup> بأن معاً ، مع النيوليتي السابق للفخار A ، هي المرحلة الأولى A ، التي وجدت في استبار غطى ١٦ م في القسم الشرقي من التل . المنشآت تمثل للتنقيب بوصفها تكديساً مترابلاً ومشدوداً من «أحواض» مستديرة مليئة بالرماد وبالمواد البانية أو الفصارية المحروقة ، تتقاطع بشكل متواتر ، فالأحواض الأحداث «تأخذ» من الأسبق ، لا يتخطى طول قطرها المترين ، وهي تتواجد مع حفر أسطوانية أضيق (صوامع ؟) . ولقد عثر على عدد كبير من قطع الأجر الفصاري المستوية - المحذبة الشكل مع آثار نباتية (شجيرات القصب) وبصمات أصابع على الوجه العلوي ؛ وجدت على الغالب كُفَنَات محروقة إلى هذا الحد أو ذاك ، مختلطة بالرماد ، وأحياناً مرتبة جنباً إلى جنب لتشكّل أرضيات أو «مصطبات صغيرة» . يغلب الانطباع بأننا لزاء تجمع من أكواخ صغيرة مستديرة كثيفة ونصف مدفونة ، يستخدم فيها الغضار في شكل قطع آجرية نيفة ، بخاصة من أجل تشكيل أرضيات أو سطوح مستوية أخرى<sup>(٤١)</sup> ، وكانت بناها الفوقية مكثّرة في قسمها الأكبر من مواد نباتية خفيفة وقابلة جداً للاشتعال ولقد تسببت حرائق كثيرة على ما يبدو في إعادة بناء متكررة للمساكن .

Marks et Scott 1976 (٣٨)

كربون ١٤ : ٧٦٩٠ و ٧٧٩٠ ق م BC (Contenson 1976 a) (٣٩)

Cauvin M. - C. 1974 a (٤٠)

(٤١) إل وفرة ذات الأجر داخل «الأحواض» توحي بأنها كانت ربما تساهم أيضاً ، إلى جانب مواد أخف ، في تشييد جدران سكنية .

إذاً فمن الممكن هنا ، أكثر بكثير منه في النطوفي وعن مواقع أخرى للنيوليتي السابق للفخار A ، أن نتكلم عن بني فوقية «خفيفة» . مع ذلك لا بدّ أنها كانت إلى حد كبير اضطرابية ، فرضتها المواد التي تقدمها البيئة المستنقعية ، وبالتالي من غير الممكن هنا أيضاً أن نخلص إلى نتائج فيما يتعلق بدرجة دوام القرية<sup>(٤٢)</sup> .

## مريبط

نجد على الفرات بيئة في صالح البناء ، بالمواد الغزيرة والمتنوعة التي تقدمها : حراج من أشجار الحور والطرفاء (الأثل) على ضفاف النهر ، أشجار سندبان مثورة على السهب (البادية) ، غضار الضفتين ، حصص مصطبة الحقب الجيولوجي الرابع ، قوام صخري من الطباشير اللين القابل للقطع بسهولة : لم يكن للمعماريين من حرج سوى حيرة الاختيار ، لكن هذا التنوع في الموارد لن يستثمر بتمامه إلا في الألف الثامن : لقد رأينا في النطوفي أن الغضار والخشب كانا على ما يبدو موضع تفضيلهم الحضري تقريباً . بقدر ما يمكن الحكم بناء على مستندات مازالت نادرة بعض الشيء ، فإن الحجر قلماً استخدم إلا من أجل صنع أغراض منقولة (أعراض الأثاث) . المريبط والشيخ حس ستيجان لنا تقدير التطور المتصل الذي سيقبّل تقنيات البناء رأساً على عقب . إن مرحلتين رئيسيتين تسمان هذا التطور في مريبط<sup>(٤٣)</sup> . هنا المستوى الثاني (٨٢٠٠ - ٨٠٠٠ ق م) يتوافق لاريب مع أريحا النيوليتي التمهيدي ، جلجال ، أبوسالم ، والمستوى الثالث (٨٠٠٠ - ٧٦٠٠) مع النيوليتي السابق للفخار A بحصر المعنى ومع أسود الأول A في منطقة دمشق .

المرحلة الثانية (أو المستوى الثاني) التي تمّ مباشرة النطوفي الفوقي (أو النطوفي المضاف) الأول B<sup>(٤٤)</sup> قد أسفرت عن عدة بيوت مستديرة سواء في سنة ١٩٦٥<sup>(٤٥)</sup> أو في ١٩٧١ - ١٩٧٤<sup>(٤٦)</sup> . يُستنتج من ذلك أن هذه البيوت ، الصغيرة إلى حد لا بأس به

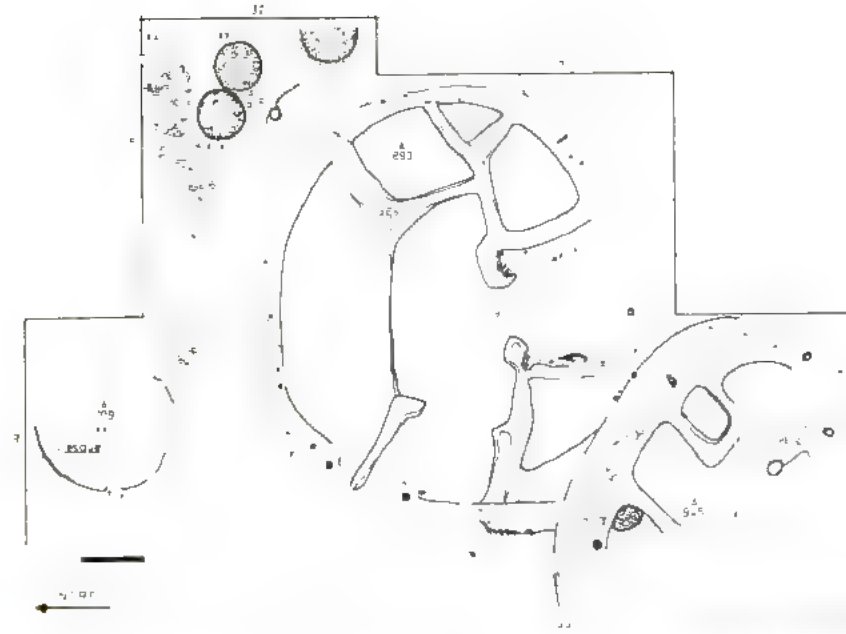
(٤٢) إن أكواخاً من شجيرات القصب كانت ، إلى ما قبل قليل ، تؤلف قرى حضرية مستقرة تماماً في منطقة الغاب في سورية ، وهي ذات بنية مشابهة .

(٤٣) Cauvin J. (a) ، يصدر لاحقاً .

(٤٤) هذا الاستمرار تشهد عليه الأدوات وإعادة تسوية مجالات السكن ذاتها .

(٤٥) للمستويات I إلى VIII (الأولى إلى الثامن) : Van loon 1968 ص ٢٦٧ - ٢٦٩ ، يصف فيها ثمانية بيوت من هذا النمودج .

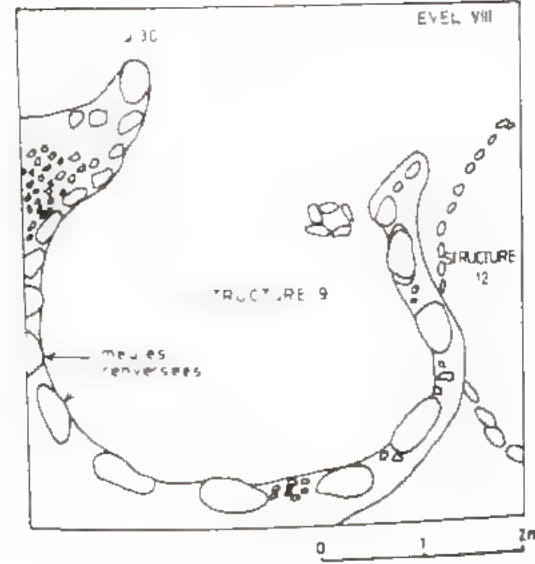
(٤٦) حررت عشر قواعد لبيوت ، ولا واحدة منها كاملة : Cauvin J. (a) ، يصدر لاحقاً .



الرسم ٨ - بيوت مستديرة ذات تقسيمات داخلية من المرحلة الثالثة في مريبط .



الرسم ٩ - البيت رقم ٤٧ في مريبط (المرحلة الثالثة A) : مخطط حالة الاكتشاف ومحاولة إعادة تكوين هيكله حسب آثار الأوتاد .



الرسم ٧ - بيت مستدير من المرحلة الثانية في مريبط (حسب فان لون) .

(٣ - ٤ م قطراً) ، كان يمكن أن تكون إما مدفونة ، وإما منشأة على السطح . الجدار المحيط ، وهو من الغصار ، قد تكون قاعدته معززة بصف من أحجار مسطحة ووضعت كحزف على الوجه الأضيق في اتجاه الطول مشكلة نوعاً من زاوية مركزية بارزة ، أو بقاعدة تحتية من أحجار كلسية وزخيات استخدمت سابقاً ، ويربطها الطين . وكثيراً ما تفرش الأرض قبل البناء بسجاد دائري من الحصى الصغيرة والرمل الخشن ثم تسلط بأحجار مسطحة وأخيراً تليس بالفضار المكمل . إن بيتاً محوّر بالتمام

على يد فان لون يبرز في المخطط المستوي توسيعاً للجدار على جهتي المدخل (الرسم ٧) كذلك الذي لاحظناه في وادي الفلاح . لا توجد أقسام داخلية ، ماعداً في حالة واحدة<sup>(٤٧)</sup> حيث نجد ستة تقويع لأوتاد ، طول قطرها ١٠ سم ، ترسم على امتداد ١,٥٠ م صفاً خطياً مستقيماً يقسم البيت اعتراضاً بحاجز كان خفيفاً بطبيعة الحال . أخيراً البيوت في الغالب تتراصف عن قرب بدون تلاصق ، علماً بأن فان لون يشرح<sup>(٤٨)</sup> مثلاً عن أرضيتين لبيتين متزامنين تتلاصقان على امتداد يزيد عن المتر .

المرحلة الثالثة تتوافق مع المستويات العاشر - السابع عشر في حفرة سنة ١٩٦٥ والتي كان فان لون يدعوها والمستويات ذات البيوت المستطيلة . الحفريات الأحدث قادت إلى تلوين وتدقيق هذا التعريف ، مع ذلك ، المرحلة الثالثة هي العصر الذي تحصل

(٤٧) البنية رقم ٥٤ : Cauvin J (b) ، يصدر لاحقاً .

(٤٨) Van Loon 1968 ، الرسم ٢ .



فيه تبدلات كبيرة وهامة في عمارات الفرات . من جهة ، لا تقدم أية قطعة مع العصور السابقة ، بل توجد هي أيضاً في تواصل مباشر معها . من جهة أخرى تبقى البيوت المستديرة وتستمر حتى نهاية المرحلة . لكن الحديد الهام الذي يميز بداية المرحلة (الثالثة A) هو فعلاً ظهور جدران مستقيمة الخط تقاطع إلى هذا الحد أو ذاك بزاوية قائمة . غير أن هذا الأمر الجديد ليس بيوتاً مستقيمة (قائمة الزوايا) بل تقسيمات متعامدة (قائمة - مستقيمة) داخل بيوت مستديرة<sup>(٤٩)</sup> .

البيت رقم ٤٧<sup>(٥٠)</sup> ، المحفوظة جيداً والحجرة تماماً ، مثال ممتاز عن هذه البيوت المستديرة بتقسيماتها الداخلية . دُفن البيت إلى النصف في منحدر التل الموجود من قبل ، أي أن حائطه الشرقي ، باتجاه عالية المنحدر ، مكوّن بتمامه من حائط الحفرة المحفورة ، ومصنوع بأوتاد من شجر الحور وثُلثيس الغضار ، بينما نجد في جهة الغرب جداراً من اللبن الخشن<sup>(٥١)</sup> ، عرضه ٥٠ سم ، قسم كبير منه مشيد في العراء ، وهو حدّ للبيت<sup>(٥٢)</sup> . أخيراً ، يحدّ هذا البيت جدار سميك في الجنوب الشرقي مبني بكامله بأحجار مسطحة وملاط غضاري ينتمي لبيت مجاور من النموذج نفسه (البيت رقم ٤٢) ، وطول الحائط المشترك - الفاصل متران .

البيت رقم ٤٧ بيت كبير (سنة أمتار) مقسوم بجدران يراوح ارتفاعها بين ٧٠ و ١ م إلى ست «سلّوات» أو «خلايا»<sup>(٥٣)</sup> مفتوحة أو مغلقة من الجهتين برواق مركزي (الرسم ٨) . الجدران سميكة (٢٠ سم) وهي مبنية إما بطبقات من الحجارة المترتبة على صف واحد ، وإما بعناصر خشبية (الواح) أفقية مترتبة هي أيضاً بعضها فوق بعض ومغمورة في الغضار .

من المؤكد أخيراً أن البيت رقم ٤٧ كان يغطيه سقف - سطح من اللبن الممدّد على

(٤٩) هكذا الحال حسب كل ترجيح بالنسبة لمستويات فان لون ١٠ إلى ١٣ حيث توجد فعلاً جدران مستقيمة لكن ليس المخطط العام للبيوت واضحاً .

(٥٠) انظر (a) . Cauvin J. ، يصدر لاحقاً ؟ وبخاصة Aurenche ، يصدر لاحقاً .

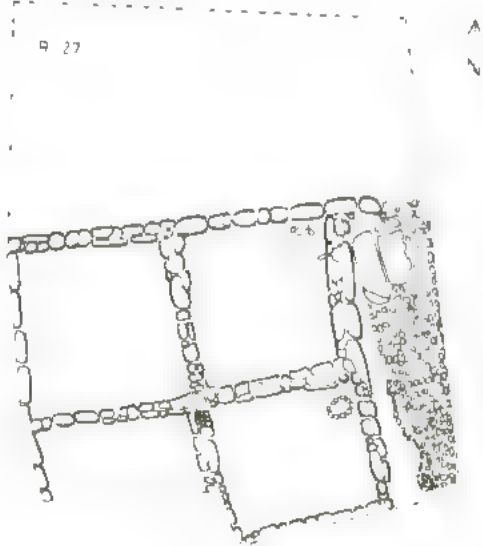
(٥١) المصنوع من أرض التل نفسها المزوجة بالحجارة والعظام .

(٥٢) إن صفّاً آخر من الأوتاد المتلاصقة يصون هذا الجدار ، لكنها هنا وُضعت على حافته الخارجية (الرسم ٨) .

(٥٣) المفروض أن الخلايا الأكبر كانت لسكن ، كما نرى حفرة - موقد صغيرة تقع في زاوية بعضهم (الرسم ٨) . من بوجه عام في شكل شبه منحرف . هناك خلايا أصغر مثلية أحياناً ، لعلها صوامع .

عوارض مرصوفة<sup>(٥٤)</sup> ، كانت فتاتها المفتحّة تفتش أرضية المسكن . هذا السقف كان يرتكز على أعمدة قوية من الحور أو السنديان ، حسب المخطط المرسوم هنا (الرسم ٩) . هكذا فصلاية البناء تجتمع مع تنوع كبير في مواد وتقنيات العمار المستعملة مما يشهد على درجة عالية في الانضاج الريايزي . أما القرية نفسها فيمكن تصوّرها ، في تلك البداية للمرحلة الثالثة ، على أنها تجمع من بيوت مستديرة متنوعة المقاييس<sup>(٥٥)</sup> تتدرّج على منحدر ، كما في وادي الفلاح ، وتتراص إلى هذا الحدّ أو ذاك حول مجالات تركت حرة مع حفر - موائد ومساحات محصّبة .

مما يثير الفضول أن المستويات العليا من المرحلة الثالثة B (أي نحو ٧٧٠٠ - ٧٦٠٠ ق م) لم تسفر ، خلال تنقيبات ١٩٧١ - ١٩٧٤ إلا عن بيوت مستديرة بحفر صغيرة القطر (٣ - ٤ م) غير ممتمة . إذا فقد استمرّ هذا النموذج السكي النطوفي التقليد في المريط حتى نهاية المرحلة الثالثة . بالمقابل ، إن البنى التي عُثر عليها عام ١٩٦٥ في



الرسم ١٠ - بني في شكل رقعة الضامة من المرحلة الثالثة B في مريط (حسب فان لون)

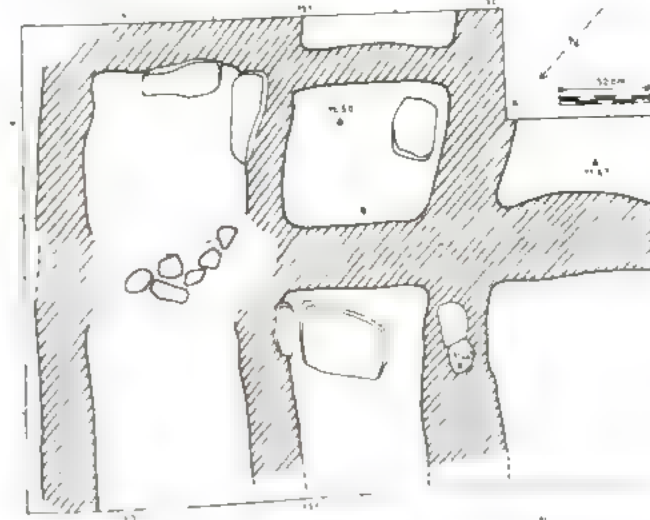
(٥٤) وهو هنا ، كما بالنسبة لطلاء الأرصيات أو الحيطان ، مريح من الغضار المكشوف ومن القش . انظر Leroy-Gourhan Arl 1974 ، ص ٤٤٥ .

(٥٥) طول القطر من ٢,٥٠ إلى ٦ م .

مستويات فان لون الموافقة (المستويات ١٤ - ١٧) هي نموذج مختلف جداً<sup>(٥٦)</sup> : إنها بنى يذكر شكلها برقعة «الضامة» وهي مؤلفة من خلايا مربعة ، مرصوفة ، طول ضلعها ١,٥٠ م ، والأرضية مبلطة (الرسم ١٠) . الجدران التي تحدها ، المبنية من أحجار طباشيرية طويلة نُحتت بالصوان<sup>(٥٧)</sup> ولُحمت بالغضار ورُصفت على صف واحد ، تتقاطع حقاً بزاوية قائمة . ويبدو هنا أن هذه الجدران ليست تقسيمات لبيوت مستديرة بل تقسيمات لبنى هي نفسها مستطيلة أي قائمة الزوايا . ليس استعمال هذه الخلايا موضعاً ، لكن من المثير للاهتمام أن نراها تتواجد مع مساكن دائرية . إن إيصاحات أخرى عن العصر نفسه يعطيها تل الشيخ حسن .

## الشيخ حسن

إن استباراً أُجري في العام ١٩٧٤ في تل الشيخ حسن<sup>(٥٨)</sup> ، على مسافة ٢٠ كم



الرسم ١١ - بنى الضامة في الشيخ حسن

شمال المربط ، قد أسفر ، مع أثاث مشابه لأثاث مربط الثالث B<sup>(٥٩)</sup> ، عن بنى «ضامة» مشابهة (الرسم ١١) ، فيها طول ضلع الخلايا المربعة متر واحد فقط : الجدران التي تحدها إما من اللبن أو مكونة من عصي خشبية أفقية ومراتب مغموسة في الغضار . المستوى السفلي في استبار ثان أعطى ، مع معدات ربما تنتمي لدرجة أبكر في المرحلة الثالثة ، جدران مستقيمة مبنية بأحجار طباشيرية طويلة منحوتة بالصوان ومراتب على صف واحد مع قاعدة مساندة من حصى كبيرة . في المستوى العلوي الذي ينتمي فعلاً على ما يبدو للمرحلة الثالثة B ، وجد جداران كبيران من الأحجار متوازيان وهذا يستحضر بناء مستطيلًا وأكبر حجماً ذا أرضية غضارية .

إذا في الشيخ حسن ، تبدو البنى «الضامية» الشكل غير صالحة بئناً للسكن ، نظراً لضيق حجم الخلايا ، ولأشك أنها كانت صوامع . من جهة أخرى ، ظهر جلياً أن هذا النوع من البنى لم يكن هنا مندرجاً في مجال دائري . أخيراً نجد أيضاً في الشيخ حسن أول بناء مستطيل موثوق في أنه ليس صومعة<sup>(٦٠)</sup> .

تلك هي الوثائق المتوفرة عن حقبة النيوليتي السابق للمخار A سواء في فلسطين أو في سورية . وهي تقود إلى نتائج هامة في ميادين ثلاثة :

الأول ميدان تقنية الإنشاءات . جوهرياً ، تبقى المساكن إذاً بيوتاً مستديرة وتستمر عادةً لإرساء قواعدها في أحيان كثيرة (أريحا ، المربط ، أسود) ؛ لكن عدا عن أنه ، على هامش هذه البيوت المدفونة حتى نصفها ، يُشار إلى حضور أبنية على السطح في كل مكان تقريباً ، يظهر أن القرويين أصبحوا يعرفون البناء بمواد غير الخشب . عملية «العمار» نفسها بالمعنى الحضري ، وخاصة التقنية التي تمكن جداراً بلحمها عناصر كتلية بواسطة ملاط ترابي ، أصبحت معروفة الآن : وهي تفني عن تكديس هذه العناصر بعضها فوق بعض كما في العصر النطوفي ، على (ضد) حاجز (حائط) موجود مسبقاً ، ويمكن بالتالي تطبيقها مباشرة على البنى القوية هذه الجدران المبنية ، من الحجر ، موجودة منذ أواخر

(٥٩) كما يدلّ حضور فلوس (بلطات) مصقولة من الحجر الأخضر : انظر لاحقاً ، الفصل السادر (التطور التكنولوجي) عند الرسم ١٦ والرسم ١٧ .

(٦٠) كانت الاستبارات في الشيخ حسن محدودة ولا تكفي لإعطاء فكرة صحيحة عن تنظيم المجال القروي أو يقينات عن مساحة القرية . لكن صعود مياه البحيرة أثناء الأعمال حفر الجهة الغربية من التل مسيحياً في انهيار أقسام ، الأمر الذي أدى إلى ظهور مقطع عبر مساكن وحفر - مواعد من المرحلة الثالثة أصبح مرئياً على طول ٢٠٠ م . وبما أن التل الأثري يمتد أيضاً على ٢٠٠ م من الشرق إلى الغرب ، لذا نقدر بحوالي ٣ - ٤ هكتار المساحة الاجمالية لمستوطنة الألف الخامس ق م .

(٥٦) Van Loon 1968 ، ص ٢٧١ - ٢٧٥ .

(٥٧) نفس الأحجار الطباشيرية المقطوعة (المنحوتة) كانت موجودة من قبل في بعض جدران التقسيم الداخلي لبيوت مستديرة من المرحلة الثالثة A ، هكذا البنية رقم ٢٢ (Cauvin J . 1972 ، ص ١٠٩) .

(٥٨) (b) Cauvin J . ، يصدر لاحقاً

العائلية الموسعة من الانضواء في مخطط البيت ذاته ، الذي يفسح الإمكان لنماذج جديدة من المساكن .

هذا الانتقال يحصل في شتى أرجاء العالم ، لكن في عصور بالغة التنوع . يبدو أنه كان على الفرات أبكر منه في أية منطقة أخرى ، إذ تطل بداياته هنا منذ مطلع الألف الثامن ، وعلى مراحل متتالية يتم فيها تعلّم تقنية الجدار المستقيم : في المرحلة الثالثة A بالمريوط ، هذا الجدار يخدم في التقسيم وحسب ؛ وهنا نكتشف تقنيات قُطع (نحت) الأحجار والتسليحات الخشبية . في المرحلة الثالثة B فقط ، بموقعي المريوط والشيخ حسن ، يُخطم القيد الأصلي الذي هو المجال المستدير وتترافق الخلايا المربعة في شكل «ضامات» غير مرسومة داخل دائرة . بما أن ضيق حجم هذه الخلايا يستبعد استعمالها السكني ويرجح استعمالها كصوامع ، إذا فالريازات الأولى المستطيلة فعلاً إنما تنظاهر بوصفها إنشاءات ملحقة ، متميزة في المريوط عن البيوت بحصر المعنى<sup>(٦٤)</sup> . وأخيراً يكون لدينا في الشيخ حسن ، أيضاً في المرحلة الثالثة B ، أول شهادة على مسكن مستطيل قائم الزوايا يُبنى بالبيوت الكبيرة المتعددة الغرف التي ستظهر في المرحلة الرابعة بالمريوط وأبو هريرة .

الألف التاسع في أبو سالم بينما المريوط المستوى الثاني تقيم آنذاك جدرانها اللبينة على قواعد من أحجار ملتصحة أيضاً بواسطة الغضار ، ربما وقاية لها ، كما هي الحال اليوم أيضاً ، من الحث والانحجار عند القاعدة بسبب مياه السيول . لقد رأينا أن العناصر الكتلية المذخلة في جسم الجدار يمكن ، في الألف الثامن ، أن تكون لأول مرة موضع معالجة مسبقة : طباشير مقطوع في شكل الخيز الفرنسي الطويل أو «السيجار» الطويل على الفرات ، قطع أجز نيفة لها الشكل نفسه في أريحا وأسود<sup>(٦٥)</sup> ، استعمال الخشب نفسه ليس فقط في شكل أو تاد عمودية كما في السابق ، بل مشغولاً في شكل ألواح أو عصي مدوّرة مكّدة أفقياً وملحومة بالطين على غرار سواء من مواد البناء . إن التنوع الكبير في تقنيات إنشاءات المريوط المستوى الثالث يشهد ، كعناصر أريحا سواء بسواء ، على سيطرة ريزية جديدة تماماً .

النتيجة الثانية تخص مساحة القرى نفسها . إن توسعاً مرموقاً في المساحات المستوطنة يتراءى في النصف الثاني من الحقبة المعينة ، أي في مطلع الألف الثامن . وهو واضح بالنسبة لأريحا النيوليتي السابق للفخار A ، بالتعارض مع «تمهيد النيوليتي» . لقد رأينا اتساع الشيخ حسن في نهاية المرحلة الثالثة . وتوجد بضع إشارات في المريوط أيضاً تنبئ عن توسع كبير في اللحظة نفسها<sup>(٦٦)</sup> . ومن الصعب أكثر أن نقدر لحظة توسع وادي الفلاح نظراً لعدم معرفتنا للصناعات المشاركة . مهما يكن من أمر ، يبدو أن سكناً أكثر عدداً منهم بالأمس قد اجتمعوا في قرى الألف الثامن في سورية كما وفي فلسطين . من جهة أخرى ، إن برج وسور أريحا ، أيّاً كانت مآلاتهما المحددة ، بهجلاً يستشف تنظيمًا مغايرًا ، «جماعياً» أكثر وأكثر تنظيمًا ، لنشاطات البناء نفسها .

النقطة الثالثة تتعلق بالانتقال من البيت المستدير إلى البيت المستطيل . هذا التبدل الجذري في مخطط الريازات ذو أهمية سوسولوجية سبق وجرى التأكيد عليها<sup>(٦٧)</sup> . في حين أن البيت المستدير يكتب في المجال مساحة سكن نهائية وغير قابلة للتوسيع ، إن المسكن المستطيل يتيح كل الإنماءات بإضافة خلايا جديدة . بواسطته سوف تتّكّن السى

(٦١) المقصود أجرات (فريميدات) ما زالت مقولة باليد وليس في قالب . البصمات لاصبة الملحوظة على ظهر الأجرات في أسود هي جهاز هذه تسهيل التصاق الملاط . انظر 1977 Aurenche ، ص ٤٠ .  
(٦٢) كان المنجم مكثراً من تل مركزي مساحته نصف هكتار ويرتكز على قاعدة أدنى منه مساحتها ثلاثة هكتارات . هذه القاعدة ، حسب استتار أجراه فان لون عند حدها الشمالي وأخر قمنا به في الحبوب ، ظهرت مكثرة جوهرياً من محضات المرحلة الثالثة التي تكون أدنى قد احتلت ٢ - ٣ هكتار  
Flannery 1972 (٦٣)

(٦٤) هذا قد يعطل واقع أن هذه البيوت التي كانت في المرحلة الثالثة A تحوي الصوامع عادت في المرحلة الثالثة B إلى مقاييس أصغر .



## الفصل الرابع

### التطور المعماري (تابع) : أواخر الألف الثامن والألف السابع

إن التسمية «Prepottery Neolithic B» أو «PPNB» أي «النيوليتي السابق للفخار B» ، المأخوذة من تناضد (تراتب طبقات) أريحا ، هي التي تُستخدم دوماً في تعيين العصر الذي يشمل ، في المشرق ، أواخر الألف الثامن ومجمل الألف السابع . من الأنسب مع ذلك أن نحفظها إن لم يكن لأريحا نفسها فبالأقل حضارة فلسطين التي تبدي مشابهاً كافية مع حضارة أريحا . هنا أيضاً ، إن التوسع الأخير للبحوث في سورية ، مع إلقائه ضوءاً جديداً على منشأ بعض السمات الثقافية لـ «النيوليتي السابق للفخار B» ، قد أدى إلى اكتشاف مجموعة من الوقائع الأصلية التي تتخطاه بشكل كبير .

أولاً بأول ، كرونولوجياً : في فلسطين لا تعود أقدم التواريخ كربون ١٤ المتوفرة بالنسبة للنيوليتي السابق للفخار B إلى ما وراء ٧٣٠٠ ق م<sup>(١)</sup> . كما بالنسبة لأصول النيوليتي السابق للفخار A ، تنطرح هنا معضلة «انتقال» (مرور ، عبور ، مضي) من حضارة إلى أخرى . في أريحا بالذات ، يأتي النيوليتي السابق للفخار B فجأة في خلاف تناضدي كامل مع النيوليتي السابق للفخار A ، مفصلاً عنه بمستوى عظيم . إنه من صنع

(١) لا سيما بالنسبة لأريحا النيوليتي السابق للفخار B التي تندرج تواريخها الموثوقة من ٧٢٢٠ إلى ٦٧٢٠ ق م (Henry et Servello 1974 ، ص ٣٧) . هذه التواريخ ، التي اعتبرت في البداية مذهلة ومضيفة (Braidwood 1957) ، تبدو الآن مقبولة تماماً في ضوء التواريخ المحرزة في سورية .

قادمين جدد ، أتوا على الأرجح من سورية<sup>(٢)</sup> ، وتمازجوا إلى هذا الحد أو ذاك مع أقوام أصلية . في البيضاء الاحتلال الجديد للموقع والمنسوب للنيوليتي السابق للفخار B (المستويات السادس إلى الثاني) يقع تتامه بين ٧٠٠٠ و ٦٦٠٠ ق. م.<sup>(٣)</sup> . وموقع المنحطة على بحيرة طبريا يؤسس في هذا العصر<sup>(٤)</sup> . المواقع الفلسطينية الوحيدة التي يبدو فيها التوطن متصلاً والتي يمكن فيها بالتالي البحث عن معطيات حول «انتقال» محتمل ، كالخيام أو وادي الفلاح من الصعب استخدامها لأسباب قلناها سابقاً<sup>(٥)</sup> .

في سورية يوجد بالمقابل موقعان ، هما أسود والمريبط يتحقق فيهما الانتقال من حضارة إلى أخرى تدريجياً ، بحاصة إبان الحقبة الداهية من حوالي ٧٦٠٠ إلى ٧٣٠٠ ق. م. والموافقة لـ أسود الأولى B ومريبط الرابعة A . أسود الثانية ومريبط الرابعة B يواصلان هذه الاحتلالات بموازاة احتلال أريحا . وهكذا نرى ، حوالي منتصف الألف الثامن ، أي بالضبط حين تندر الوثائق في فلسطين ، نرى إنضاج وصياغة بعض خصائص النيوليتي السابق للفخار B الأساسية لاسيما في ميدان تقنيات قطع الصوان<sup>(٦)</sup> .

في ميدان الريازات ، كان الباحثون حتى وقت قريب<sup>(٧)</sup> أمام الفكرة المعترف بها والتي فحواها أن المسكن المستطيل «يُمَيِّز» النيوليتي السابق للفخار B . وكانت النتيجة أنهم أولوا حضور بني مستديرة في قاعدة بعض المواقع إتما بأنها مؤشر احتلال أصلي في النيوليتي

(٢) هذه الفرضية ، القديمة (Perrot 1968) ، عن أصل سوري للنيوليتي السابق لفخار B عزرتها نتائج حديثة : حضور نموذج أثروبولوجي جديد ، يقال له «متوسطي رشيق» (Feremback 1973) في أريحا ، سبق وجرى التعرف عليه في مريبط في الحقبة السابقة (المرحلة الثانية A ، تحديد Ozbek ، يصدر لاحقاً) ، حضور قمح مزروع (Triticum monococcum) ليس نموذجاً الأصلي البوي موجوداً في فلسطين لكنه موجود على الفرات ، تقنيات نصيب جديدة للصوان موجودة هي أيضاً في سورية منذ مريبط الثالثة : انظر لاحقاً ، الفصل السادس ، «التطور التكنولوجي» .

(٣) أربعة عشر تاريخاً . انظر 1974 Henry et Servello ، ص ٣٨ .

(٤) والأمر كذلك على الأرجح ، في النقب ، بالنسبة لقرني بعد دفتون (Servello, Tchernov et Dufrenoy 1975) ، نوحال بوكور (Noy 1975) ، ص ٢٤ . يحتفظ بتاريخين بالكربون ١٤ عن نحال دفتون هما ٦٦٧٠ و ٦٦٥٠ ق. م. .

(٥) انظر أنفاً ، الفصل السابق ، عند الحاشية ٢٣ .

(٦) انظر لاحقاً ، الفصل السادس ، التطور التكنولوجي ، عند الحواشي ٢٢ - ٢٩ .

(٧) إلا أن بيرو (Perrot 1968, col.400) كان يؤيد اختلافاً ممكناً : حسب رأيه ، يمكن أن يظهر المخطط المستطيل بعد الخصائص الأخرى للنيوليتي السابق للفخار B .

السابق للفخار A<sup>(٨)</sup> ، وإتما على الأقل ، بأنها مؤشر مرحلة «انتقال» بين الحضارتين<sup>(٩)</sup> . بالحقيقة ، لقد سبق لنا أن استشفقنا ، بالنسبة للحقبة السابقة ، كم أن مخطط السكن يظل محكوماً بعوامل محلية . من المناسب أن لانبالغ في دلالته الثقافية . إن مايعان على امتداد الألف السابع هو اتجاه إلى تعميم المساكن المستطيلة ، لكن تظل المسافات الزمنية بين المناطق ذات شأن في هذه الحثية ، ويبقى الانطباع الإجمالي الغالب هو تنوع كبير ، مستقل نسبياً عن العوامل الثقافية الأخرى<sup>(١٠)</sup> .

يجدر ، من جهة أخرى ، تقسيم العصر الذي يشغلنا هنا إلى حقتين<sup>(١١)</sup> . الأولى ، من ٧٦٠٠ إلى ٦٦٠٠ ق. م. ، تشمل في هذه الحال مع مراحل «الانتقال» السورية كل «النيوليتي السابق للفخار B القديم» و«الوسيط» حسب اصطلاح كروفوت - بين<sup>(١٢)</sup> ونوي<sup>(١٣)</sup> ؛ والثانية ، من ٦٦٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق. م. ، توافق بداية «الانقطاع الفلسطيني» أي توسع التوطنات في «النيوليتي السابق للفخار B الحديث» نحو مناطق أكثر اعتدالاً ونحو الساحل<sup>(١٤)</sup> .

## من ٧٦٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق. م.

لن نعنى هنا إلاً بالمناجم التي أسفرت عن بني ريازية معبرة . إنها المريبط على الفرات ، وأسود في واحة دمشق ثم أريحا ، منحطة ، تل الفرح والبيضا في فلسطين الداخلية ، وادي الفلاح على الساحل (الرسم ١٢) .

(٨) هكذا قل علي حسب بروسيفر Prausnitz (١٩٧٠) ، حيث مستوى القاعدة ذو اببوت المستديرة لا بد أن ينتمي فعلاً ، مثل الرماذ الأولى ، للنيوليتي السابق للفخار B الحديث (انظر لاحقاً ، هذا الفصل ، عند الحواشي ٤١ - ٤٣) ، على حين أن موقع وادي طيني ، في الأردن ، هو أبصاً على الأبر ، نيوليتي سابق للفخار B رغم أكوامه المستديرة إذا ما حكمنا بناءً على رؤوس سهامه (Waechter et Seton - Williams 1938) .

(٩) مثلاً في البيضاء V1

(١٠) انظر لاحقاً ، هذا الفصل ، عند الحواشي ٦١ - ٧٤ .

(١١) هذا ما اعتمدناه في عمل جماعي قيد الإعداد . انظر في لائحة المراجع : Hours وآخرون ، يصدر لاحقاً .

(١٢) Crowfoot - Payne 1976

(١٣) Noy 1975

(١٤) انظر لاحقاً ، هذا الفصل ، عند الحواشي ٣٨ - ٤٤

أن نستنتج من التغيرات التي لحظت من قبل في مخطط الثالثة B والشيخ حسن أن الرياضات لابد كانت مستطيلة هنا .

أما الحفر في مستويات المرحلة الرابعة B وهو يكاد لا يكون أكثر اتساعاً<sup>(١٨)</sup> فقد التقى بثلاثة جدران طويلة مستقيمة ومتوازية ، تفصل بينها مسافة ١١ و ١٥,٥٠ م . كان يصل اثنين منها ، عند الحد الغربي للاستبار ، جدار يتعامد معهما (الرسم ١٣) . إذا نحن فعلاً ، في الظاهر ، إزاء جزء من بيت كبير مستطيل ومتعدد الخلايا ، بغرف طويلة وضيقة ، كما سيصادف بعد ذلك بقليل في أبو هريرة . الجدران من اللبن (غضار أصفر وتبن) محفوظة على ارتفاع ١,١٠ م ، وعرضها من ٢٠ إلى ٤٠ سم فقط . كانت تستند إليها جماجم بشرية وضعت على أرضية الغرفة المطلية بغضار مائل إلى اللون الأصفر مع تلعات من الغضار الأحمر كانت بمثابة قواعد للحماجم . تلك هي الوثيقة المعمارية الوحيدة التي لدينا في منطقة الفرات بالنسبة لحوالي سنة ٧٠٠٠ ق . م .

### غوة دمشق : أسود الأولى B — الثانية

كما في المريط ، تشهد طبقات وصناعة تل أسود على تطور لاقطية فيه .  
والحال ، إنه لا يوجد ، حسب كونتسون<sup>(١٩)</sup> أي فرق بين قاعدة وقمة التضاد من وجهة نظر البنى . إذاً يمكن أن نردد هنا ماقلناه عن «أحواض» المرحلة الأولى B . المساكن الدائرية و«الخفيفة» باقية في منطقة دمشق على حين أن الفرات شرقاً ووادي نهر الأردن جنوباً . غرباً قد بدأت تماماً تحولهما الجذري في ميدان العمارة .

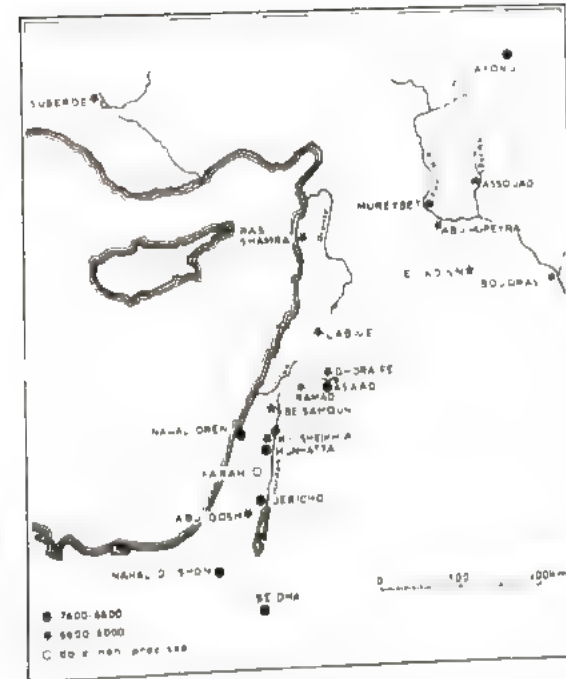
فلسطين الداخلية : أريحا النيوليتي السابق للفخار B ، المنحطة ٦ — ٤ ، تل الفرح ، البيضاء

بيوت النيوليتي السابق للفخار B هي في أريحا مختلفة جداً عن بيوت النيوليتي السابق للفخار A . رغم أن الشقيب لم يحرر أي بيت يتماهم ، فإن كنيون يصفها<sup>(٢٠)</sup>

Cauvin J . 1974 b (١٨)

Contenson 1972 (١٩)

Kenyan 1957 (٢٠) ، ص ٥٣ - ٥٦



الرسم ١٢ خريطة المناجم المذكورة من ٧٦٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق . م

### الفرات الأوسط : مريط الرابعة

المرحلة الرابعة A في المريط<sup>(١٥)</sup> المحفورة عام ١٩٧٤ شرق التل على مساحة ١٦ م فقط ، لم تعط رياضات في هذا الحيز المحدود . إلا أن الصناعات<sup>(١٦)</sup> وأدلة غبار الطلع<sup>(١٧)</sup> قد يتت استمرار التوطن في مريط في النصف الثاني من الألف الثامن . يمكن

(١٥) بالكربون ١٤ : ٧٦٥٠ و ٧٠٨٠ ق م : (a) Cauvin J . ، يصدر لاحقاً . بما أنه يوجد تأريخ للمرحلة الرابعة B التي هي أحدث هو ٧٣٣٠ ، لذلك نحفظ للمرحلة الرابعة A بالحقيقة ٧٦٠٠ - ٧٣٠٠ .

(١٦) (a) Cauvin J . ، يصدر لاحقاً .

(١٧) Leroi - Gourhan Arl. 1974



بأنها مستطيلة ، متعددة الخلايا ، مجتمعة حول باحات تكثر فيها المواقد . الجدران مبنية من قطع الآجر النقي ، الطويلة في شكل «سجائر» مسطحة ، مع بصمات عميقة على الوجه العلوي من أجل تثبيت الملاط . هذه «القرميدات» تتركز بوجه عام على قاعدة من الحجارة . الأرضيات من غضار ملئس بطلاء من الكلس مصقول بنعومة وفي أحيان كثيرة ، ملون بالأحمر أو بلون «الكريم» . وتكون السقوف ، حسب الفتات المسترجع من الأرضيات ، مصنوعة من الغضار والقصب . أخيراً يقدم أحد البيوت كوة مستديرة محفورة في أحد جدرانها ، يفترض أن عموداً صغيراً من البازلت ، عُثر عليه بالقرب منها ، كان ينتصب فيها فوق حجر كبير كان قاعدة له<sup>(٢١)</sup> .

أكثر إلى الشمال في وادي الأردن ، على مسافة ١٥ كم إلى الجنوب من بحيرة طبريا ، نُقِبَ في موقع المنحطة على مساحة ٢٠٠٠ م<sup>٢</sup> (٢٢) . مستوياته الدنيا ٦ - ٣ (٢٣) . تتضح من حيث الآثار النيوليتي السابق للفخار B بأربحا . المستوى السادس ، انقاعدي ، ليس فيه سوى أرضيات من التراب المخفوق (الطين المصلب) على لبشات من حصي ، وقد أولت بأنها أرضيات «ملاحي» خفيفة . اعتباراً من المستوى الخامس تظهر ، فوق أساسات من الحجارة ، بناءات من آجرات ثقبة مسطحة وطويلة لحمت بملاط غضاري ، وجدار مؤلف من حافتين حجريتين بينهما حشوة ترابية . في المستوى الرابع ، مساكن كبيرة مستطيلة لها الجدران الآجرية نفسها مع ، أحياناً ، حافة داخلية من الأحجار لحماية قاعدتها ، وأرضيات من الكلس : عدة غرف فيها كوة ملئية ، بحر الشمال ، يحتلها أحياناً حجر كبير . يُشار أيضاً إلى شتيحة مستطيلة مبلطة ومساحات محصنة وأحواض . في المستوى الثالث أخيراً ، وهو الأحدث ، الأرضيات الملبسة ، المصبوغة أحياناً باللون الأصفر ، تمتد بشكل متصل تقريباً على الألفين من الأمتار المربعة التي طالتها التنقيب . إن أبنية كبيرة جداً ، دائرية إلى هذا الحد أو ذاك ، تبدو تكوّن مجموعات سكنية معقدة ، تشتمل على باحة مركزية مبلطة مع غرف مستطيلة في المحيط<sup>(٢٤)</sup> . إن

(٢١) هذا البيت فُسر على أنه «حرم مقدس» قبل أن تأتي اكتشافات مشابهة في المنحطة لتبين طابعه العادي نسبياً .

(٢٢) Perrot 1966

(٢٣) يأتي منها تاريخان بالكربون ١٤ : ٧٢١٠ و ٥٤٢٠ ق م ، ومن الجلي أن هذا الأخير واطئ جداً (Henry et Servello 1974) .

(٢٤) يبقى شك حول العمر الفعلي للمستوى الثالث ، نظراً لعدم نشر تفصيلي للمواد بحسب المستويات . إن حضور نف من الطين المشوي في قبة هذا المستوى ، إذ يشر بصناعة الفخار ، قد يؤثر بالأصح على نهاية النيوليتي السابق للفخار B .

ثباتاً ما في التقنيات (جدران من قطع الآجر وأرضيات من الكلس) لا تحول إذاً دون تنوع في المخططات .

المستوى النيوليتي السابق للفخار B ، الذي هو في قاعدة تل الفرج ، في السامرة<sup>(٢٥)</sup> ، لم يسفر إلا عن مسكن في حفرة بيضوية وأرضية «مكلسة» . واستخدام الكلس هو هنا العلامة الوحيدة التي «تحدث» هذا النموذج السكني العتيق بما فيه الكفاية<sup>(٢٦)</sup> .

إلى الجنوب من البحر الميت أخيراً ، يقدم موقع البيضا في مستوياته الستة العائدة للنيوليتي السابق للفخار B مجموعة ريازية غنية<sup>(٢٧)</sup> ، يجعلنا تطورها ، مع أنه يقع برتته بعد ٧٠٠٠ ق م ، نشهد ، في وقت متأخر عن الفرات ، الانتقال من البيت المستدير إلى أشكال جد أصيلة ومصنجة من المساكن المستطيلة . في المستوى السادس ، القاعدي ، مازال لدينا البيت - الحفرة المستديرة ، بعمق نصف متر ، مع متفذ إليه بواسطة درج . في هذه الحفرة يبنى جدار حجري : ترضع في جانبه الداخلي أوتاد من الخشب تباعد بينها مسافة ٣٠ إلى ٥٠ سم . على هذه الأوتاد ، التي يكتفلها وتد مركزي ، يرتكز سقف سميك من الغضار . الأرضيات والجدران مقلية بالكلس (Lime plaster) . هذه الأبنية ليست معزولة ، بل هي تشكل زمراً من خلايا مستديرة متلاصقة الحدود ، تصل بينها أروقة ومندرجات شتى<sup>(٢٨)</sup> ، هذه «الزمر» هي على الأرجح وحدات السكن الحقيقية و«البيوت» المستديرة غرفها<sup>(٢٩)</sup> . كل زمرة بدورها محوطة بجدار سميك ، توجد في ماورائه باحات تجتمع فيها المواقد<sup>(٣٠)</sup> . وتحتشد خلايا أصغر (مستودعات للمؤن) في المجالات الضيقة التي تفصل جدران التسوير عن «البيوت» بحصر المعنى التي تحيط بها هذه الجدران . أخيراً ، تبيّن للكثيب الرملي الذي بنيت عليه القرية ، بُني في ذلك العصر جدار داعم على امتداد جهته الجنوبية .

(٢٥) de Vaux 1961 ; de Vaux et Steve 1947 ، ص ٥٥٩ واللمحة ٣٥ .

(٢٦) المتاد النموذجي لا يشمل سوى قاطع ومقر (معول ، منكش) ، وهذا لا يكفي بتاتاً لتحديد تاريخ الموقع الذي يمكن أن يكون أيضاً من النيوليتي السابق للفخار B الحديث على أفق رماد الأولى وتل علي ، وبيوتها أيضاً مستديرة .

(٢٧) Kirkbride 1966, 1968a, 1968b . هناك موقع آخر بالقرب من البيضا ، هو الطمان ، لم يحظ بأكثر من سيرة على يد العالم نفسه (Kirkbride 1966) ، ص ٥٦ ، وأسفر عن عمارة مستطيلة ذات أقسام وأرضية مطية .

(٢٨) Kirkbride 1987 ص ٦

(٢٩) نُشِت تسعة بيوت في زمرة من هذه الرمر دقها الحث جرياً .

(٣٠) هذه الباحات قد تكون معطاة جزئياً وأرضياتها مطية

في المستويين الخامس والرابع ، تستمر البيوت المستديرة بالحفر ، لكن كركبرايد يلاحظ أن بعضها معزول ولم يعد مجموعاً ، وأن الأوتاد (الأعمدة الخشبية) ، وهي فريسة سهلة للحرائق ، باتت أقل استعمالاً ، وبخاصة أن مخططاً جديداً يظهر ، مستطيلاً ووحيد الخلية ، لكنه يحتفظ بانحناء خفيف جداً للجدران الأربعة ، مع تدوير الزوايا أحياناً<sup>(٣١)</sup> .

يحصل تحول أوضح أيضاً ، وإن كان تدريجياً ، في المستويين الثالث والثاني . تبقى عادة إقامة البيوت في حفر ، لكن باتت المخططات جميعاً مستطيلة . يوجد في المستوى الثاني (الرسم ١٤) من جهة بيت كبير ووحيد الخلية ، ٩م x ٧م ، مع موقد مبني في الداخل مقابل المدخل ، أرضيات وجدران مطلية بأبيض جيد اللعة ، وشريط جداري عريض مصبوغ بالأحمر على مدار الغرفة ، من جهة أخرى زمرة من بيوت ، مفصولة بياحة عن البيت السابق ، ومسية جميعاً حسب مخطط واحد ، رواق مركزي طويل - ٨ م - يطل في كل من الجهتين على ثلاث خلايا ، ١٠,٥٠م x ١م ، تفصل بينها جدران حجرية سميكة جداً . هذه الأبنية ، المدفونة كجميع أبنية البيضاء ، كانت تؤلف بالحقيقة «أبنية» تستعمل كمخازن أو كمشاغل<sup>(٣٢)</sup> وقائمة تحت أرضية طابق علوي أخف تستعمل للسكن<sup>(٣٣)</sup> .

أخيراً لنفس الحقبة يجب ، حسب فوي<sup>(٣٤)</sup> أن ننسب ، على الساحل الفلسطيني ، نيولتي وادي الفلاح السابق للفخار B الذي سلّم لـ بيتكليس<sup>(٣٥)</sup> عدداً من البيوت المستطيلة أو شبه المستديرة مع جدرانها الحجرية وأرضياتها المليئة باللبن أو بالكلس .

إذا فمحضور بنى ربازية فائقة التعقيد ، مستطيلة في الغالب ، هو الواقعة البارزة في الحقبة المعنية . هذا على كل حال ماتعنيه اكتشافات فلسطين . وتوَّع هذه المساكن من جهة أخرى أمرٌ يُلاحظ ، تقنياً ، الأرضيات الكلسية هي طابع مشترك لقرى القصاع الفلسطيني كافة<sup>(٣٦)</sup> . كذلك يبدو استعمال الأجر النقي معمماً داخل نفس الحدود

(٣١) Kirkbride 1967 ، ص ٨

(٣٢) بالفعل تبدي الخلايا بقايا من نشاطات متخصصة : شغل العظم والقرن والصوان ، «دكان حجارة» الخ ... (Kirkbride 1968b) ، ص (٢٧١)

(٣٣) خمسة بيوت أخرى من النموذج نفسه تؤلف زمرة أخرى ، تقع جنوبي الرمة الآفة (الرسم ١٤) (٣٤) Noy 1975 . يكون النيولتي السابق للفخار B «القديم» والوسيط» حسب المؤلف المذكور ممثلين هنا بالتساوي . غياب التأريخ بالكربون ١٤ ونقص المادة المنشورة حتى الآن لا يسمحان لنا بإبداء حكم

(٣٥) والطبقة ١١ حسب Stekels et Yizraely 1963

(٣٦) لا يبدو أنها بلغت آنذاك منطقة الفرات ، إذا ما حكمنا بناء على المثال الوحيد المتوفر وهو مريبط الرابعة .



شكل (١٣) - الهدسة الممارية لمريبط BIV

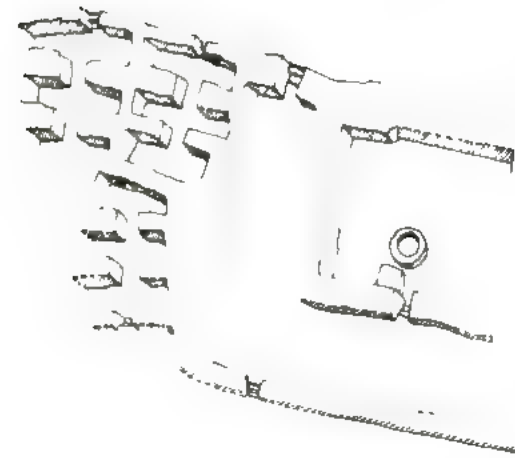
أخيراً يستمر السكن الدائري في أماكن مختلفة ، أحياناً على امتداد الحقة (تل أسود) ، أحياناً في بداياتها فقط (البيضا) . وبعد ، ليس لهذا «العتق» الريزي ، الذي يقى على الصعيد التقني خيارات باتت قديمة منذ ذلك الحين ، أن يؤهم هنا : فالمهم في البيضا ليس وجود خلايا مستديرة باقية في التقليد النطوفي بل واقع أن هذه الخلايا ، بدءاً من القاعدة والأساس ، متلاصقة ومتصلة فيما بينها لتشكل وحدات سكنية تضم عدداً منها . وهي بذلك عينه المكافئ ، إن لم يكن التقني فعلى الأقل «السوسيولوجي» للمساكن المستطيلة والمتعددة الخلايا في المنحطة أو أريحا أو المستويات العليا في البيضا نفسها . إذا فهذه المساكن المستطيلة هي بمثابة حل «منتظر» وأفضل تقنياً من أجل «نمط سكن» بات معقداً وهو موجود قبله في البيضا .

من ٦٦٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق م.

نشهد في أواخر الألف السابع تحولاً عميقاً في خريطة المستوطنات (الرسم ١٢) . في فلسطين ، مع أن النيوليتي السابق للفخار B مازال وارداً ، وأن تقليده الثقافي يتواصل في هذا العصر ، إلا أن القرى التي يمكن أن تدرس عليها المرحلة الأخيرة هذه ليست هي نفسها كما في السابق . لقد رأينا أن البيضا لا تدوم بعد ٦٦٠٠ ق م . والأمر كذلك على مايدو في أريحا<sup>(٣٧)</sup> والمنحطة في وادي الأردن الأسفل ، وكذلك أيضاً بالنسبة للمواقع الكبيرة التي لم يُصبها التنقيب بعد في النقب ، مثل نحال دفشون<sup>(٣٨)</sup> .

القرى ذات الصفة التمثيلية الآن تقع بمعظمها إما فوق المرتفعات الجبلية بمنطقة القدس (أبو غوش) ، وإما في الجليل الأعلى (بيمسون) . خارج فلسطين ، لكن على مقربة منها ومنسبة لنفس الثقافة ، إنها لبوة في البقاع والرماد في غوطة دمشق . كل هذه المواقع جديدة ، أي أن قوماً جاؤوا من أماكن أخرى يصلون ويقبضون . الانطباع العام عن إنتقال سكان يهحرون لحقة من الزمن ( «الانقطاع الفلسطيني» ) مناطق الداخل ، وهي

(٣٧) رغم تأريخين بالكربون ١٤ للمستويات العلوية (٦٢٥٠ و ٥٨٥٠ ق م) يناقضهما عدا ذلك تأريخ ثالث (٦٧٢٠) ويرفضهما Henry et Servello 1974 (ص ٢٥) على أساس أن المعالجة المسبقة للمسطرة الفحوصة لم تكن كافية ، وأيضاً رغم رأي Crowfoot - Payne 1976 غير المدعّم على نحو كاف ، الآن ، بالحجج النيولوجية (النماذجية) .  
(٣٨) انظر أنفاً ، هذا الفصل ، الحاشية ٤ .



الرسم ١٤ - رتبة في البيضا المستوى الثاني (حسب كركيرايدي)

الجغرافية . لكن مخطط البيوت يختلف من موقع إلى آخر ، لأسباب إيكولوجية (كما في تل أسود) لكن بالتأكيد لأسباب من نوع آخر أيضاً : فيما عدا بعض الملامح المشتركة ، مثلاً البيوت ذات كوة في منحطة - أريحا ، تبدو كل قرية في إبداعاتها الأكثر إضاحاً ، تصل إلى حلول خاصة بها ، رغم الوحدة الحضارية التي تشهد عليها من جهة أخرى الصناعات . إذاً فكلما تعقدت مخططات البيوت ، تنوعت جغرافياً .



أكثر جفافاً ، لصالح مناطق أكثر رطوبة<sup>(٣٩)</sup> ينبع بشكل طبيعي من هذه المعابنات<sup>(٤٠)</sup> التي يمكن أن يشتمل أيضاً ، على مسافة أطول ، الاحتلال الجديد للساحل السوري مع تأسيس رأس شمرة .

غير أن فرضية «الخروج» أو «الهجرة الجماعية» ، وهي صحيحة بدون شك في جزء كبير منها بالنسبة لفلسطين ، لاتفصح عن كل شيء . في سورية الشرقية ، نشهد تجدداً للتوطنات من نوع مماثل : لاريب أن موقعاً جديداً كـ (تل أسود)<sup>(٤١)</sup> يقام في الجزيرة العليا الرطبة ، لكن ، بينما في المنطقة نصف - الحافة تُهجر المريط ، فعلى مسافة ٤٠ كم منها فقط تُشَقَّل أبو هريرة مرة ثانية في المنطقة الإيكولوجية نفسها ، وأبعد كثيراً إلى الجنوب تؤسس بقرص على ضفة الفرات . في البلاد القديمة ، أيضاً في أواخر الألف السابع على ما يبدو تأسست قرية الكوم ومعها مواقع عديدة اكتشفت مؤخرًا<sup>(٤٢)</sup> في هذه المنطقة مع أنها شبه صحراوية . إذاً يبدو أنه على الرغم من الجفاف العميق المفترض فقد تمكنت بعض الشروط البيئية المحلية أو ربما بعض الممارسات الغذائية الجديدة من تخفيف الأضرار . سيجدر بنا أن نتساءل أية شروط<sup>(٤٣)</sup> .

في منطقة دمشق ، تُهجر أسود ثم الغريفة بينما تؤسس تل الرماد . في فلسطين نفسها ، مع أن هجر المنحطة يعزى ، شأنه شأن هجر أريحا والبيضا ، لمناخ غير مضياف ، فإنه على بُعد بضعة كيلو مترات يُحتل تل علي حيث نلتقي بصناعة تل الرماد<sup>(٤٤)</sup> ، في سياق محلي مختلف أجل ، على ضفاف بحيرة طبريا ونهر الأردن الدائم الجريان ، بينما كانت منحطة مقامة في مكان أبعد عن البحيرة على واد موسمي .

إذاً في المرحلة الراهنة من تحقيقنا لا يمكن أن نخلص إلا إلى انقلاب عام في أماكن انغراس القرى . ويتترجم ذلك ليس فقط بترحيلات في مستوى مناطق طبيعية بأسرها ،

(٣٩) Perrot 1968, col.404

(٤٠) في الرماد ، إن حصور عناصر ثقافية (فواضع «طاحونية» ، رؤوس سهام أريحا ، جماعم مطنية) جاءت بداية من فلسطين يمكن أن يثبت هذا التحرك : انظر Cauvin M. - C. 1974 ، ص ٣٢١ .  
• تسمية «عبر من ها» ، يصح لديها ، عدد عن تل أسود دمشق ، تل أسود عبرت (أو الحرية العليا) . وقد نُقِرت في النص الفرنسي بالفل اللاتيني لحرف الواو العربي Assoud/ Aswad وسُميَتهما ، كلها اقتضت الضرورة ، بذكر المنطقة .

(٤١) Suzuki et Akazawa

(٤٢) انظر لاحقاً ، الفصل الخامس : «إنتاج القوت» .

(٤٣) لا سيما ، منذ القاعدة ، عناصر من مناجل ذات أسنان كبيرة وفائز منحوت ذو قاطع مصقول . انظر Prausnitz 1970

كما ذكر من قبل ، بل ، في المناطق نفسها التي ليست هذه الترحيلات شأنها ، مجموعة ، ملفقة للنظر هي أيضاً ، من قهجرات وتأسيسات جديدة ، سوف نحاول في الفصل التالي النفاذ إلى علة وجودها .

ماذا عن هذه القرى الجديدة في الصعيد المعماري بالذات ؟

## الفرات الأوسط

أبو هريرة<sup>(٤٥)</sup> الواقعة ، على الفرات ، والمهجورة منذ اسطوفي ، احتُلت من جديد في الألف السابع . لا يوجد تأريخ كربون ١٤ لهذا الموقع ، لكن الصناعة الموجودة تبدو لاحقة لصناعة مريط الرابعة B ومماثلة جداً لصناعات تل أسود الجزيرة وبقرص<sup>(٤٦)</sup> أي لصناعات مواقع من النصف الثاني للألف السابع .

مُتِرت فيها ثلاث مراحل :

في الأولى اللاصفارية والتي مازالت محدودة الاتساع نسبياً ، الأبنية ذات جدران مستقيمة بأجرات النيقة ، وعلى الأرجح متعددة الخلايا . الأرضيات تحمل طلاء (plaster) لازياً أسود لامعاً ، لم توضَّح طبيعته الدقيقة ، وسوف نلقاه في المراحل التالية .

في المرحلة الثانية ، تحرز القرية اتساعاً كبيراً يصل إلى حوالي ١٢ هكتاراً . الأجرات النيقة مازالت تستعمل ، ومقاييسها تختلف حسب البيوت . لهذه عدد من الغرف المستطيلة ، يصل أحياناً حتى الخمسة ، وطولها ضعفا عرضها . التدوير الداخلي يشتمل على مصاطب محفظة ، وأحياناً على موقد قريب من وسط العرفة . الأرضيات المطلية ، السوداء بوجه عام ، مصبوعة أحياناً بالأحمر . ليست المساكن مشورة بل بالعكس مشدودة بعضها إلى بعض ، حول باحات وأزقة .

أخيراً في مرحلة الاحتلال الأخيرة ، التي تری ظهور الخزفيات الأولى ، يتقلص الموقع من جديد إلى نصف المساحة المحتلة آنفاً ، أي إلى حوالي ٦ هكتارات . وتبدو الريازات نفسها مواصلة فيه .

بقرص ، الواقعة عند ملتقى الفرات والخابور ، هي أيضاً قرية واسعة جداً<sup>(٤٧)</sup>

(٤٤) Moore, Hillman et Legge 1975

(٤٥) انظر لاحقاً ، الفصل السادس : «التطور التكنولوجي» .

(٤٦) طولها حوالي ٢٢٠ م

وتأريخها ، إبان سترات كونتسون وفان لير<sup>(٤٧)</sup> على مساحة ٣٢ م<sup>٢</sup> ، هو نهاية الألف السابع<sup>(٤٨)</sup> . تميزت فيها آنذاك ثلاثة مستويات . الأسفل أعطى جدراناً من اللبن مستقيمة وأرضيات من الكلس أو من الطين المقتنى ، مع آثار من الحصر المفحمة . في المستوى الثاني ، أرضيات الكلس مستمرة . وتخدم آجرات نيفة مستطيلة ، مختلفة الألوان ، في بناء جدران مستقيمة وأعمدة كتلية مربعة . ويبدو اكتشاف قناة صنعت من تربة آجرية<sup>(٤٩)</sup> أول إشارة توفرت لصالح توزيع الماء على نطاق القرية . أخيراً أعطى المستوى الثاني ، الذي يظهر فيه الفخار ، جدراناً مبنية بالآجرات المائلة إلى اللون الأحمر . حسب التقنيات التي استأنفها مؤخراً فريق هولندي ، نحن على ما يبدو إزاء أبنية متعددة الخلايا تشبه إلى حد لا بأس به أبنية أبو هريرة<sup>(٥٠)</sup> .

تل أسود<sup>(٥١)</sup> موقع ، في الجزيرة العليا على ضفة الخليج ، لم يحظ بأكثر من استبار درجي ، قُسم إلى ثماني درجات رُفعت من ١ إلى ٨ ذهاباً من القمة . الدرجتان ٨ و ٦ أعطتا تواريخ كربون ١٤ تجاوز ٦٥٠٠ ق م<sup>(٥٢)</sup> ، وهذا من شأنه أن يوقع مجموع الاحتلال في النصف الثاني من الألف السابع . الدرجتان السفليتان ، ٨ - ٧ ، فيهما خزف ملتحق سابق لأوانه ، والمستويات الأحدث ، ٦ - ١ ، هي التي ليس فيها فخار ، لكنها أعطت معذات حجرية تشبه بالحقيقة ما أعطته المستويات اللافخارية في أبو هريرة وقرص<sup>(٥٣)</sup> . البنى المنشأة تشتمل على جدران مستقيمة مصنوعة من آجرات نيفة مستطيلة ذات شكلين متميزين وألوان مختلفة (البيج والأحمر) كما في قرص . واستعمال الكلس أمر مؤكد إما في شكل طلاء للأرض قاس وإما في شكل قطع هشة من طلاءات أخف لم يُعثر عليها في مكانها ، وهي للجدران على الأرجح ، وإما أخيراً في شكل أرضية مكلّسة رُويت برائب الكلس (الدرجة ٢) على الأرجح بقصد النظافة الصحية وحسب<sup>(٥٤)</sup> .

(٤٧) Contenson et Van Liere 1966

(٤٨) كربون ١٤ : ٦١٩٠ و ٦٢٩٠ ق م للمستوى الأول ، ٦٠١٠ لثاني ، ٥٩٩٠ لثالث . انظر Henry et Servello ، ص ٣٩

(٤٩) Contenson et Van Liere 1966 ، ص ١٨٤

(٥٠) إبلاغ شخصي من J. Roodenberg .

(٥١) Cauvin J. 1972

(٥٢) اي : ٦٥٠٠ والمستوى ٨ و ٦٦٧٠ (المستوى ٦) : انظر J. Cauvin 1974 a ، ص ٢٠٣

(٥٣) Cauvin M. - C. 1972

(٥٤) انكشف عند التقوب بسرير متصل من جزيات كربونية وعلى المقطع بشرط أبيض بسيط .

في البلاد التدمرية أخيراً ، في منتصف الطريق بين تدمر ومدينة الرقة على الفرات ، حظي تل الكوم الكبير هو أيضاً ، باستبار درجي على يد دورغان<sup>(٥٥)</sup> . المستوى السفلي ، اللاخزفي ، لم يعط سوى آثار أرضيات وجدران غضارية . تظهر فوق ، مع أية من الكلس كما في الرماد الثانية ، بنى مستطيلة ومتعددة الخلايا ، تبدو غرفها تتصل بواسطة أدراج ، ولها جدران وأرضيات مطلية بالكلس .

إذاً تبدو ثلاثة خواص جديدة تفرد قرى الفرات والبلاد التدمرية في النصف الثاني من الألف السابع : استعمال الكلس في السكن ، وهو أمر جديد في هذه المناطق ، واستخدام آجرات نيفة متوازية المستطيلات ، في منطقة الفرات ، أي أنها على الأرجح مقبولة كما تقولب في أيامنا هذه<sup>(٥٦)</sup> ، وخاصة ، مع الكوم وأبو هريرة ، وكذلك ظهور قرى ذات مساحات هائلة نسبياً بالقياس مع قرى العصور السابقة .

### سورية الغربية ولبنان

أتت حفريات كونتسون بعناصر كثيرة عن أواخر الألف السابع في منطقة دمشق . وقد هجرت قرية أسود نحو ٦٦٠٠ ق م كما رأينا ، فقد تواصل احتلال الغريفة ، الواقعة على مسافة ١٥ كم أكثر جنوباً في المحيط نفسه والمعاصرة بداية لـ أسود المرحلة الثانية ، حتى نحو ٦٢٠٠<sup>(٥٧)</sup> . لم تصادف السبرات جدراناً لكن طبقات وهجوب الرماد والغضار المطبوخ إلى هذا الحد أو ذاك التي يشير إليها كونتسون<sup>(٥٨)</sup> تبدو تؤثر على نموذج البنى الموجود في أسود .

نحو سنة ٦٢٠٠ ق م تؤسس قرية الرماد<sup>(٥٩)</sup> ليس في الواحة (الغوطة) بالذات ، بل على مسافة ٢٠ كم إلى الجنوب من دمشق ، وعلى ارتفاع ٨٣٠ م ، فوق هضبة يارلثة عند قدم جبل الشيخ . هذه القرية ، التي تبلغ مساحتها ثلاثة هكتارات والتي نُقِب فيها على مساحة ١٥٠٠ م<sup>٢</sup> عرفت ثلاث مراحل ، اثنتان منها ، الأولى والثانية ، معيتان

(٥٥) دورغان (Dornemann 1969) ستر التل الرئيسي . ارتفاعه ٢٥ م ، وهو لا يمثل إلا جزءاً من الموقع ما قبل التاريخي الذي هو أوسع بكثير .

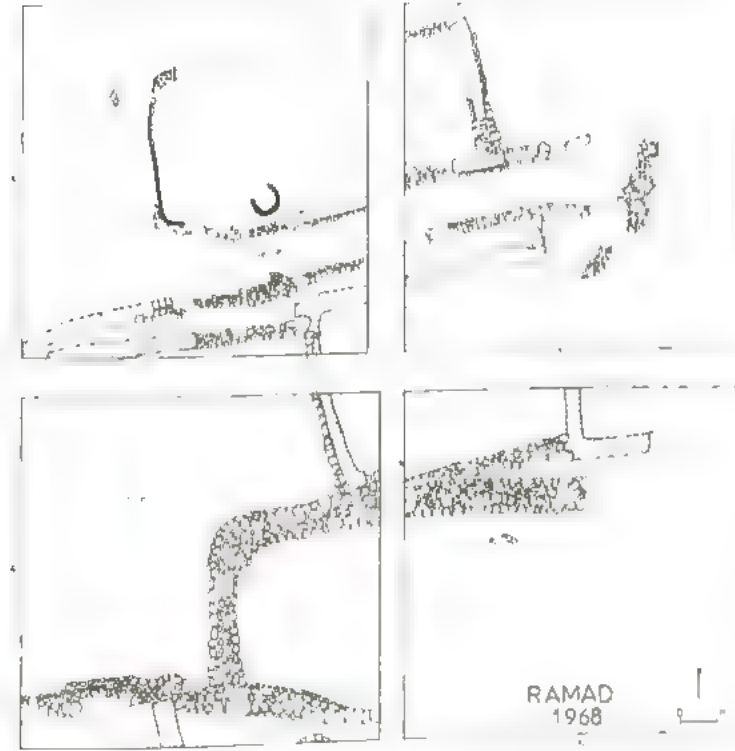
(٥٦) انظر Aurenche 1977 ، ص ٤٠ .

(٥٧) Contenson 1976 b : كربون ١٤ : ٦٢٠٠ ق م للغريفة المرحلة الثانية .

(٥٨) Contenson 1975 ، ص ١٨

(٥٩) Contenson 1967, 1969, 1974

محدثاً<sup>(٦٠)</sup>. تحتلّان قليلاً في المعدات<sup>(٦١)</sup> وكثيراً في العمارة. في المستوى الأول، وهو قاعدة التلّ ولم يعثر عليه في كل مكان. مارّات المساكن أكوأحاً بيضوية نصف - مدفونة، طول قطرها ٣ - ٤ أمتار، حائطها مطلي باللبن، وأرضياتها من الكلس أو اللبن ومبلطة. «أفران في شكل كؤّة»، «صوامع في شكل أحواض طول قطرها ١,٨٠ م، مزودة بمسند عند الفوهة وربما بقنطرة» هي التديرات الأخرى، خارج الأكوأح<sup>(٦٢)</sup>.



الرسم ١٥ - رايّة رماد المرحلة الثانية (حسب كوتنسون)

(٦٠) كربون ١٤ : المستوى الأول : ٦٢٥٠ - ٦١٤٠ ق م : المستوى الثاني : ٥٩٧٠ - ٥٩٥٠ ق م. Contenson et Van Liere 1966.

(٦١) إبلاغ شخصي من M. - C. Cauvin الذي يدرس الصناعة

(٦٢) Contenson 1967، ص ١٩

المستوى الثاني، مع آنية من الكلس، الذي يمتد على كل السطح موضوع التقيب، يضم نموذجين من العمائر: بيوت كبيرة مستطيلة مع جدران يبلغ سمكها ٠,٩٠ م إلى ١ م وأساسات من الحجارة وجدران من الآجرات النيفة المقلوبة، لكن بدون أرضيات مطلية، وبيوت أصغر مع جدران أنحل (حوالي ٤٠ سم) من الحجارة أو الآجر النقي ومع أرضية طليت بالكلس أو الغضار<sup>(٦٣)</sup>. هذه الغرف المستطيلة يستند بعضها إلى بعض أو هي في صفّ على امتداد الأزقة أو حول باحات (الرسم ١٥).

ير سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية، في سهل البقاع العالي، تبدو قاعدة اللبوة اللآفخارية<sup>(٦٤)</sup> معاصرة لرماد المرحلة الثانية، حوالي ٦٠٠٠ ق م، ومنها الآنية الكلسية نفسها. لم تعط رايّات، لكن بيتاً مستطيلاً أرضيته مطلية بالكلس يحضر بعدها مباشرة.

بالمقابل، على الساحل السوري، المستوى الأدنى، أي الخامس C، في رأس شمرة، الذي تأشّن نحو سنة ٦٢٠٠ ق م<sup>(٦٥)</sup>، فيه رايّات مستطيلة متعددة الخلالا، تحدها جدران حجرية مزدوجة (بحاطين أو واجهتين) عرضها من ٥٠ إلى ٧٠ سم. لم تظهر فيه أرضيات كلسية ولن تظهر في رأس شمرة إلا خلال الألف السادس، في المرحلة الخامسة (A).

## فلسطين

تقع أبو غوش فوق جبال منطقة القدس، على ارتفاع ٧٠٠ م. هذا الموقع اللآفخاري، الذي تبلغ مساحته ٢٢٠٠٠ والذي سبره بيرو<sup>(٦٦)</sup> ثم نقّب فيه على مساحة ٣٤٠ م ٢٠٠ دولفوس و لوشفاليه<sup>(٦٧)</sup>، أعطى أربع وحدات من مساكن مستطيلة (قائمة الزاوية) لها جدران من الحجارة وأرضيات مطلية بالكلس<sup>(٦٨)</sup>. البيت الأفضل حفظاً يبلغ، في حالته الأخيرة، ٨ م x ٨ م. الأرضيات المطلية، المبسوطة فوق لبشات من

(٦٣) Contenson 1969، ص ٢٨ - ٢٩

(٦٤) Kirkbride 1969. متوسّط ثلاثة تواريخ بالكربون ١٤ مستوى القاعدة هو ٥٩٥٠ ق م (المرجع المذكور، ص ٥٠).

(٦٥) Contenson 1977. كربون ١٤ : ٦٤١٠ و ٦١٩٠ ق م. نهاية المرحلة ٥٩٥٠ ق م.

(٦٦) Perrot 1952

(٦٧) Dollfus et Lechevallier 1969

(٦٨) عن طبيعة هذه المادة بشكل دقيق، انظر تحليلات بالغة وآخرين (Balfet et al., 1969) المستندة إلى وثائق تل الرماد.



الحجارة ، أعيد عملها مراراً . سماكة الجدران من ٥٠ م إلى ١٠ م ، فالجدران الأسماك ذات واجهتين مع حشوة من الحجارة الصغيرة بينهما .

يوجد صناعة تل الرماد من جديد في الجليل الأعلى غربي بحيرة الحولة ، في يسمون<sup>(٦٩)</sup> ، وهو موقع مساحته ١٢ هكتار ، حزر فيه لوشعالييه ، المقب على ٨٠ م ، مسكناً مستطيلاً جدرانته من الأحجار ، مُشكلاً من غرفة كبيرة ، ٥ م ، ٤ م ، أرضيتها مطلية بالكلس مع آثار من الصباغ الأحمر . عمودان في الوسط كانا يسندان السقف . يوجد موقد معتبر في الداخل قرب المدخل . هذه الغرفة تفتح في الغرب على غرفة دخول ، ٤ م x ٢,٢٠ م ، أرضيتها ، وهي في مستوى أدنى ، مبلطة ، هنا عُثر على جمجمتين مقولبتين .

أخيراً ، إن صناعة تل الرماد أيضاً ، أي صناعة النيوليتي ماقبل الفخار B الحديث ، هي التي نجد في مستويي الأساس ، الرابع والثالث ، من تل إيلي أو خربة الشيخ علي<sup>(٧٠)</sup> ، الواقع على انحصار ١٩٠ م تحت مستوى سطح البحر ، على صفة بحيرة طبريا . نَقِب في هذا الموقع بروستيتز على مساحة ٢٣٠٠ م . وما حُزر في المستوى الرابع الأدنى ، بيوت مستديرة على أساسات من حصي ، أما الرابطة المستقيمة الخط (جدار واحد) فلا تظهر إلا في المستوى الثالث . إذا لم يكن ثمة خطأ حول نسب المعدات ، يجب القبول بأن تل علي ، رغم وقوعه في المنطقة شبه الجافة ، ينطلق مثل رماد المرحلة الأولى مع بيوت مستديرة عادية في أواخر الألف السابع ، في حين أن المنحطة كانت قد بسطت على مقربة من ها ، في الحقبة السابقة ، البنى المستطيلة المعقدة التي نعرفها .

على أي حال ، وأكثر أيضاً من التنوع الريازي الذي يلمح منذ الحقبة السابقة ، كانت رماد المرحلة الأولى تدعونا شكلاً وقطعاً إلى أكبر حيطة في مضمار التأويل الكرونولوجي والثقافي لخططات المساكن ، إذ أن أكوخاً مستديرة تسم فيها أيضاً بداية الإقامة ، بل وبدون أن تكون ثمرة إكراهات بيئية كما في أشود دمشق أو الغريفة . إذا قلنا ، وراء يبرو بأنه في هذه النهاية للألف الثامن شرعت أقوام تتحرك في فلسطين ، فليس أمراً عجيماً أن تبدأ إقامات جديدة بمرحلة بيوت مستديرة . تلك ظاهرة مشهودة على نحو متكرر في الشرق الأدنى ماقبل التاريخي بل والتاريخي ، فالاستقرار الحضري ليس هنا في

(٦٩) Ferembach et Lechevallier 1973 ; Lechevallier et Perrot 1973 .

(٧٠) • النص العرسي اعتمد الاسم الأول Tell Eli ، وذكر في هذه الحاشية الاسم الثاني «خربة الشيخ علي» ، وأحال ها على Prausnitz 1970 .

يوم من الأيام واقعة كآبة ونهائية . المواقع القروية التي ينقّب فيها علماء ماقبل التاريخ إن هي إلا الهامش الرئي ، لأنه مثبت في الأرض ، لقاع من «سكان»<sup>(٧١)</sup> يبقى فيه النقل كبيراً ؛ وهؤلاء «الرُحَّل»<sup>(٧٢)</sup> ، كما هو معلوم ، قَتَمَا يتركون أثرًا<sup>(٧٣)</sup> قبل أن يستقروا بدورهم . والحال ، كلما جاء قوم ، كان بالأسس منتقلاً ، إلى الإقامة وتأسيس قرية ، رأينا يترع إلى أن يعيش من جديد لحسابه الخاص التاريخ العمراني للتطويعين الأوائل ، أي إلى مداواة جهله الطبيعي لتقنيات الرياسة بالدجوء إلى الحفرة وإلى الكوخ الدائري ، الذي قبل عنه كثيراً إنه مشتق من الخيمة . تلك ستكون الحال في رماد الثالثة في مطلع الألف السادس ، حين سيلجأ قادمون جدد يحملون خزفيات ملعمة إلى حفر حفرهم في مستويات المرحلة الثانية . وتلك ستكون الحال بشكل أوضح أيضاً ، في نهاية الألف السادس وفي الألف الخامس حين ستحلّ في فلسطين من جديد ، بعد نهاية «الانقطاع» ، أقوام جاءت هنا أيضاً من مكان آخر<sup>(٧٤)</sup> ، بل وأيضاً في الألف الرابع مع حضارة يبر السبع الذي شدّد يبرو على أصلها البدوي . وفي كل مكان<sup>(٧٥)</sup> ، بعد زمن مرجح للتكيف مع شروط الحياة الجديدة ، يعيد القرويون الجدد وبسرعة كبيرة اختراع المساكن المقسومة ذات الجدران المستقيمة الخط التي هي أكثر ملائمة لحاجاتهم . نفهم بالتالي أن تكون بعض المواقع كالرماد وتل علي وربما تل الفرح<sup>(٧٦)</sup> نحو سنة ٦٢٠٠ قد استطاعت الانتقال عبر هذه المرحلة المدخلية المتقضية التي هي السكن بالحفر إلى حياة حضرية جديدة . تل علي لا ينتج إذاً عن محض انتقال لأقوام حديثوا الإقامة في المنحطة المجاورة ، بل هو ينتمي إلى ما يمكن أن نسميه «أفق الجزء» ، أي سبقته ، بالفرض ، شريحة متفاوتة الطول من حياة متنقلة هي تحليل التقهقر الظاهر في ميدان المساكن .

• population . - لنذكر ان المصطلح الفرنسي يأتي من اللاتينية بمعنى peuple ، شعب ، قوم ، وأنه (بخلاف «سكان» العربية) اسم مفرد وله جمع ، وأنه يستخدم أيضاً للحيوانات والنباتات ولكل مجموعة يتعامل معها علم الإحصاء . المترجم .

• (Nomades) . - لنذكر ان الأصل اليوناني = رحالة . نص المصطلح بالفرد . شارد ، بلا إقامة ثابتة ، وحده مجهول . وبالجمع بدو ، رُحَّل ، غير حضريين . وهو الأشهر . المترجم .

(٧١) انظر 1976 Hole

(٧٢) هكذا في فلسطين الداخلية ، المنحطة ٢ ب ، شعر الجولان ، أريحا النيوليتي السابق للفخار A ، وعلى الساحل الزريعة المرحلة الخامسة ، بطشي ، جيفا الفرسان ، نيزانيم .

(٧٣) في المنحطة ٢ ب ، و ٢ أ ، أريحا النيوليتي السابق للفخار B ، بطشي العليا ، الزريعة .

(٧٤) بالنسبة لتل فرح ، انظر أعلاه ، هذا الفصل ، الحاشية ٢٦ .

رأينا مع ذلك أن فلسطين والمناطق المتاخمة مباشرة ، بالنسبة للأمر الجوهري ، إنما تملك في النيوليتي السابق للفخار B الحديث (أو سرعان ما تبتنى) المساكن المستطيلة ذات الأرضيات الكلسية والموروثة من المرحلة السابقة . كما على الفرات ، تستعمل الآن في رماد الثانية الآجرة النيقة المقولية ؛ في أماكن أخرى (أبو غوش ، يسمون) لا يذكر المنقبون سوى جدران من الحجارة<sup>(٧٥)</sup> . المعطيات أقل عن تنظيم القرى العام ، فيما عدا الرماد نفسها حيث يحصل تجمع العناصر السكنية ليس فقط حول «باحات» ، بل على طول «شوارع» ، كما على الفرات في أبو هريرة . يمكن اعتبار «الشوارع» ، و«القنوات» التي لحظناها سابقاً في بقرص ، تجليات لدرجة عليا في التنظيم القروي<sup>(٧٦)</sup> . غير أن هذه الوثائق بحاجة إلى تثبيت بتقنيات على نطاق أكبر .

### نتائج عن التطور المعماري

على الصعيد التقني ، أي في فن البناء ، سلطنا إذا الضوء ، بين سنة ١٠٠٠٠ وسنة ٦٠٠٠ ق م ، على تقدّم دائم مع أوقاته القوية وأحياناً رجعاته إلى الوراء . الحفرة النطوفية العادية ، المتدبّرة كبيت بعون قوي من الأخشاب ، تخدم أيضاً كإسناد وك «قالب» لأوائل «الجدران» المدوّرة والتي ماتزال مصنوعة بأحجار جافة . لا «بعقرون» حقاً إلا في النيوليتي السابق للفخار A (أو ما يوافقه في سورية) حين يظهر الملاط ، مصحوباً في كثير من الأحيان بمواد عولجت مسبقاً . الجدار المستقيم الخط بوصفه عَصراً داخلياً بادئ ذي بدء في البيت المستدير ، ثم خارجياً ، حين يحصل الانتقال إلى المخطط المستطيل (القائم الزوايا) ، ينضج أولاً على الفرات بين ٨٠٠٠ و ٧٦٠٠ ق م . بعضه يُفسح مجال الممكن في النيوليتي السابق للفخار B لمخططات سكنية أصيلة أكثر فأكثر ومعقدة أكثر فأكثر ، تستجيب على الأرجح لنماذج جديدة من التجمعات العائلية يبيّن مثال البيت السادسة رغم أنف كل شيء إنه كان بإمكانها أن تكون موجودة - مسبقاً قبل هذه الطريقة الريازية في تجسيدها على الأرض . علم تقني وحاجة اجتماعية يظهران هنا مربوطين بعلاقة جدلية تفجر كلاهما على الآخر .

من جهة أخرى ، نقدم الفرضية التي ترى أن «العودات» المتكررة والمثبتة في نماذج السكن بالحفر ، القديمة العتيقة ، قد لا تكون في بعض الحالات إلا تجليات لنوع من «تجربة

مراجعة» ، شبه الزامية ، حين نجيء اقوام طال ترحلها لتستقر بدورها وتتحضر حتى إذا كانت تحمل بالنسبة للباقي جميع العناصر الثقافية التي أنفجحت في القرى الحضرية التي سقتها .

الملاحظة الثانية العامة هي نمو حجم القرى الذي يترجم تمركزاً ديموغرافياً متنامياً . رغم اضطرابنا فيما يتعلق بهذه القطعة إلى الاكتفاء بوثائق نادرة بعض الشيء ، نظراً بنقص عدد التنقيبات الواسعة ، تبدي لنا أن حقبين اثنتين يمكن أن تمثلتا «عقبات» ذات دلالة في هذا النمو : الأولى بين ٨٠٠٠ و ٧٦٠٠ ق م ، حين تبلغ القرى ، التي لم تكن في النطوفي تتجاوز ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ م ، ٢ - ٣ هكتار (أريحا النيوليتي السابق لفخار A ، مريبط الثالثة ، الشيخ حسن) ؛ والثانية في نهاية الألف السابع ، حين يمكن أن تبلغ عشرة هكتارات (أبو هريرة ، يسمون ؟) . هذا الفصل الأخير يرافقه ، كما رأينا ، تغيّر عام في أماكن الانغراس ، بل أحياناً على مسافة قريبة ، بحيث أن فرضية تقول بتغيّر المنطقة الأيكولوجية بين الأقوام الحضرية ليس بإمكانها الإصحاح بشكل تام عن الذي حصل .

تلك للوقت الراهن وقائع خام ، مدركة في تطور القرى نفسها بوصفها تجمعات حضرية مبنية . ومن السابق لأوانه أن نؤوّلها قبل تحليل نمط حياة سكانها وفي المقام الأول الموارد الغذائية المتوفرة لهم وممارستهم اليومية للبيئة المحيطة . وذلك هو «المتحوّل» الجديد الذي سنسأله الآن .

(٧٥) قد لا تكون سوى قواعد جدران مبنية بمواد أخرى .

(٧٦) انظر لاحقاً ، نهاية الفصل السادس .

## الفصل الخامس

### إنتاج العيش

أنتاج العيش استراتيجية جديدة ستتيح للانسان عن طريق زراعة الأرض وتربية الحيوان ، التحكم بموارده الغذائية . هذا سيتعين ، في الميدان النباتي ، بفعل زرع الأنواع الغذائية في أماكن مختارة حيث ستمرر اصطناعياً ، وتسهيل نموها شهيته وصيانه التربة ، وحصدتها أخيراً عند نضجها ، بكمية قابلة للتنبؤ إلى هذا الحد أو ذاك ومرددة ، ما لم يقع طارئ جوي . كذلك ، في الميدان الحيواني ، ستكون القضية تحويل الحيوان «الوحشي» أو «البري» الذي يفلت بحكم التعريف من رقابة الانسان ولا يمكن الحصول عليه إلا بمطاردة مشكوك فيها إلى هذا الحد أو ذاك (الصيد) ، إلى احتياطي غذائي متوفر على الدوام ، وذلك بفضل سيطرة على سلوكه وتحكم بإعادة إنتاجه أي تناسله وتكاثره .

ذلك هو المبدأ العام لهذه الاستراتيجية ، التي يقال لها أيضاً «تأهيل» أو «تدجين» ، لأنها تنتهي إلى أنواع نباتية وحيوانية «أهلية» أو «داجنة» . بالفعل إن نتيجة مباشرة لهذه المعالجة ستكون خلق أنواع جديدة ، معدلة مورفولوجياً نسبة إلى أجدادها البرية ، وبالتالي ، حين يجمع علم الآثار بقاياها ، فهو يتعرف عليها بسهولة . هذه التغيرات تنجم عن الإخلال الذي يحمله الانسان إلى شروط التناسل الطبيعية بالاصطعاء ، الواعي أو غير الواعي ، للأفراد المنحيزين<sup>(١)</sup> . الرأسمال التوريثي يعدل بإعطاء الخصائص «المتراحة» ، أي بالضغط تلك التي تمثل معوقاً لبقاء النوع أو تولده الطبيعي لكنها في صالح الانسان ويصطفها الانسان . هكذا بالنسبة للحيوب ، إن صلابة الراشة التي تبقى الحب على

(١) Zeuner 1963



السنبلة التي بلغت النضج هي سمة متراجعة تعيق التناثر والانبثاق التلقائي للنوع بينما هشاشة الراشة تسهلها<sup>(٢)</sup>، لكن تلك السنابل هي التي سيجدها الإنسان القاطف ليحصدها وحدها إذا كان ينتظر نضج الحصاد وهي التي ستكون إذا بذاره المصطفى من غير إرادة حين سيبدأ أن يزرع<sup>(٣)</sup>.

كذلك فإن سلوكه العفوي تجاه أنواع حيوانية خطيرة، كالبقر الوحشي مثلاً، سيكون بادئ ذي بدء السعي إلى السيطرة على الأفراد الأصغر حجماً والأقل تسليحاً، أي أولئك الذين هم، داخل الاصطفاء الطبيعي، الأقل قدرة على تأمين بقائهم. من هنا انخفاضات القائمة (الحجم العام وطول القرون) التي تسجل في الأنواع الأهلية المشتقة من الأنواع السابعة عن طريق تدلات موجهة بصورة غير واعية<sup>(٤)</sup>.

إلا أن هذه التغيرات المورفولوجية، التي تسمح بتعيين وضعية «الأهلي» أو «الداجن» للبقايا المكتشفة في التقياسات بلا خطأ، لم تتحقق بين عشية وصحائها. بالحقيقة لم تكن الحيوانات الأهلية الأولى تتميز كثيراً عن أجدادها الوحشية: أمكن لتحويل الأنواع أن يستغرق زمناً متفاوت الطول، علماً بأن المتخصصين في علم الحيوانات الأثري يحملون آراء مختلفة حول مدته. هذا يقتضي على أي حال استخدام معايير أخرى غير المعايير المورفولوجية لتحديد وضعيتها الحقيقية. المنهج الرئيسي هنا هو الدراسة الإحصائية لبيئة المجموعات المقتولة المحددة حسب العمر والجنس، بغية الكشف، في «اختلالات» توزع الطبقات المختلفة، عن وجود وطبيعة الخيارات التي أجراها الأساس، والتي لا يمكن أن تسمح لها إلا بتربية حيوان ورعايته<sup>(٥)</sup>.

كذلك في علم النبات الأثري، بعدما اعتقدوا ولمدة طويلة أن التبدلات التابعة للممارسات الزراعية الأولى كانت سريعة تمتد إلى «بضعة أجيال» من الحبوب الأكثر، ظهرت الفكرة التي فحواها أن هذه التحولات ربما كانت أطول<sup>(٦)</sup>.

(٢) Zohary 1969

(٣) Flannery 1963, 1969

(٤) هذه التبدلات قد يكون أصلها أيضاً تصرفات بشرية من نوع آخر لكنها فاعلة في الاتجاه نفسه. مثلاً آثار تغيير اصطفاي للطعام الغذائي على مورفولوجية الحيوانات الأولى التي أسرها الإنسان.

(٥) Ducos 1968

(٦) هكذا فقد بين هيك أن الشعير في ألبانيا طاماً ررع بدون أن يفقد خصائصه المورفولوجية البرية. انظر Helback 1966

بتعبير آخر من الضروري قبل الكلام عن نبات أو حيوان «أهلي» أن نغير معنيين لهذا المصطلح، أحدهما ينتسب لتسمية الأصناف في العلوم الطبيعية ويستند إلى الخواص المورفولوجية المحددة التي تعرف الأنواع الخاصة، والآخر «إثنولوجي» وحش، ليس مرجعه سوى نموذج ما من السلوك البشري حيال النبات والحيوان، وليس لوقوع التغيرات المورفولوجية أو عدم وقوعها بعد شأن كبير بالنسبة له، في الحاصل<sup>(٧)</sup>. هذا المعنى هو الذي بهننا هنا، بقدر ما أننا نبحث عن أصول الشعور الشداسي الصف أو البقر القصير القرن، اللذين ليس ظهورهما المزيج بحد ذاته إلا نتيجة معالجات طويلة بلا آثار مباشرة.

أخيراً، بعد وضعنا التشديد على المعنى الإثنولوجي للتأهيل، يجدر بنا أيضاً توضيح محتواه. إذ حتى إذا اقتصرنا على السلوك البشري وعلى «العلاقة المعيشة» التي تقوم مع الحيوان والنبات، فالترية والزراعة لم تظهرها دفعة واحدة وبدون مراحل متوسطة. إن بعض العبارات الخفيفة مثل «protoelevage»، تمهيد تربية أو «protoagriculture»، تبشير زراعة (لوروا - غورهان)، بل «vegeculture»، ثقافة نبات (بريدود)، تشهد على التطور الشديد التدرج للاستراتيجيات الغذائية نفسها وعلى صعوبة أن نقبض هنا بوضوح ودقة على بدايات. أمكن مؤخراً<sup>(٨)</sup> التشكيك في فكرة وجود بؤرة للتأهيل شرق - أدنية، وذلك باعتماد الفكرة القائلة إن التأهيل هو البشط أو التطور الطبيعي، على النطاق العلمي، لشتى أشكال «النامدة»، «commensalisme» (أو المزاوجة husbandry)، حيث أن صوناً ما موارد حيوانية ونباتية إنما يؤمنه الإنسان إرادياً وتمتد جذوره إلى الوراثة في العصور الباليوليتية بل وحتى مملكة الحيوان نفسها. لكن التأكيد على استمرارية عملية مسارية لايفي الانتباه إلى بعض «العتبات» وإلى الجودة أو البذعة التي تمثّلها هذه العتبات. إنتاج العيش والتأهيل بالمعنى الحقيقي الخاص بؤشان بالضبط إلى إحدى هذه العتبات، التي يصح أن نعرفها جيداً قبل البحث عن هذا الذي كان تمهيداً لها أو صورة أولية عنها.

سنعتمد بالنسبة لتربية الحيوان على تعريف دوكو: «يوجد تأهيل... حين تُدمج حيوانات حيّة في التنظيم الاجتماعي - الاقتصادي لزمرة بشرية كموضوعات - أغراض، بمعنى أنها، وهي حيّة، موضوعات للملك وتوريث وتبادل الخ... إن العلاقة إنسان - حيوان لم تعد من «سكان» إلى «سكان» (من «قوم» إلى «قوم»)، من «جماعة» إلى «جماعة»، بل تتجه إلى أن تكون علاقة من فرد إلى فرد. ينجم عن ذلك أن الإنسان في

(٧) انظر Jarman 1972، ص ١٩. سنرى هنا أن نتائج المربط تثبت هذه الفطرية.

(٨) Higgs et Jarman 1972

استثماره للجماعة الداجنة ، يمكن أن يمارس . . . خياراً تاماً حين المطلوب «طرح» حيوان من أجل استهلاكه مثلاً . . . وهذا الخيار تحديداً هو الأمر الذي تريد الطريقة الإحصائية جلاءه»<sup>(٩)</sup> . وكما يرى القارئ ، هذا يقع في درجة أخرى من التطور هي غير الأشكال الألف للتعایش (أو الطفيلية المتبادلة) بين الإنسان والحيوان الوحشي الذي يقدم لنا علم ما قبل التاريخ وعلم الأنتولوجيا أمثلة شتى عنه .

في ميدان النبات ، كان بريدوود<sup>(١٠)</sup> قد انطلق من مسلمة أنه توجد ، قبل تمام المقالة الزراعية بالمعنى الحقيقي والحصري ، مراحل متوسطة سماها «ثقافة - سات» أو «بدايات زراعة ، incipient cultivation»<sup>(١١)</sup> ، تبعاً لوجود أو عدم وجود «حقول» مزروعة .

الواقع أن من الممكن التساؤل ، هنا أيضاً ، أين تبدأ الزراعة الحقيقية ، مادام هناك ممارسات ممكنة (عزق ، سقاية ، إهادة الأعشاب ، الخ . . .) ، حتى بدون أن يمثل في عدادها فعل الزرع (planter) المركزي ، من أجل تسهيل تكاثر ونمو أنواع هامة للغذاء (أو لغيره) في مكان مختار . وللأسف قد تبقى هذه التمييزات نظرية جداً لعدم وجود وسائل منهجية من أجل تحديد الأساليب المستخدمة ، خاصة إذا كان الفعل الزراعي ، كما رأينا ، لا يستتبع ، إلا بعد أجل متفاوت الطول ، النتائج المورفولوجية التي تسمح بتحديد هوية النبات المعنى تحديداً مؤكداً .

إذا نحن متفقون على طرح «فعل الزرع» جانباً ، لأنه الآن غير قابل للبرهنة عليه في المراحل الأقدم التي تعيننا<sup>(١٢)</sup> ، ولنبدأ بالزراعة «ثقافة الأرض» كلما ظهر تركيز اصطناعي ومحدد طبوغرافياً لنباتات مستمرة . هذا التوقع النباتي الذي مرده للإنسان يعرف الحقل ، مقابل التوزيع المتفتشي لنوع غير متحكم به الذي يفرض على حالة القطف العادية استراتيجية جمع متناثرة ومتنقلة بأن معاً<sup>(١٣)</sup> . هذا التعريف ، وإن كان ناقصاً ، يسمح

(٩) Ducos 1976 ، ص ١٤٨

(١٠) Braidwood et Braidwood 1953

• نذكر بأن Culture = ثقافة + زراعة ، agriculture ، الزراعة ، زراعة الأرض ، ثقافة الأرض ، تنقيها . planter : زرع ، غرس ، بذر . المترجم

(١١) إلا أن ذلك بطبيعة الحال حين نكون بعض النباتات مشتة بشواهد علم الآثار خارج الحيز الطبيعي لتطورها .

(١٢) انظر أيضاً ، الفصل الثاني ، الصفحة الأخيرة .

على الأقل بأن ندخل في النقاش انضباطات علمية كعلم الباليولوجيا (دراسة غبار الطلع) الذي لا يمكن كما هو معلوم من الصعود بالنسبة للحبوب حتى النوع لكنه بالمقابل يستطيع إظهار تركيزات اصطناعية للعوامل الطلعية . من جهة أخرى إن «حد البداية» المقترح يمكن أن يتقاطع مع تحول أساسي لتصوّر المجال المحيط بالقرية ، إذ أن فكرة «الأقليم» (إقليم الصيد أو القطف) العامضة والتنفسية سيعقبها الآن الاضطلاع والبهوض ببعض المجالات المختارة ، التي يقتضيها الشغل النوعي الموظف فيها ، وأياً تكن في البداية طبيعة هذا الشغل الدقيقة . منذئذ يمكن أن تدخل «قطع» الأرض التي يحدد هذا الكدح محيطها ، شأنها شأن الحيوان الداجن حسب دوكو ، يمكن أن تدخل في «التنظيم الاجتماعي - الاقتصادي» للجماعة في شكل موضوع يمكن للتمكّن والنقل الوراثي .

هذه التعريفات القليلة والبالغة العمومية ستتيح لنا تناول المسألة الجوهرية في هذا الفصل : متى تظهر زراعة الأرض وتربية الحيوان في قرى بلاد الشام ؟ لكن يجدر أيضاً أن نوضح كذلك أن الأصول الحقيقية لهذين الاتجاهين في إنتاج القوت لا يمكن إدراكها بالتساوي في هذا الإطار القروي الذي نبحث عنها فيه . فزراعة الأرض هي على سبيل التفضيل نشاط حضريين مستقرين . أجل توجد زراعات متنقلة حيث القوم لا يحيط رحاله في مكان من الأماكن إلا وقت الررع والحصد ، لكن الزراعة ، وبخاصة زراعة الحبوب ، لاتأخذ تمام جدواها وفعاليتها إلا بفضل إمكانات التخزين التي يسمح بها الحفظ الجيد للحبب الناضج . والحال ، يفترض هذا التخزين من فصل تلو آخر ثبات السكن . وبالتالي فالقرى المستقرة ما قبل الزراعية تشكل ، مبدئياً ، بيئة ملائمة جداً لنشوء الزراعة . على العكس ، إن تأهيل الحيوانات ، لاسيما حين يتصل بالأنواع التي هي جمعية - قطيعية ومتنقلة - مهاجرة معاً بأن (البقرات ، المعزيات ، الخ) والتي تؤلف قوام موارد اللحوم في الشرق الأدنى ، لا يمكن أن ينشئه الإنسان تدريجياً إلا إذا ارتضى اللحاق بالقطيع أولاً قبل قيادته<sup>(١٤)</sup> . تدجين الحيوانات «متحرك» بادئ الأمر<sup>(١٥)</sup> وهو من جهة أخرى يبقى كذلك طوعاً (الشعوب الرعاة) . حين يكون الحضريون هم أنفسهم من مربّي الحيوان ، فهذا معناه أن سيطرتهم على الأنواع المرعية بلغت مرحلة متقدمة تمكّن من إبقائها في جوار القرية . وبالتالي فإن المراحل الأكثر ابتدائية قد تستعصي على معرفتنا .

(١٣) Leroi - Gourhan 1973 ص ٩٦ - ٩٧

(١٤) بدون شك ما عدا بالنسبة لأنواع غير «بدوية» (غير رعوية) كالخنزير pore .

## مسألة الغزال في العصر النطوفي

وأيناً<sup>(١٥)</sup> أن اقتصاد النطوفيين كان يرمي قبل كل شيء إلى تنويع الموارد الغذائية البرية<sup>(١٦)</sup>. لا يوجد إذاً أي مؤشر على زراعة في أفق قراهم. كذلك لا يوجد مؤشر على تربية، بالمعنى الذي عرفنا به هذه الكلمة لتونا، علماً بأن العلاقة الوثيقة التي تتظاهر هنا بين الإنسان ونوع خاص، هو الغزال، قد أثارت تأويلات مختلفة. فلقد أسفرت جميع المواقع النطوفية<sup>(١٧)</sup>، سواء كانت بكهوف أو بقرى، عن لوائح بالأصناف المقتولة، وتنوعها يعكس تنوع البيئة، لكن للغزال غلبة قوية جداً بين اللبونات، مهما تكن البيئة الخاصة المحيطة. في جبل الكرمل، تمثل هذه الغلبة في العصر النطوفي: ٩٧,٣٪ من البقايا في إلواد<sup>(١٨)</sup>، ٤٨,٢٪ في كباره<sup>(١٩)</sup>، ٨٥,٣٪ في راكميت<sup>(٢٠)</sup>، ٨٣,٣٪ في وادي الفلاح<sup>(٢١)</sup>. في هانيونيم، حيث عُثر بشكل خاص على الحيوان الصغير (زواحف، طيور)، يهيمن الغزال أيضاً بين آكلات العشب المقنوصة<sup>(٢٢)</sup>. على نهر الأردن تصل نسبته إلى ٤٤,٦٪ من البقايا في عين ملاحه<sup>(٢٣)</sup>. وعلى الفرات أخيراً تبلغ ٦٥,٣٪ في أبو هريرة<sup>(٢٤)</sup> وتبدو أيضاً مهيمنة بقوة في قاعدة المريط<sup>(٢٥)</sup>.

لسنا إذاً أمام ظاهرة خاصة بالقرى، بل أمام ظاهرة تطبع مجموع الثقافة. من جهة أخرى هذا الإيثار للغزال موجود منذ الكباري ويتواصل في النيوليتي السابق للفخار

(١٥) الفصل الثاني.

(١٦) إنه الاقتصاد ذو «الطيف العريض» عند Flannery 1969.

(١٧) باستثناء البيضاء وحدها حيث الغلبة تغلب منذ النطوفي وهي موضوع لبحثي ثقافي، ما، حسب Hecker 1975.

(١٨) حسب يترس في Garrod et Bates 1937.

(١٩) Saxon 1974، ص ٤١.

(٢٠) Vita - Finzi et Higgs 1970.

(٢١) Noy, Legge et Higgs 1973، ص ٩٠.

(٢٢) Bar Yosef et Tchernov 1966.

(٢٣) Ducos 1968، ص ٧٣.

(٢٤) ليغ في Moore, Hillman et Legge ٧٥، ص ٧٥.

(٢٥) الحيوان النطوفي لم يدرس بعد، لكن الغزال يهيمن مباشرة بعد ذلك (المرحلة الثانية أو المستويات ٨ - ١ عند فاك لور).

A<sup>(٢٦)</sup>. في وادي الفلاح، يؤولها ليغ<sup>(٢٧)</sup> على أنها ظاهرة تأهيل بموجب المعيار نفسه الذي يعتبره بوكينس حاسماً بالنسبة لخروف زاوي شيمي شانيدار في الألف العاشر وأغنام - ماعز البيضاء (وهو نسبة عالية (٤٥,٣٪) من الصغار ذوات المشاشة التي لم تلتحم بعد. يبقى أن كيان خروف زاوي شيمي شانيدار والتأهيل المبكر بشكل عجيب الذي ربما يشهد عليه هذا الخروف بعيدان عن تحقيق الإجماع بين المتخصصين في علم الحيوان القديم، وكذلك من جهة أخرى كفاية المحك المذكور (كثرة الصغار غير الناضجين) لاستنتاج وجود تربية حقيقية<sup>(٢٨)</sup>. لا تزال فرضية صيد بفصل الغزال، تعضيلًا يعكس خياراً ثقافياً أكثر مما يستجيب لضغط بيئي<sup>(٢٩)</sup>، تبدو هي الأفضل في الحالة الراهنة لهذه المناقشات. لا ريب ثمة هنا مثال عن «مناذمة» (مزاجية) تربط برباط تعايشي ثقافة بشرية ونوعاً حيوانياً وترجم من الآن في اختلافات في مستوى منحنيات الأعمار. لكن لاشيء يقترب من تأهيل بالمعنى الحقيقي يتيح، كما رأينا، إجراء «اختيار كامل» للحيوانات التي يجب أن تقتل<sup>(٣٠)</sup>.

أخيراً إن حيواناً واحداً، بلا فائدة غذائية، يمكن أن يكون قد دُجن في العصر النطوفي، وهو الكلب. لا يوجد بعد برهان مورفولوجي، لكن يمكن أن تؤول على هذا النحو دفن كلب في وقت واحد مع رجل في عين ملاحه<sup>(٣١)</sup>.

## بدايات الزراعة في الألف الثامن

إن دراسات جامعة حديثة العهد<sup>(٣٢)</sup> قد استبعدت أيضاً، على الأقل في الحيز

(٢٦) مثلاً في أريحا (Clutton - Brock 1971) وفي وادي الفلاح (Noy, Legge et Higgs 1973، ص ٩٠).

(٢٧) المرجع نفسه، ص ٩١.

(٢٨) هذه الخاصة نفسها تلاحظ في المستوى السفلي (D) الباليوليتي في كهف شانيدار، حيث لا تؤول إلا بوضعها مؤشراً على صيد اصطفاي (هوبكنس، ذكره Bokonyi 1969، ص ٢٢٢)، كما في بارادوستي يفتح الذي درسه موري Mune.

(٢٩) Henry 1975 يتكلم بحق عن «فيلتر ثقافي» لشرح هذا التفضيل.

(٣٠) بالأحرى لمن ريادة في البالغين متوسطي العمر بين الحيوانات المقتولة شاهد أفضل على هذا الاحترار في التريبات الأولية الرابعة إلى إنتاج اللحم (Ducos 1979، ص ١٤٩).

(٣١) Perrot 1976.

(٣٢) Perrot 1968. مع ذلك، كان يؤر في سنة ١٩٦٢ يؤيد، رغم رأي زوينر، أنه من الصعب أن يستبعد بالنسبة لأريحا النيوليتي السابق للفخار A مستوى معقولاً من إنتاج القوت (Perrot 1962، ص ١٥٢).



الفلسطيني ، الذي كان معروفاً على النحو الأفضل ، كل إنتاج العيش في الألف الثامن . من جهة في الميدان الحيواني لا تتغير كثيراً لائحة الأنواع المقنوسة ، كما رأينا ، عنها في العصر النطوني . أما الفرضية التي تقدم بها كينيون<sup>(٣٣)</sup> في الماضي والقائلة بوجود الزراعة كتعليل للتركز الديموغرافي القوي في أريحا النيوليتي السابق للفخار A ، فقد نُخِيت هي أيضاً لأسباب إيكولوجية .

بالفعل إن معانيات عماء الطبيعة والاستنتاجات الإيكولوجية التي استخلصوها منها هي في أصل هذا الرفض ، أما علماء الآثار فقد ساروا وراءهم . إن مواقع النيوليتي ما قبل الفخار A تقع جميعاً داخل الحيز الطبيعي للحبوب البرية . والحال ، نعرف تجربة هارلان<sup>(٣٤)</sup> في جبال تركيا ، التي تبين أن من الممكن ، في مناطق الكثافة الطبيعية للحبوب ، حصص كيلو غرام من الحب في ساعة يندجل من الصوان ، أي ، بالنسبة لجماعة مستقرة . تأمين احتياطيها السنوي من البروتين ، من غير صعوبة باقتصاد القطف وحسب . كانت هذه التجربة فائدة بالنسبة لباحث حديث لاسيما وأنها تقدم أرقاماً وتوفر جميع ضمانات الموضوعية . فهي بالفعل تبين كيف استطاعت القرى النطونية أن تعيش وأن تزدهر في مرحلة ما قبل الزراعة . ولكن هارلان استخلص أيضاً من هذه التجربة نتيجة أكثر جسارة ، ويؤيدها كذلك معظم المؤلفين : «قد لا يكون التأهيل وقع حيث تتوفر الحبوب البرية بكثرة . ماداً يزرع المرء حباً حيث المواقع الطبيعية لا تنقل كثافة عن حقل مزروع ؟ . . .»<sup>(٣٥)</sup> . هذا «اللانفع» للزراعة حيث تكثر الحبوب البرية يجعلهم يستنتجون أنه ليس هنا أمكن أن تولد ، بل كحد أقصى في المناطق المتاخمة حيث تغيب هذه الوفرة .

فلانوي<sup>(٣٦)</sup> ينطلق بدوره من هذه النتائج ويرى تشبهاً لها في واقع أن الآثار الأولى لحبوب أهلية مورفولوجياً ومعروفة إنما تأتي من هذه المناطق المتاخمة ، ألا وهي وادي العربة (موقع البيضا) وحوزستان (علي كوش) . وتكون الزراعة في نظره محاولة إنتاج اصطناعي ، على هوامش المنطقة «المثلى» ، لحبوب لا تنقل كثافة عن تلك التي في قلب هذه المنطقة ، أي نوعاً ما الرد باستراتيجية جديدة على نقيسة في البيئة .

بنفورد<sup>(٣٧)</sup> ، إذ يلاحظ من جهته أن أقوام الصيادين - القاطنين تنزع بشكل طبيعي

(٣٣) Kenyon 1957 ، ص ٧٤

(٣٤) Harlan 1967

(٣٥) Harlan et Zohary 1966 ، ص ١٠٧٨

(٣٦) Flannery 1969 ، ص ٨٠ - ٨١

(٣٧) Binford 1968 ، ص ٣٢٨ - ٣٣٢

إلى إحكام ديموغرافيتها تبعاً للموارد المتوفرة فعلياً ، فهو يتساءل عن العامل المعكّر الذي أمكن أن يجيء ليكسر بشكل مفاجئ توازناً سابق الإقامة بين الأقوام والموارد ، إلى درجة جعلت من الضروري لإعادته ظهور معالجات جديدة للبيئة المحيطة . يجد هذا التعليل في ظاهرات المهرجات التي اضطر الحصريون النطونيون لأوائل اللجوء إليها كي يتلافوا الزيادات الديموغرافية وانكسار توازنهم . وتكون هذه الزمر المهاجرة بالمقابل عكّرت توازن الشعوب المحيطة التي كانت تستقبلهم ، والتي كانت أقل استقراراً منهم ، الأمر الذي يؤدي إلى اكتشاف تكنولوجيات جديدة أكثر إنتاجية من أجل تلافي الجماعة .

هكذا يكون تعليل أصل إنتاج العيش ، مع توقع مشابه للذي نجده عند هارلان وفلانوي : الأطراف المحيطة بمنطقة الحبوب البرية ، مسكن «مبتدئي الاستقرار» النطونيين . هذا الحيز الأخرافي ، المدعو «منطقة توتر» بسبب الحالة المأزومة التي يفترض أنه مسرحها ، لابد أن يظهر ، حسب بنفورد ، علائم آثارية جلية تدلّ على اختلافات ثقافية ناجمة عن تدخل القادمين الجدد . هنا يتوسع «الموديل» ويصير نبوءة . . . والحال ، إن مصادرة (مسلمة) غير مفقودة هي في أساس كل هذه الاستنتاجات بدءاً باستنتاج هارلان : مسلمة أن إمكان الاستغناء عن كل زراعة لتأمين العيش هو سبب كاف لكي لا توجد ، والعكس بالعكس أن ضغط نقص غذائي هو الباعث الوحيد الممكن لتعليل اختراعها . باقتضاب ، ينبغي أن يكون كل شيء قضية إحكام بين جماعة معصاة من السكان ومواردها الغذائية الممكنة . إذا كانت البيئة أفقر ، أو إذا ارداد معاة عدد الأفواه التي يحب إطعامها ، بسبب حركة هجرات وافدة (وهذا خيار بنفورد الخاص) ، عندئذ لا تعود النباتات البرية كافية وهكذا يصير الناس مزارعين . .

### معطيات المريط

بقي أن نخضع هذه الفرصيات لامتحان الوقائع . والحال ، إن النتائج التي حصنها عليها مؤخراً في المريط لم تثبت ، كما ولم تثبت المسلمة المشتركة القابعة في منبعها<sup>(٣٨)</sup> .

مع أن التحديد الذي حققه فان رينست وكاسباري<sup>(٣٩)</sup> منذ سنة ١٩٦٨ لهوية شعير وقمح برزق مورفولوجيًا في مستويات الألف الثامن موضوع تنقيبات فان لون كان

(٣٨) Cauvin J. (a) ، مصدر لاحقاً .

(٣٩) Van Zeist et Casparie 1968

لا يزال يجعل فرضية قطع مديد فرضية معقولة ، وإن كان غياب هذا القمح البري «الثلاثي» (Triticum boeoticum Thaoudar) اليوم على القرات الأوسط قد أثار مشكلات<sup>(٤٠)</sup>.

إن التنقيبات الأخيرة ، لدى بلوغها قاعدة التل النطوفية ، قد يثبت من جهة أن هذا القمح كان حاضراً منذ<sup>(٤١)</sup> ، وبالتالي أنه كان ، بشكل أكيد تقريباً ، محلياً غير مستورد : إذا فالخراط النباتية التي تخلص من التوزع الحالي لمناطق الحبوب البرية إلى اتساعها القديم يجب أن تُستحدث بحذر وحيطه ، فقد تغير التوزع خلال آلاف السنين . من جهة أخرى ، في العصر النطوفي ، المرحلة الثانية وحتى بداية المرحلة الثالثة ، مازال حضور هذه الحبوب قائماً في إطار اقتصاد غذائي «ذي طيف عريض» حيث ، إلى جانب نباتات برية شتى ، تُستثمر الطرائد الأكثر تنوعاً والموارد السمكية على نطاق واسع ، طبقاً لكل مآرباً عن الصيادين - القاطنين النطوفيين مجتمعهم . في المرحلة الثالثة B ، أي اعتباراً من حوالي سنة ٧٧٠٠ ق م ، يجري تبذل كامل في الاستراتيجيات الغذائية ذو دلالة بالغة في أهميته وسياقه .

ولقد أتاح تدخّل علم دراسة غبار الطلع ، وكثيراً ما هو غائب عن ميادين تنقيبات ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى ، أتاح لـ أوليت لوروا غورهان<sup>(٤٢)</sup> أن تكشف ازدياداً غير طبيعي في غبار طلع الحبوب يصل إلى ٨٪ ، مما يوحي بتركيز اصطناعي لهذه الحبوب في الجوار المباشر للتل . إن فكرة وجود «تمهيد زراعة» protoagriculture التي تقترحها هذه الباحثة تبدو معقولة ، لاسيما وأن الهيئة السرية مورفولوجياً لمحت المكتشف لم تعد تُعتبر مقفزة لرفض التدخّل البشري<sup>(٤٣)</sup> ، لاسيما أيضاً وأن هذه الواقعة الجديدة ، التي يراها علم

(٤٠) أمكن التساؤل ما إذا لم يكونوا يعودون بهذا القمح من حملات نائية في جبال تركيا ، حيث بنمو في ألبانيا ، وفي النهاية أمكن الطعن في ديمومة قرية المريط .

(٤١) إبلاغ شخصي من Van Zeist . يُعثر عليه أيضاً منذ قاعدة أبو هريرة النطوفية (Moore, Hillman et Legge 1975).

(٤٢) Leroi - Gourhan Arl. 1974 . [يجب عدم الخلط بين هذه الباحثة الآتية المعروفة في سورية وبين سبتها عالم ما قبل التاريخ والأنثولوجيا الشهير : أندرو لوروا - غورهان . انظر لائحة المراجع] . (الترجم) (٤٣) في الوقت نفسه أمكن لشمل الأرض أن يستل ظهور نبات وأذان الجدي ، الغائب حتى ذلك الحين ، وإن كان يمكن لهذا النبات ، في الشرق الأدنى وبخلاف أوروبا ، أن لا يكون بالضرورة مرتبطاً بنشاطات زراعية : انظر Van Zeist 1977 ، ص ٣٠ أخيراً لندكر أنه اعتباراً من المرحلة B نفسها ، نجد في المريط بصمة أقراص حجرية مثقوبة يمكن ، بدون دليل حاسم ، تأويلها على أنها أوزان عصي الحفر .

غبار الطلع ، تندرج في حملة من الاختلالات الاقتصادية تحتطها من جميع الجهات بالفعل ، لقي مجرى المرحلة الثالثة ، منذ المستويات ١٠ إلى ١٣ عند فان لون (أي في الثالثة A) ، يكتشف دوكو<sup>(٤٤)</sup> تحولاً تدريجياً في تقنيات الصيد : من قتل بالغ التنوع ، يشتمل على البقر والحمار البرين لكن مازالت تهيم فيه المجترات الصغيرة (الغزال) ، ينتقل أهل المريط إلى صيد «متخصص» ستكون الغلبة فيه وبقرة ، داخل لائحة عامة لم تتغير ، لأكبر هذه العاشبات : حمار الوحش والبقر البري . كما يبيّن دوكو بشكل جيد<sup>(٤٥)</sup> ، لسنا هنا أمام تغيير للمحيط الحيواني ، بل أمام استراتيجية مختلفة هي من صنع الصيادين أنفسهم ، استراتيجية أكثر «ربعية» من الناحية الغذائية ، مادامت توفر كمية من اللحوم أكبر بكثير وذلك بعدد من الحيوانات المقتولة لم يتغير .

من جهة أخرى ، لوحظ عند التنقيب أن عدد فقرات الأسماك ، التي تجنى بواسطة الغرغال ، يصير في العصر نفسه تافهاً بالمقارنة مع ما كان يجنى عن المراحل السابقة . إذا فصيد الأسماك ، الذي كان تكملة مرموقة في الاقتصادات النطوفية ، إن ليس يُهجر تماماً فهو بالأقل يُخفّص إلى مرتبة مورد ثانوي جداً . بالتالي مسح فعلاً أمام نواتج محتف في مجموع النشاطات الغذائية ، أي أمام تضيق أو توثيق لـ «الطيف» المعروف سابقاً بأنه عريض .

هذا التوثيق يعتر ، من جانب قروني المريط ، عن خيار دقيق أجروه داخل مواردهم الممكنة ، التي باتوا يهملون بعضها . ولكن كان هذا الخيار الجديد ، في الميدان الحيواني ، لا يفترض بأي حال التأهيل ، فلعله في ميدان النبات يمثل الخطوات الأولى للزراعة . هذا معناه أيضاً وجوب الانتباه إلى سياق هذا الظهور ، عند الرجوع إلى الفرضيات السابقة . ليس هذا التغير نتيجة إفقار أصاب البيئة ، فبالعكس تكتشف دراسة غبار الطلع اعتباراً من ٨٠٠٠ ق م بعض الازدياد في رطوبة المناخ ، الأمر الذي يعني السهب المجاور بالنجيليات وبالتالي يساعد التكاثر الطبيعي للحبوب البرية<sup>(٤٦)</sup> . وهو من جهة أخرى لا يرافق أيًا من

(٤٥) Ducos 1975, 1976 .

(٤٦) Ducos 1976 ، ص ١٥١ .

(٤٧) هذا التغير المناخي يبدأ منذ ٨٠٠٠ ق م (المرحلة الثالثة A) بانخفاض السرمقيات وصعود النجيليات ، ويشهد نحو ٧٧٠٠ ق م (الثالثة B) في الوقت نفسه مع ظهور علامات زراعة الأرض - (Leroi - Gourhan Arl. 1974) . من المفيد مقارنة هذه النتائج مع نتائج الباحثة نفسها (١٩٦٩) في زاوي شامي شانهدار على نهر الدجلة الأعلى ، حيث نجد الملاحظات نفسها : إن كون الآثار الطلعية الأولى للزراعة تتطابق هنا أيضاً ، كما في مريط الثالثة B ، مع المؤوس المصقولة الأولى (انظر أدناه) .

هذه الاختلالات الثقافية التي يفترض بنفورد أنها تشير إلى دخول زمر مهاجرة جاءت من مكان آخر. بالعكس، تشهد هذه المعطيات الأثرية كافة على التطور المتصل لزمر بشرية محمية نسبياً من المؤثرات العربية<sup>(٤٨)</sup>.

بالمقابل، يبدو وجود علاقة بين هذه التحولات والتنامي الديموغرافي لقرى الفرات أمراً مؤكداً. توحى بهذه العلاقة «عتبة» الـ ٢ إلى ٣ هكتار التي تبلغها آنذاك مساحة المريط والشيخ حسن<sup>(٤٩)</sup>. قبل محاولة استشفاف هذه العلاقة بشكل صحيح، من المناسب مجابهة نتائج الفرات هذه مع مانعهم عن فلسطين في الألف الثامن.

### معطيات أريحا

رأينا أن مواقع النيوليتي ما قبل الفخار A نادرة جداً. أندر أيضاً المواقع التي جاءت فيها أعمال علماء الطبيعيات لتوضح فعلياً نظام القرى الغذائية. إن حضور الزراعة في أريحا قد اقترح ثم استبعد على أساس استنتاجية بحثه وقبل أي تحليل للبقايا النباتية. لكن ثبت فعلاً غياب تدجين الحيوان منذ أعمال كلوتون - بروك<sup>(٥٠)</sup>، فالدراسة النباتية التي قام بها هوبف<sup>(٥١)</sup> كانت موجبة فيما يخص الزراعة. بالنسبة للحنطة، الوثائق بحقيقة القول فقيرة إلى حد كاف، إذ أن القضية هي تحديد حبتين اثنتين من القمح النشوي، «تريتيكوم ديكوكوم»، النوع المعتبر حتى الآن الشكل المزروع للقمح النشوي البري «تريتيكوم ديكوكويدس» الذي ينبت تلقائياً على ضفاف نهر الأردن. عثروا أيضاً على ست حبات من الشعير المزدوج الصف، «هورديوم ديستيشوم»، وهو نوع مدجن أيضاً. إذا فأريحا النيوليتي ما قبل الفخار A تشهد شهادة رصينة لكنها نافذة على زراعة قائمة إلى

حد كاف لتوليد أنواع جديدة<sup>(٥٢)</sup>. هذه النتائج، التي لم تُستثمر إلا قليلاً جداً بالأمر من لأنها كانت تبدو نادرة ومعزولة معاً، أصبحت الآن معززة بنتائج المريط<sup>(٥٣)</sup>.

### أسباب الزراعة

في أريحا كما في المريط، المعطيات المتوفرة عن ظهور الزراعة تتطابق رصياً مع مرحلة توسع ديموغرافي وتفتح ثقافي أيضاً، كما يتت لنا دراسة الفنون المعمارية. العلاقة مع الديموغرافيا لا تعني أنه يجب أن نرى في هذا الحدث الجواب على مسألة غذائية وحسب. من المرجح جداً أن الاستراتيجيات التقليدية كانت ستكون كافية لإطعام سكان زاد تعدادهم؛ على كل حال، ما كانوا سيتخلون عن بعضها، كصيد الأسماك في المريط. ليس الجوار المحيط، في مريط الثالثة، مستمراً استثماراً مشعباً، بل بالعكس أصبح الاستثمار اصطفاً أكثر من ذي قبل.

بالمقابل إن فلاثري<sup>(٥٤)</sup>، وقد استأنف فكرة قديمة من حدس ماركس وإنجلز قد رأى بشكل جيد أن المعضلة الجوهرية في النمو الديموغرافي للجماعة أو متحد بشري إنما تنطرح بشروط وحدود ومعدات بنى اجتماعية. إن ما يجعل أن زمر بشرية تمجر وتنشئ ابتداء من عتبة كمية ما هو قبل كل شيء مسألة تنظيم وممارسة للسلطة autorite. الزمرة تنجز تلافياً لتوترات في داخلها لا يسمح لها نضجها السوسولوجي بأن تجابهها. بالتالي، إذا كنا نرى القرى في لحظة من اللحظات تكبر في الحجم والسكان فمنا هنا فوراً تخمين قوي، قبل أي بحث آخر، بأن تكون حلول جديدة قد تم احتراعها آنذاك في ذات مستوى حياة الزمرة وتلاحمها.

لاريب كان شيء من هذا القبيل قد حصل في عصر سابق حين انتقل الطوفيون من الكهف إلى القرية، لكن من الصعب تقديم الأدلة على ذلك. بالعكس، إن القفزة الكمية الجدية التي تحصل في قرى الألف الثامن تركنا أقل عرياً وأكثر تسليحاً؛ هذا مانسبته لنا مجابهة أولى بين «التحولات» التي سبق أن حللناها.

(٥٢) هذا يثبت إذا انطباع كنيون الأول (Kenyan 1957، ص ٧٤)، الذي أنهى بريدود (Braidwood 1957)، ومفاده أن موقعا بهذا الحجم وبهذا المستوى الثقافي ما كان يمكن أن يعيش على الجمع وحسب.

(٥٣) يوجد أيضاً «تريتيكوم ديكوكوم» في النيوليتي السابق للفخار A بوادي الفلاح.

(٥٤) Flannery 1972، ص ٤٨.

← المعصل السادس، عدد المواشي ٢٢ - ٢٩ في مستويات التقيب العلوية يوحي بأن احتلال هذه القرية، التي لا يوجد عنها سوى تاريخ واحد بالكربون ١٤ (هو ٨٨٥٠ ق م) قد توصل على الألف الثامن بموازاة مريط الثالثة.

(٤٨) هذا التواصل يذكّر في الأساليب المعمارية كما وفي الصناعات الحجرية: (a) Cauvin J. يصدر لاحقاً، والعظمية: Stordeur، يصدر لاحقاً.

(٤٩) انظر أنفاً، نهاية الفصل الثالث.

(٥٠) Clutton - Brock 1971

(٥١) Hovf 1969



بالفعل ، إن ما يميز النشاطات الجديدة التي يشهد عليها عصر النيوليتي السابق للفخار A إنما هو التنظيم الذي تقتضيه : سبق أن لاحظناه بالنسبة للإنجازات المعمارية في أريحا . من جهة أخرى ، إن ما يميز نشاطاً زراعياً عن قطف الحبوب البرية هو ، وقد رأينا ذلك ، إن هذه الأخيرة متفشية وتقتضي سعياً متورماً ومشتتاً<sup>(٥٥)</sup> ، على حين أنه يظهر مع «الحقل» المتوقع في نقطة مختارة من المجال ، تموقع شغل جماعي ومتآني ، إذن منظم<sup>(٥٦)</sup> . ولعل الاختيار الأفضل للطرائد الكبيرة ، وهي أصعب على الاقتناص ، يعتبر عن اتجاه مشابه في ميدان الصيد ، فنقنيات القنص هي التي تبدو موضع المسألة أكثر من طاقة البيئة الحيوانية الخام .

إذاً من غير الصحيح القول بعدم توازن بين الإنسان والحيوان المحيط يكون ضغطاً لصالح التأهيل . من الأصح أن نقول أن زمراً بشرية ، إزاء التوترات الداخلية التي ترافق النمو الديموغرافي بشكل طبيعي ، قد تجتبت آنذاك ، لأو مرة ، الانحمار ووجدت حلاً للتناقضات التي كانت تجتازها باكتشافها ، خلال الممارسة اليومية لبيئتها الطبيعية ، نماذج جديدة من العلاقات الاجتماعية<sup>(٥٧)</sup> . وهكذا ، تكون الزراعة شكلاً لتلاؤم المجتمع الإنساني مع ذاته أكثر مما مع بيئته الخارجية .

الانتاجية المتقاة يستتبعها مع كل تنظيم لها ، بالتأكيد ، نتائج اقتصادية جليلة مادامت تضاعف التموين ، وهي تبدو إذن ترافق بل وتسهل النمو الديموغرافي . لكنه وهم بصري أن نرى هنا الظاهرة الجوهرية . لقد بين سالين<sup>(٥٨)</sup> بشكل جيد أنه ، بعكس حكم مسبق رومانسي يجعل من الصيد - القاطف كائناً باتساً يتسلط عليه هاجس السعي وراء الطعام ، لا تتطلب اقتصادات الصيد - القطف ، خاصة حين تكون منغوسة في مناطق غنية<sup>(٥٩)</sup> ، سوى نشاط محدود من لمشاركين . فهي جوهرية غير مستثمرة ، وإن صغى القول ، بلا زرع ، وبهذا القدر أرض عذراء ، رأسمال كبير من الموارد غير المستثمرة ومن الرمن غير المستخدم . المجتمع ما قبل الزراعي «مجتمع وفرة» يكفي فيه شغل محدود لتغطية

(٥٥) انظر آنفاً ، نهاية الفصل الثاني .

(٥٦) عن زمر العمل الكومونية (الجماعية) في القرى الزراعية الأولى ، انظر 1972 Flannery ، ص ٤٠ .  
(٥٧) 1977 Malenfantet . هذه النتائج ، التي ماها إعطاء العوامل السوسولوجية الامتياز على الأسس الأيكولوجية البحتة ، هي في حاصلي بحثه رجوع الى فرضية بريدورد التي تجعل من شغل الزراعة مسألة مستوى ثقافي (Bradwood et Willey 1962 ، ص ٣٤٢)

(٥٨) Saklins 1972

(٥٩) وليس في المناطق غير المخطوطة حيث حضرها في أيامنا التقدم العام .

حاجات ثبتيها الثقافة في مستوى ضعيف . تلزم إذاً ، لكي يتغير الإنسان على هذه النقطة ، حوافز من نوع آخر . والحال ، إن المختصين في سيكولوجية الزمر يعلمون جيداً أنه لا توجد وسيلة أخرى لمجابهة المنازعات الداخلية التي يثيرها نمو زمرة من الزمر سوى توجيه التوترات في قناة براكسيس جديدة . كان مجتمع المربيط في الألف التاسع منظومة متوازنة مع وسطها ومع نفسها . وإن تغيرات الألف الثامن تستجيب فعلاً لاحتلال في التوازن ، لكنه غير إيكولوجي : إنه اختلال داخلي لم تكن مجتمعات الماضي تعرف جواباً عنه سوى الإفرار (الهجرة والانتشار والتوزع) . ولقد ردت قرى بلاد الشام على نحو آخر ، بتغييرها لبنائها عبر نشاطاتها . يبدو ظهور الزراعة واحداً من هذه الأجوبة ، في الوقت الذي كان فيه ، من جهة أخرى وكما رأينا ، مجتمع - في مخاض يسمى ، من جهة أخرى ، إلى أن يحقق في عماراته طرقاً مغايرة هي أيضاً في العيش معاً . وما سيفعله النيوليتي السابق للفخار B ليس ، في هذه الحيشة ، سوى إنشاء وتجسيم التطور الذي ارتسمت خطوطه في النيوليتي السابق للفخار A .

### النيوليتي السابق للفخار B وظهور تربية الحيوان

إذاً في الألف الثامن وفي نصفه الأول ظهرت الآثار الأولى لإنتاج القوت في بلاد الشام . كانت محصورة في نشاطات زراعية . العصر التالي يظهر بشكل مؤكد ، مع توسع البيوت المستطيلة ، تعمم الزراعة في الجماعات القروية ، في كل المرات التي حظيت بدراسات لمختصين في ميدان النبات . والواقعة الجديدة ، المثبتة ، هي تربية الماشية الصغيرة في هذه القرى نفسها .

الوثائق قليلة عن سورية (الجمهورية العربية السورية) ، فحبوب وحيوانات مربيط الرابعة وأسود دمشق الثانية لم تدرس بعد . إن التركيز «غير المعياري» لغبار طلع الحبوب في مربيط الثالثة يتواصل في مربيط الرابعة A ، لكنه بالمقابل يقطع في مربيط الرابعة B ، وذلك بدون أن تكون الشروط الطبيعية (وبخاصة الوفرة الاجمالية لغبار طلع النجيليات) قد تغيرت . قد يعني ذلك ببساطة أن الحقول لم تعد قرب التل مباشرة بل أصبحت أبعد ، وهو انتقال يفهم بسهولة في إطار ممارسات التوبير البدائية<sup>(٦٠)</sup> .

خارج سورية ، لكن قريباً جداً من حدودها الشمالية يُزرع البُر أو القمح «تربتيكوم

Mortensen (٦٠)

مونوكوكوم» في موقع تشاينونو التركي<sup>(٦١)</sup>. وهو أيضاً العصر الذي تتظاهر فيه ، نحو ٧٠٠٠ ق.م ، الآثار الأولى لزراعة يُعرَف عليها مورفولوجياً في إيران بموضعي غنج داره<sup>(٦٢)</sup> وعلي كوش<sup>(٦٣)</sup>.

في فلسطين ، إن وفرة القمح الأهلي ( «تربنيكوم مونوكوكوم» ) في أريحا النيوليتي السابق للفخار<sup>(٦٤)</sup> دليل على الزراعة ، ليس فقط لأن هذا النوع غير موجود في الحالة البرية ، بل لأن اختطة البرية التي يأتي منها لانتبت عند هذا الخط من خطوط العرض . نحن إذا أمام إسهام جاء من الخارج ، حملته إلى سورية قادمون جدد<sup>(٦٥)</sup> . ينضم إليه شعير مزدوج وقمح نشوي ، هما أيضاً مزروعان .

في موقع البيضا ، حدد هلبك<sup>(٦٦)</sup> قمحاً نشوياً وشعيراً مزروعاً ، مازال من الناحية المورفولوجية قريباً جداً من النموذج البري لكن حباته أكبر<sup>(٦٧)</sup>.

تلك هي المواقع الوحيدة التي حظيت بتحليل نباتية . من المرجح ترجيحاً عالياً أن موقعاً كتل المنحطة ، الذي لم يحفظ بها ، كان هو أيضاً موقعاً زراعياً .

من جهة أخرى ، إن جميع قرى فلسطين تقريباً تشهد على علاقة مع العالم الحيواني مختلفة عن عصر النيوليتي السابق للفخار : ثمة صعود عام في الماعزيات ، يُدرك في النسب المئوية للحيوانات المقتولة ، على حساب الغزلان والأيليات التي كانت هي الغالبة حتى العصر المعني .

في أريحا تشتمل الماعزيات<sup>(٦٨)</sup> على «العنزة بيزوار» ( «كابراهيركوس اغاغروس» ) والخروف . العنزة يعتبرها كل من زويبر<sup>(٦٩)</sup> وكلوقون - بروك<sup>(٧٠)</sup> أهليه وذلك على أسس

(٦١) Van Zeist 1972 . كانوا يزرعون أيضاً القمح النشوي .

(٦٢) Smith 1974

(٦٣) Hole, Flannery et Neely 1969

(٦٤) Hopf 1969

(٦٥) انظر آغا ، الفصل الرابع ، الحاشية ٢ .

(٦٦) Hellback 1966

(٦٧) هلبك يسميه : «شعير بري مزروع» المرجع المذكور ، ص ٦٢

(٦٨) منذ ذلك الحين تغلبت الماعزيات على الغزال الذي يمضي من ٣٦,٩ ٪ من البقايا في النيوليتي السابق للفخار A إلى ١٧,٩ ٪ فقط في النيوليتي السابق للفخار B (Clutton - Brock 1971)

(٦٩) Zeuner 1955

(٧٠) Clutton - Brock 1971 ، ص ٥٠ .

مورفولوجية (قرون ملتوية) . أما تربية الخروف فهي ليست أكيدة لكنها غير مستبعدة<sup>(٧١)</sup> . في البيضا<sup>(٧٢)</sup> ، العنزة بيزوار والعنزة يبدن ( «كابرا ايبكس بويانا» ) نموذجان ممثلان بالتساوي . يجمعان معاً في العصر النيوليتي السابق للفخار B ٨٦,٥ ٪ من البقايا . لكن الغلبة كانت لهما من قبل ، استثنائياً ، في التطوفي (٧٦ ٪) ، بل وفي الباليوليتي العالي لموقع مدهاغ المجاور . بركنس يعتبرهما داجنتين بموجب نسبة الصغار المرتفعة . لكن ، حسب هذا المعيار ، تكونان داجنتين منذ التطوفي حيث تبلغ نسبة الصغار ٧٥ ٪ . لقد رأينا بخصوص غزال وادي الفلاح إن هذا المعيار وحده لا يعتبر كافياً لأكثر من تأكيد وجود شكل أولي من «النادمة» أو «الرقابة الحضارية» (هيكس) ، يسهله «الكوزال» الطبيعي الذي يكوّنه محيط تحفّ به تضاريس متعرجة وحادة .

في قاعدة المنحطة (المستويان ٥ - ٦) ، يتسجل دوكو ٤٥,٥ ٪ من الماعزيات ، من نوعي ماعز «كابرا هيركوس» وغنم «أوفيس أورينتاليس» ، مقابل ٣٤,١ ٪ فقط من الغزلان<sup>(٧٣)</sup> . إن توزيعهم على طبقات الأعمار يظهر غلبة للزمر ١ - ٣ سنوات ، كما في المستويات الأحدث ذات الفخار حيث يُعتبر ذلك شاهداً على «الاختيار الكامل» الذي يميز التأهيل الحقيقي . مع ذلك في المنحطة ٥ - ٦ ، يعتبر دوكو أن الروائر الاحصائية ليست ذات دلالة كافية والتربية غير مبرهنة تماماً وإن كانت مرجحة .

في الحيام ، في المستويين ٢ - ١ حسب إشغاري<sup>(٧٤)</sup> ، يمكن تحديد تاريخهما بعصر النيوليتي السابق للفخار B<sup>(٧٥)</sup> ، تصل العنزة إلى ٨٥,٣ ٪ من البقايا . دوكو<sup>(٧٦)</sup> يعتبرها داجنة . الوفرة الاستثنائية (٢٠,٨ ٪) للمواليد الصغيرة من الماعز تبدو له ناتجة عن ذاعية طقسية «أضحية» ، وهي غير ممكنة ، بدون أن تهدد مستقبل القطيع ، إلا إذا اختير الذكور في سياق تربية ورعاية .

هكذا فالماعزيات في كل مكان ، لا تتميز بأهميتها الكمية فقط ، بل بواقع أن العنزة ، وربما الخروف في أريحا ، يعتبران أهليين من قبل علماء الحيوان الآثاريين . المعايير

(٧١) Clutton - Brock et Uerpmann 1974 ، ص ٢٧٢ .

(٧٢) Perkins 1966 ، Hecker 1975

(٧٣) Ducos 1969 ، ص ٢٦٧ .

(٧٤) Echegaray 1966

(٧٥) وليس بالنيوليتي السابق للفخار A ، كما كان قد دفع إلى الاعتقاد استمرار الميكروليات ، الدحيل المتسلل على الأرجح .

(٧٦) Ducos 1968 ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

المستعملة مختلفة ، واريحا وحدها تشهد على حضور أعراق داجنة حقة . في سواها ، لاشك أن عملية التأهيل متفاوتة التقدّم حسب المواقع ، لكن لها يجب أن نعزو التغير العام في النسب بين الأنواع المثلثة<sup>(٧٧)</sup> . هذا التغير للعلاقة مع المملكة الحيوانية ، وهو متأخر عن الذي كشف في تل مريبط ، يميّز عنه إذاً لأنه يبدو موجهاً بشكل مباشر نحو التربة . ولندكر بأن هذه الوثائق التي ندرکها في إطار مشآت حضرية مستقرة إما تُعلّمنا عن الاقتصاد الجديد لهذه المستوطنات أكثر مما تُعلّمنا عن الخطوات الأولى للتربة نفسها ، التي يمكن أن تكون ، في شكل بدوي رعوي ، أقدم .

### أواخر الألف السابع ومشكلة الري

«النيوليتي ماقبل الفخار B الحديث» إنما يواصل ، على الصعيد الثقافي ، النيوليتي السابق للفخار B الذي هو أقدم منه . ومع ذلك لقد لوحظ انتقال عام للمستوطنات . يعتقد بيرو<sup>(٧٨)</sup> أنه ، في منطقة الماخ نصف - الجاف ، أمكن لتغير مناخٍ طفيف ، في أواخر الألف السابع ، أن يجعل مواقع كانت محتلة حتى ذلك الحين غير مضيافة . وبما أن هذه المواقع ، كما رأينا قبل قليل ، زراعية ، يمكن أن نضيف أن هذا التغير أمكنه أن يحول دون زراعة الحبوب حسب منظومة الزراعة البعلية ، التي كانت في أساس اقتصادها .

بالحقيقة ، إن القرى الجديدة في فلسطين (أبو غوش ، ييسمون) أو في منطقة دمشق (الرماد) تنجو من هذا الضرر ، فهي قائمة في مناطق أكثر رطوبة والمفروض أن باستطاعتها الاستمرار في الممارسات الغذائية نفسها . نقصنا الشواهد للتحقق من ذلك . المتوفر هو معطيات علم الحيوان الآثاري عن ييسمون<sup>(٧٩)</sup> ، وهي تُظهر غلبة البقر (٣٥,٩٪) على الماعز (٢٩,٤٪) ، لكن بدون علائم عن تربية حيوان ، وهذا يضاعف ترجيح حضور زراعة الأرض ، إذا ما أخذنا في حسابنا الاتساع الكبير للمنشأة .

في الرماد ، لم تتوفر حتى الآن سوى معطيات نباتية - قديمة<sup>(٨٠)</sup> تبين منذ الأساس وجود زراعة قائمة فعلاً . بين الحبوب ، علاوة عن الأنواع الأليفّة الملاحظة في العصر

(٧٧) حتى في وادي الفلاح ، حسب ليج (Noy, Legge et Higgs 1973 ، ص ٩٠) . حيث إن بقايا الماعز ، بدون أن تغلب بعد ، تصعد بقوة من ٣,١٪ في النيوليتي السابق للفخار A إلى ١٣,٩٪ في النيوليتي السابق للفخار B .

(٧٨) Perrot 1968

(٧٩) Ducos 1969 ، ص ٢٦٧

(٨٠) Van Zest et Bottema 1966

السابق (وهي «هورديوم ديسيتشوم» ، «تريتيكوم» و«ديكوكوم» ) ، تظهر أنواع أخرى «هورديوم نودوم» ، «تريتيكوم إستيفوم» أو «دوروم» . يضاف إليها عدس أهلي ( «لنس كولناريس» ) والآثار الأولى لزراعة الكتان .

لا يوجد أي معطى عن تل علي وهذه ثغرة مؤسفة لاسيما وأن السياق الجغرافي لهذه القرية ، الواقعة في المنطقة المهجورة ، يطرح علينا مشكلات .

بالمقابل ، إن الذين أسسوا رأس شمرة<sup>(٨١)</sup> هم من الزراع بالتأكيد ، وهذا الموقع هو الشهادة الأولى والمثيرة للاهتمام عن توسع الاستقرار الحضري الزراعي خارج الحيز الطبيعي للحبوب البرية .

في حوض الفرات الوسط ، رأينا أن هجر مواقع كالمريبط لا يترجم عن ترك المنطقة نفسها ، إذ بالعكس ثمة ثلاث قرى معروفة بالنسبة لأواخر الألف الثامن ، تقع جميعاً جنوب خط الأمطار الحالي ٢٠٠ مم : أبو هريرة وقرص على الفرات نفسه ، وانكوم في منطقة تدمر .

النتائج الأولى في أبو هريرة<sup>(٨٢)</sup> تبين أن الماعزيات (العزّة - الحروف) تهيمن بقوة (٧٠,٥٪ من البقايا) في الألف السابع بعكس التطويف حيث كانت الغلبة للغزال . هذا يشهد حسب ليج ، على نشاط تربية . من الجدير بالملاحظة أن هذه التربة تظهر ، كما في فلسطين ، متمركزة بادئ ذي بدء على المجترات الصغيرة وليس على العاشبات الكبيرة التي كانت في مريبط الثالثة موضوعاً لصيد متخصص كان يمكن التفكير بأنه يمهّد للتدجين .

سكان أبو هريرة زراع أيضاً . كما في الرماد ، تنضم إلى الأنواع الداجنة في الحقبة السابقة ( «بُر القفّاس» ، القمح الشوي) أنواع جديدة كالشعير السداسي وكذلك الحنظل والعدس والبقول وربما الكرمة . عن قرص لا توجد معطيات نباتية - قديمة<sup>(٨٣)</sup> . الحروف والعزّة يزوار ممثلان بشكل جيد في ما جمّع من بقايا الحيوان . بالنسبة للعزّة ، إن قرناً ملتويّاً بعض الشيء جاء من المستوى الثاني يسمح لـ هويجر<sup>(٨٤)</sup> بالتحدث عن تأهيل . على كل الأحوال ، إن اتساع القرية ذاته لا يفسح مجالاً لتصوّر أن القرية كانت

(٨١) Contenson 1977

(٨٢) Moore, Hillman et Legge 1975

(٨٣) إن غياب الاتصال - المناجل في استباركوتسون وفان لير (١٩٦٦) ، مع أنه مثير للفضول ، لا يستبعد زراعتاً للأرض .

(٨٤) Hooijer 1966



تجهل زراعة الأرض وتربية الحيوان . هذا ما استتبته التفتيات الجارية لأرباب .

يبدو هذا الموقع وموقع الكوم ، نظراً لمعاف المنطقة ، غير صالحين للزراعات البعلية . أولاً في أبو هريرة ، التي هي الأكثر مطراً ، يلاحظ ليح<sup>(٨٥)</sup> أن بعض البقول الجافة كالقنول وحتى الشعير السداسي كان من الصعب أن تزرع بدون سقاية . أما في الكوم فالقرية الحالية مدينة لحضور نبع غزير يعيشها على زراعتها المروية<sup>(٨٦)</sup> . يجب إذا أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي ، الذي ليس من الممكن أن نعطي عنه سوى إجابة افتراضية : ألم يكن تأسيس قرى جديدة ونموها المرموق (إذ يبدو أن قفزة جديدة إلى الأمام قد تمت آنذاك في السعة الديموغرافية لبعض هذه القرى) تابعا لازماً عن ممارسات زراعية تتضمن رعي الحقول المزروعة ؟ هذه معضلات لأرباب أن الدراسات النباتية على الحفريات القادمة في بقرص والكوم سوف تستطيع إيضاحها بشكل مباشر .

إذا ما اكتفينا بالوثائق التي أسفر لنا عنها التحليل المعماري ، فإن تخمينات جديدة يمكن أن تضاف إلى الضرورات الأيكولوجية . بالفعل ، كما بالنسبة للألف الثامن ، شتميل ، قنبلاً ، إلى «التسليم» بدرجة جديدة بلغت في التنظيم الاجتماعي تسمح للسكان بالنماء محلياً . وعلى حين أن التجقق المراض للمساكن على طول «شوارع» (في أبو هريرة ، في الرماد) يبدو شاهداً على نموذج في إعصاب النسيج القروي ، فإن مؤشراً أدق كافتية بقرص من شأنه ، إذا ما ثبت ، أن يسد مباشرة إلى معضلات توزيع أهلي للماء ، أي إلى واحد من وجوه هذا التنظيم الكوموني أو البلدي الذي أراد تشايلد أن يرى فيه مقدمات الحضارة «المدنية» .

إن محض وجود منظومة رعي يكفي ، بدون تخطي الميدان الزراعي ، لتضمين المقول تنظيمياً معقداً قيل عنه بما فيه الكفاية إنه يقتضي ويفترض عمليات تحكيم متعددة بين الناس وتقدماً جديداً في ممارسة السلطة *autorite* .

من هنا ، ومرة أخرى : إن ما يدرك هو تحول سوسولوجي في أصل ومنشأ علاقة جديدة مع البيئة . إذ نحن كانت الزراعة في الاقليم الجاف تقتضي الري ، فالري يقتضي بدوره القدرة الاجتماعية على تنظيمه وعلى إنشاء شروط تلاحم جماعة أكثر عدداً في الوقت نفسه . ستقول الأبحاث القادمة ما إذا كانت هذه الفرضية ذات أساس .

(٨٥) Moore, Hillman et Legge 1975 ، ص ٧٣ . ليح يتساءل عما إذا لم يكونوا حصروا هذه الزراعات في أماكن القمر الرطبة ، لكن لا بد من ملاحظة أن مؤشرات الري الأولى تظهر أيضاً في إيران في تلك الحقبة ، في موقع شاغا صفيد ، منذ مرحلة علي كوش (Hole 1977) .

(٨٦) حسب بضع ملاحظات على البات القديم أجريت اثر استبار-دورغان . فان زايت (إبلاغ شحسي) يرجع رعي الكوم في النيوليتي .

## الفصل السادس

### التطور التكنولوجي

حين يعلم المرء الأهمية التي يعلقها علماء ما قبل التاريخ على الأدوات ، وبخاصة أدوات العصور الحجرية ، يمكن أن يصعب لكوننا لا نتناولها إلا الآن . كما يقول لوروا - غورهان ، «تمثل الزمرة البشرية يمتها عبر سنار من أغراض (أدوات أو آلات)»<sup>(١)</sup> . ليست منتجات البيئة بالنسبة لها قابلة للاستعمال مباشرة بدون وساطة أدواتها التي تعوض بـ «غلاف تقني» واعي الانضاج عرباً بشرياً ما ، نقصاً في الأعضاء الطبيعية الفعالة (أنياب ، مخالب ، الخ) . فالأداة تكون الوسيط المشكور وتعتبر ، بشكلها ووظيفتها معاً ، عن طبيعة العمل ، وبغيراتها عن تطور هذا العمل .

وبالتالي فأي دال يمكن أن نتصور عن «العلاقة الأيكولوجية» بين الإنسان والبيئة المحيطة من هذا السلم من الأدوات الذي يسمح لأحدهما بأن يفعل على الآخر ؟ وكيف لا نترجم تغيرات أساسية في هذه العلاقة ، كظهور الزراعة مثلاً ، بانقلاب في الميدان التكنولوجي لا يقل عنها شأناً ؟

عند الحد الأخير ، يمكن أن نسأل ما إذا لم يكن كل عمل جديد مشروطاً بصنع الأدوات المناسبة وبالتالي ما إذا لم يكن التطور التكنولوجي هو الأكثر كشافاً والأول للدراسة من بين جميع «المتغيرات» أو «المتحولات» التي واجهناها حتى الآن .

يمكن كحجة دفاعية أن نعتد على نقص التوثيق في مضمار الأدوات بالنسبة

(١) Leroi - Gourhan 1945 ، ص ٣٥٣ .

للحقبة المدروسة<sup>(٢)</sup>. لكن الأمر الجوهرى ليس هنا : لا يوجد ، بالواقع ، تصاحب بين كل نموذج جديد للفعل العملى في البنية وظهور الأداة أو الأدوات النوعية التي تتوافق معه . لقد لاحظ بوزرب من قبل<sup>(٣)</sup> أن الأقوام «البداية» التي ، في أيامها هذه ، تأتي إلى الزراعة ، تحتفظ مدة طويلة بأدوات القنص - القطف . في ما قبل تاريخ الشرق الأدنى ، نعلم أن الأدوات ليست هي ما يسمح بتقرير ما إذا كانت هناك زراعة أم لا . من بين الأدوات التي اعتبرت في البداية «زراعية» ، إن المناجل والرخيات والمدقات وسواها هي قبل ذلك جزء من معدات رجال القنص والقطف التطوفيين ولا شيء يكشف عند هذا المستوى ظهور استراتيجيات جديدة للألف الثامن . إذاً ، لئن كان الفعل في الطبيعة يقتضي فعلاً أدوات ، إلا أن تلاؤم أداة من الأدوات مع العمل النوعي المطلوب منها ليس مباشراً : إنه هو نفسه يقتضي «اختراعات» ، وأحد أهداف هذا الفصل هو على وجه التحديد ملاحظة شروطها .

هذه الاختراعات موجودة . «الثورة النيوليتية» (تشايلد) تحمل كثرة من تقنيات جديدة ، والتقنيتان الرئيسيتان في هذا المجموع هما صقل الحجر وصنع الفخار . كلاهما يظهران في الشرق الأدنى خلال الشريحة الزمنية التي نطرق فيها . لكننا ربما في مكان آخر<sup>(٤)</sup> أنه عدا عن هذين الاختراعين المدهشين اللذين يذكرهما الجميع ، كان تصور جديد للأداة يميز هذه الثورة بوجه أعم : في تصنيف النماذج الباليوليتية<sup>(٥)</sup> ، الأسماء المستخدمة تؤثر على حركات بسيطة (مكاشط أو محكات ، مخارز أو مثاقب ، مجارف . . .) أو على تقنية القطع التي تحصل على الأداة (مزروعات الوجه) ، أو هي تستحضر بشكل مثير شكلها (حارونات) أو أيضاً مكان اكتشافها الأول (رؤوس شاتلبرون ، الخ . . .) . وإذا كنا لانرى إلا في أسماء التصنيف النيوليتية مصطلحات (مفردات - حدود termes) ذات تضمن وظيفي أصرح بكثير (رؤوس سهام ، بلطات أو

(٢) وحدها الأدوات التطوفية حظيت بدراسات معتقة . إن عصر النيوليتي السابق للمحار A لم يتسبب حتى الآن في أية مونوغرافية كاملة للعتاد الأدواتي ، وإن كنا نتطرق الشر القريب للعتاد الذي وجد في المربط سنة ١٩٦٥ (Cuvin M. - C. p) ، يصدر لاحقاً وعتاد أريحا الذي درسه - Crwfoot - Payne . إن أعتدة الألف السابع لم تدرس إلا في البصا (Mortensen 1970) . نعال دفشون (Servello 1976) ، وجزئياً في بعض مواقع سورية (Cuvin M. - C. 1972, 1973) .

Boserup 1970 (٣)

Cuvin J . 1968 (٤)

Brezillon 1968 انظر (٥)

فؤوس ، قاقمات ، مقص - إزميل ، الخ . . .) فلأننا نتعرف هنا على عديد من الأدوات ذات الأشكال المألوفة لنا ، لأنها «متخصصة» ودامت حتى أيامنا : فهي تمثل إذن تلاؤماً جديداً ونهائياً<sup>(٦)</sup> للأداة مع وظائف واضحة ومحددة جداً . فما يولد آنذاك إنما هو تكنولوجيا سندوم ، بمواد صنع أخرى في الغالب ، حتى العصر الصناعي .

لقد قلنا هذا ، لنضف أنه توجد حول الشكل الأساسي لأداة من الأدوات ، الذي يبقى ويدوم لأنه ملائم ، جميع الزخارف الأسلوبية التي ترسمها التقاليد الثقافية : والمقصود هنا يمكن أن يكون أساليب صنع خاصة (تقطيع وإتمام ، اختيار مادة الصنع) أو تنويعات مورولوجية تفصيلية تميز الثقافات<sup>(٧)</sup> .

لذا فالعتاد الأدواتي ، الذي يؤلف مع الزينة وحتى ظهور الخزف ، الشيء الجوهرى في الأثاث المكتشف في حفريات التنقيب ، هام بالنسبة لنا في حثيتين :

- من جهة ، يتظاهر فيه تحسين متصل ، تقطعه اختراعات متتالية . إذا كان ثمة ميدان يحتفظ فيه مفهوم «التقدم» بمعنى فهو ميدان التطور التكنولوجي<sup>(٨)</sup> . لكن كيف نُدّيج زمرة بشرية تقنية جديدة ؟ أحد أمرين : تستعيرها عن ثقافة أخرى أو تبتكرها . غير أن ابتكاراً خاصاً ، لحظناه من قبل ، لبلاد الشام يحد كثيراً ظاهرات الاستعارة (ليس ثمة ما يستعار خارجها إلا القليل) ويضاعف على العكس الاختراعات الأصلية . كما بالنسبة لإنتاج القوت ، إن القناة بأننا أمام «إبداعات أصيلة» ستعطي كل فائدتها في فحص يقط لقرينتها ودلالاتها العامة في التعليقات المقترحة .

- من جهة أخرى ، نجد داخل المنطقة المدروسة ، أن الاستعارات موجودة من ثقافة إلى أخرى (أو من إقليم إلى آخر) . إن اختراعاً ينتقل ، بسرعة متفاوتة ، وبقدر ما يحتفظ كل غرض منقول في خصائصه ببعض آثار وسطه الأصلي التي طبعته بها الثقافة<sup>(٩)</sup> ، يبقى من الممكن استخدامه ، ليس بدون حيطة واحتراس ، كأداة لتحديد التواريخ وكدال محدد لتيارات ثقافية .

(٦) كانت توجد تلاؤمات من هذا النمط منذ الباليوليتي الأعلى ، لكن فقط بالنسبة لصناعات العظم (الحطاب أو الكلاب ، الإبرة المثقوبة) .

(٧) Sackett 1973 ، ص ٣٢١

(٨) Leroi - Crouhan 1945 ، ص ٣٢٢

(٩) المرجع نفسه ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

## تاريخ الأعتدة

سنختصر الآن التطور التكنولوجي لبلاد الشام حسب أحدث النتائج المحرزة . هذا العرض الاصطلاحي عمداً سيهمل «الرسائل» المؤلف من أدوات غير متميزة نسبياً والموروث من العصر الباليوليتي (مكاشط ، مناقشات ، مخارز الخ) وأدوات السحق الثقيلة (رحيات ، هواون ، مدقات ، الحج) التي ليست دراستها «المادجية» في الشرق الأدنى على ما يكفي من التقدم . كذلك لن نتناول الزاوية الكمّية (نسبة النماذج في الأعتدة) التي لم يفسح عنها حتى الآن إلا في مونوغرافيات قليلة جداً ، الأمر الذي لا يفسح مجالاً لمقاربات مفيدة .

من الهام أولاً التأكيد على الوحدة العميقة ل بلاد الشام حين نشرع في دراسة صناعاتها<sup>(١٠)</sup> . إن هذه المنطقة ، التي تضم بلدان سورية ولبنان وفلسطين والأردن الحالية وقد تمتد بعض الشيء إلى الشمال نحو تركيا الجنوبية التي مازالت غير معروفة بشكل جيد ، تتراعى ، في صعيد الأعتدة ، مجموعاً رحباً متلاحماً<sup>(١١)</sup> يتضاهى بشكل قوي مع مناطق العراق وإيران ، وهي مناطق أكثر شرقية . إن هذا التضاد يتصل بتنوع نسقها التكنولوجي المبنى على الدوام بأدوات جديدة<sup>(١٢)</sup> ، وبالتعاطفات الأسلوبية التي تحمل الأعتدة قابلة لملحجة متداخلة ومتكاملة جداً<sup>(١٣)</sup> .

## العصر النطوفي (١٠٠٠٠ - ٨٣٠٠)

هذه الوحدة تظهر من بداية المسار ، أي منذ الألف التاسع تلك هي الحضارة النطوفية ، التي رأينا<sup>(١٤)</sup> أنها امتدت من النيل إلى الفرات مع تأثيرات ممكنة في الشمال حتى ساحل كيليكيّا<sup>(١٥)</sup> . الفروق «اللسانية» التي تميز نطوفي الفرات عن نطوفي فلسطين

(١٠) Hours et ... ، مصدر لاحقاً .

(١١) انتشار السحج الأصولي يشهد على تيار مبادلات مكثرة بين هذه البلدان جميعاً (Renfrew, Dixon et Cann 1966)

(١٢) بمعارضة أدوات العراق أو إيران ، وهي أكثر رقابة وأساسها ميكروليات مستمرة لمدة أطول وأصلها وأدوات من التقليد الباليوليتي .

(١٣) M. - C. Cauvin 1974 c ، ص ٣٢١

(١٤) انظر أنفاً ، الفصل الثالث .

(١٥) مثلاً الصناعات ذوات المقطع في بلديي أو بلباشي .

لا تمنع قط وجود قاع مشترك ، عماري واقتصادي وتقني معاً ، ضامن لـ جامعة Koine ثقافية . من المعلوم أن هنا أمام صناعة ميكروليتية وهندسية بالأساس ، أي أنها بذلك لا تنفص مجالاً للتحليل الوظيفي : بالفعل ، إن قطع الدوائر التي تتميزها ليست هي بذاتها أدوات بل هي عناصر من أدوات تأليفية متعددة العناصر ، أي هي تسليحات حجرية تسلح بصورة جماعية «مقايض» صنعت من مواد أخرى (خشب أو عظم) نادراً ما وصلت إلينا<sup>(١٦)</sup> . العنصر الحجري ، وقد ضُمت ، كما هي الحال في شتى الحضارات «الميزوليتية» (العصر «الحجري الوسيط» ) ، حسب موديل هندسي ، لا يتضمن أية إشارة إلى استعماله . أما الأداة كاملة فلعلها كانت تكشف عن تلاؤم ذي دلالة ومعنى لكننا نجمله . في هذا المستوى ، يمكن أن تغفل منا اختراعات أصيلة ، لأن توثيقنا توثيق لبواقي وحشَب .

إلا أن نطوفي الفرات في مرحلته الأخيرة (أي في مريط الأولى B) يقدم سميتين عابيتين عن السحنة الفلسطينية لهذه الحضارة ولهما أهمية تكنولوجية كبيرة . الأولى هي ظهور «قائمة مريط» المصنوعة من الصوان المقطوع (الرسم ١٦٠ رقم ١) ، أي قطعة حجرية هي ، وإن كانت متضامنة مع مقبض اندثر ، تكشف في مورفولوجيتها نفسها عن ما يكفي من خصائص التلاؤم المثبتة بآثار الاستعمال ، لكي يكون بإمكاننا أن نعبر لها طريقة عمل محدودة وغير ملتزمة . هذه الأداة لم يعثر عليها حتى الآن إلا في الفرات الأوسط<sup>(١٧)</sup> .

السمة الثانية هي ظهور الحجر المصقول ، ليس بعد على أدوات شغل ، بل على أغراض زينة (أنواط قُضيبة الشكل : انظر الرسم ١٨٠ رقم ١) .

## ٨٣٠٠ - ٧٦٠٠

في الحقبة التالية (٨٣٠٠ - ٧٦٠٠) ، تبدو الأدوات ، حين تُعرف بشكل جيد ، مشتقة مباشرة من النطوفي ، فهي في البداية تحتفظ بميكروليات الهندسية<sup>(١٨)</sup> قبل التخلي عنها تماماً<sup>(١٩)</sup> . لكن منذ حوالي ٨٣٠٠ ق . م ، تظهر أداة جديدة في كل بلاد الشام ،

(١٦) أفرع المناجل العظيمة في نطوفي كبره (Turville - Petre 1932) تشهد على وجود هذه الأدوات التأليفية لكنها ليست مسلحة بميكروليات (شظايا حجرية) .

(١٧) في المريط والشيخ حسن .

(١٨) إنه «النطوفي المضاد» أو «ملحق نطوفي» (M. - C. Cauvin 1974 c) مريط الأولى B ، أبو سالم ، الحيام ٤ ، الخ ...

(١٩) في أواخر الألف الثامن على الفرات (مريط الثانية) وعلى الأردن (أربحا تمهد النوليتي ، جلجال....)





الرسم ١٦ : أدوات عصي (رمحية) من الصوان المشذب في بلاد الشام: ١ - ارميت من مريوط ٢٤١ - يقدمة من البيضا PPNB (حسب مورتنسن)  
٣ - بلطة بشقرة مصقولة من الراماد (حسب م. شاكوفان)

وهي رأس السهم ، أي رأس صوّاني بات يحمل مندند ، مكتوبة في طريقة تديره (المقاييس ، التناظر ، جهاز الشيت على العصا) ، العلامات المورفولوجية الظاهرة لصفته كقذيفة . من أجل الإقباض يبدو أنهم اعتمدوا حليّن الثين معاً ، أحياناً منفصلين وأحياناً متصافرين على القطعة الواحدة ، هما السويقة والفريضات الجانبية المتقابلة .

يظهر السهم ذو الفريضات والقاعدة المزدوجة ، بلا سويقة ، والمسمى «رأس الخيام» (الرسم ١٧ رقم ١) ، يظهر منذ مريوط الأولى B وأيضاً في فلسطين<sup>(٢٠)</sup> . ونعثر عليه حتى دلتا النيل في حلوان . ثمة رؤوس صغيرة ذات سويقة وبدون فريضات ، حاصرة منذ مريوط الأولى B. وبشكل نموذج خاص يدعى «رأس حريف» الشيء الجوهرى في تسليم «ملحق نطوفي» النقب ، موقع أبو سالم<sup>(٢١)</sup> . أخيراً ، إن السهم ذي السويقة والمجهز بزوج أو عدّة أزواج من الفريضات (رقم ٢ - ٣) ، الحاضر هو أيضاً لكنه نادر منذ مريوط الأولى B ، هو نموذج السهم ذو الفريضات الأكثر استعمالاً في مستويات الانتقال بين المرحلتين الثانية والثالثة لهذا الموقع<sup>(٢٢)</sup> . وهو الغالب أيضاً في تر أسود دمشق المرحلة الأولى<sup>(٢٣)</sup> وربما في الخيام<sup>(٢٤)</sup> .

أما في المريوط الثالثة فقد بدأت تغلب سهام أطول بلا فريضات (رقم ٤) ، يؤخذ معظمها من النوى الطويلة ذات المستويين المسماة «زورقية الشكل»<sup>(٢٥)</sup> . هذه الرؤوس ذات سويقة بسيطة ورتوشات مسطحة ، وهي بذلك تنبئ بالنموذج اللاحق المسمى «رأس بيبيلوس»<sup>(٢٦)</sup> . هذا الأخير ، الذي سينتشر فوق كل بلاد الشام ، يكون إذاً قد وُلد على الفرات في الوقت نفسه مع التقطيع على نوى زورقية الشكل والذي اكتشف هو أيضاً في كل مكان تقريباً ، لكن في وقت لاحق .

(٢٠) في الخيام ٤ ، حسب Echegaray 1966 ، ص ٥٠ ، في جلعان (Noy 1976) وفي محطات شتى على ساحل الفلسطيني (Bunan et Friedman 1965) ، ص ١١ ، Bar Yosef 1970 ، الرسم ٤٤) .

(٢١) Marks 1973 . هذا النموذج يبدو حاضراً كذلك لكنه نادر جداً في مريوط الأولى B والخيام ٤ (c) M. - C. Cauvin 1974 ، ص ٣١٦ ، الحاشية ٢٣ .

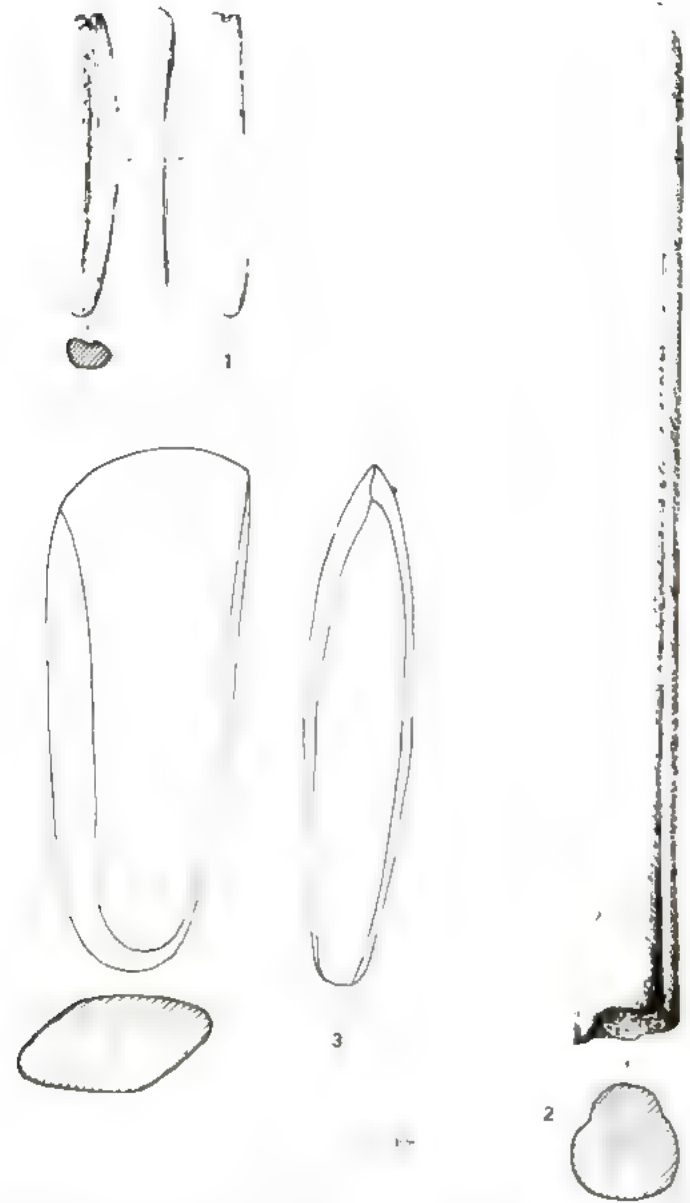
(٢٢) في المستويات ٩ - ١١ عند فان لون : انظر M. C. Cauvin (المراجع المذكور ، ص ٣١٦) التي سندعوه «رأس حيوان» (يصدر لاحقاً ، b) .

(٢٣) M. - C. Cauvin 1974 C ، ص ٣١٥ .

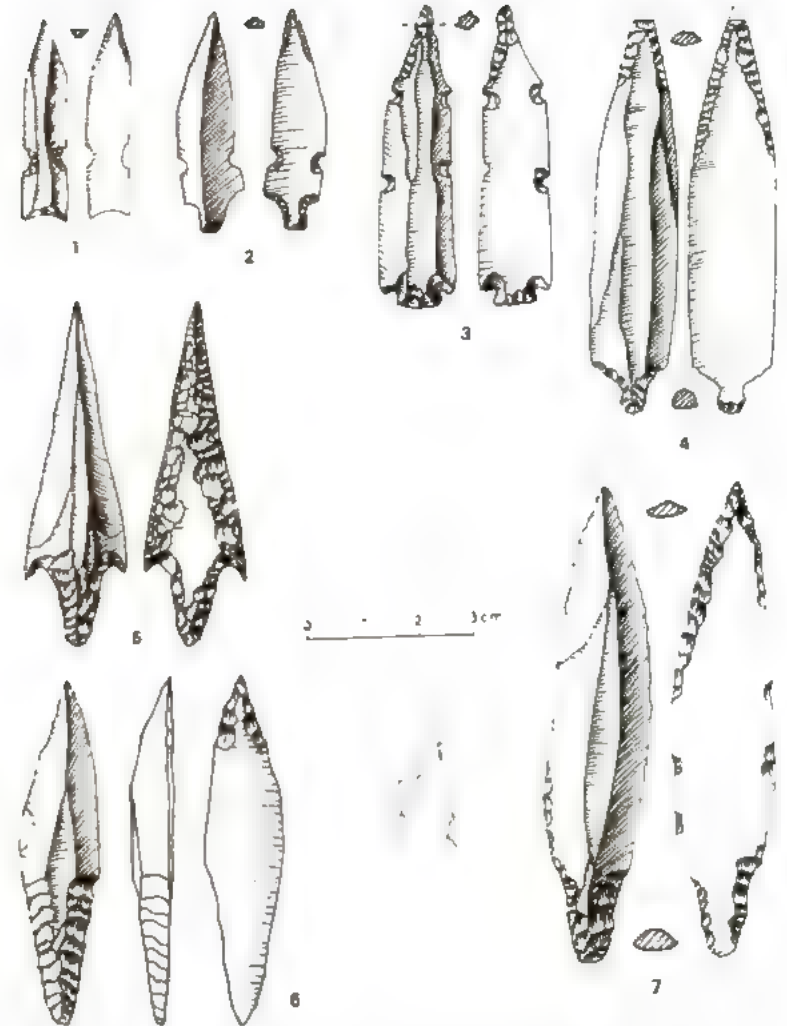
(٢٤) Perrot 1951 . أريحا تبدو على حدة ، بذرة ورداة سهامها ذات الفريضات .

(٢٥) تعريف النموذج : Cauvin J. 1966 ، ص ٢٢٦ . بالنسبة سهام مريوط الرابعة B ، انظر Cauvin Z. 1974 b .

(٢٦) انظر Cauvin J. 1968 ، ص ٥٥ .



الرسم ١٨ حاجيات من الحجر المصقول في مريط : ١ - قرط نطوفي من الطور الأول A ؛  
٢ - عصا مصقول من الطور الثالث A ؛ باطة مصقولة من الطور الرابع B .



الرسم ١٧ - نماذج تسليحات سهام في بلاد الشام : ١ - رأس الخيام (في مريط الأولى B) ٢ -  
رأس حلوان (مريط الثانية) ٣ - رأس ذو فريضات وجنيحات (أستود دمشق الأولى A) ٤ -  
رأس ذو سويقة (مريط الثالثة) ٥ - رأس أريحا (في المحطة السيوليتي السابق للعشار B) ٦ -  
رأس العمق (في البيضاء الثانية) ٧ - رأس بيلوس - جيل (أسود دمشق الثانية) ٨ - ٩ - ١٠ -  
نقلًا عن C. M. Cauvin ؛ ١١ - نقلًا عن Perrot ؛ ١٢ - نقلًا عن Mortensen

كل هذه الأعتدة تصبحها أنصال مناجل يذلل جلؤها على استعمالها المتخصص .  
إلا أن الشكل الصحيح للأداة المركبة أيضاً هو ما كانت تشكله عناصرها<sup>(٢٧)</sup> .

«قائمة مريضة» تستمر في مريط الثالثة وفي الشيخ حسن ، بينما تظهر أداة مزدوجة الوجه مختلفة جداً ، وإن كانت على الأرجح محصنة هي أيضاً للفصل بالطوق المقذوف ، في أريحا النيوليتي التمهيدي والنيوليتي ما قبل الفخار A وفي محطات أخرى من منطقة القدس<sup>(٢٨)</sup> : إنه «الفصل» ، الذي يقال له أيضاً «فأس صغير طاحوني» أو «إزميل» حسب عرضه ، وهو ذو حد أمامي فاعل حصلوا عليه عن طريق «شطفات» عرضانية (الرسم ١٦ ، رقم ٢) .

ليس صقل الحجر موجوداً بعد إلا على الفرات الأوسط ، حيث يخدم الآن في تفصيل قضبان مرموقة من الحجر القاسي ، في مريط الثالثة والشيخ حسن (الرسم ١٨ ، رقم ٢) . فقط في أواخر المرحلة الثالثة ، في هذين الموقعين ، تظهر أوائل القامقات المصقولة ، التي تتعايش مع أواخر القامقات المنحوتة . أخيراً ، في المناجم نفسها ، تظهر الأغراض الأولى من الغضار المطبوخ (الطين المشوي) : أوانٍ صغيرة (الرسم ١٩) وتماثيل نسائية صغيرة في مريط الثالثة ، وأغراض أخرى صغيرة متنوعة في مريط وشيخ حسن<sup>(٢٩)</sup> .

٧٦٠٠ - ٦٦٠٠

لا يظهر في صناعات هذه الحقبة أي شيء إلا وكانت له على الأقل بدايات أولية في الحقبة السابقة . بالمقابل ، تلاحظ ظاهرات مثيرة للاهتمام في ميدان الانتشار الثقافي . التقطيع الصفيحي للصوان على بوى زروقية الشكل يصل إلى فلسطين الداخلية<sup>(٣٠)</sup> . بين الأسهم ، يصل «رأس بيلوس» (الرسم ١٧ ، رقم ٧) ، الذي كان قد بلغ صد ٧٤٠٠ ق م . في مريط الرابعة B كمال نموذج<sup>(٣١)</sup> ، يصل إلى غوطة دمشق<sup>(٣٢)</sup> وإلى فلسطين<sup>(٣٣)</sup> .

(٢٧) M. - C. Cauvin (b) ، يصدر لاحقاً ، «إباضها «سبلي»» .

(٢٨) محطات ذات «فؤوس صغيرة طاحونية» (فواصل) نموذج ططور : Mallan 1925

(٢٩) أقراص ، أسطوانات ذات صويفة محورية ، الخ ... (a) Cauvin J. 1974 .

(٣٠) إنه يميز النيوليتي السابق للفخار B حسب Crawford - Payne 1976 . وصوله إلى أريحا يمثل بين المؤشرات على تعود سوري : انظر آنفاً ، بداية الفصل الرابع .

(٣١) Cauvin J. (a) ، يصدر لاحقاً ، الرسم ١٣ ، رقم ٣ .

(٣٢) في أسود الأولى B والثانية : (a) Cauvin M. - C. 1974 ، لرسم ٢ - ٣ .

(٣٣) في أريحا النيوليتي السابق للفخار B ، البيضاء ، المنحطة ، تحال دوشور .

إلا أن نماذج أصلية تبدو تفرّد أساليب أكثر تموقعاً وتبقى مسألة تحديد حيز توزيعها بشكل دقيق : «رأس أريحا» ، الذي لا يميز عن «رأس بيلوس» إلا بجنيحات منتنية إلى الوراء ومشحودة (الرسم ١٧ ، رقم ٥) ، يبدو محصوراً في فلسطين<sup>(٣٤)</sup> ولا يكاد يبلغ غوطة دمشق<sup>(٣٥)</sup> . «رأس العمق» المثلثي المقطع (رقم ٦) حاضر في هاتين المنطقتين<sup>(٣٦)</sup> . بالمقابل ، لم يذكر أي من هذين النموذجين على الفرات حتى الآن .

إنه أيضاً العصر الذي تتلقى فيه أريحا أدواتها المصقولة الأولى : بضع فؤوس صغيرة من الحجر القاسي مستوردة على الأرجح<sup>(٣٧)</sup> ، في حين أن «الفواصل» المنحوتة ، التابعة للعصر السابق ، مازالت تُستعمل هنا بشكل رئيسي ، بعد تعديل طفيف . نجدها في البيضاء ، مع بضع فؤوس من الصوان المنحوت لكنها لم تُصقل<sup>(٣٨)</sup> . الأمر بالعكس على الفرات ، فالفؤوس (الرسم ١٨ ، رقم ٣) والقامقات المصقولة من حجر السربنتين<sup>(٣٩)</sup> شائعة الصنع في مريط الرابعة انطلاقاً من حصى النهر ، ولم يعد هناك أدوات ثقيلة من الحجر المنحوت .

لم يسفر أي منجم ، حتى على الفرات ، عن فخار . ولا يستديم اختراع الطين المشوي وعلى نحو متقطع إلا في شكل تماثيل صغيرة (تل أسود دمشق المرحلة الثانية) . بحيث أن الاختراع الوحيد لعصر النيوليتي السابق للفخار B ، والمحفوظ بعد لفلسطين ، يبدو هو اختراع الكلس وهو لا يُستخدم إلا في البناء ، من أجل طلاء الأرض والجدران .

٦٦٠٠ - ٦٠٠٠

تقليدياً ، كانت أعتدة أواخر الألف السابع تُدمج مع أعتدة العصر السابق تحت اسم

(٣٤) إنه النموذج الأكثر شيوعاً في أريحا .

(٣٥) في أسود الثانية : (a) Cauvin M. - C. 1974 ، الرسم ٣ ، رقم ٦ .

(٣٦) أسود الثانية (المراجع نفسه ، الرسم ٣ ، رقم ١ - ٣) ، المنحطة : Perrot 1968 ، الرسم ٨٤٢ ، رقم ١٥ ، ١٣ .

(٣٧) في منطقة دمشق ، الفؤوس المصقولة الأولى تظهر في أسود الأولى B بين ٧٦٠٠ و ٧٣٠٠ ق م

(a) Cauvin M. - C. 1974 .

(٣٨) الحد القاطع ، المستدير ، يحصل عليه بواسطة رتوشات متراكمة لا «بصيرة قاطع» : Mortensen 1970 ، الرسم ٥٠ ، ب . توجد بضعة فؤوس مصقولة من البارت (Kirkbride 1960)

(٣٩) هذه الأدوات المصقولة لها تارة حامة القدوم «القائمة» المشطوبة وطوراً حد البلطة (العأس)

التأطري ، الذي هو أقل دلالة فيما يخص الاستعمال الحقيقي للقطعة - الأداة .



هو PPNB (النيوليتي السابق للفخار B) . لكنها بدأت مؤخراً تكشف تفرداتها الخاصة .  
علماً بأن هذه التفردات تعود لخصوصيات في الأسلوب (الطراز) أكثر مما تعود لتعديلات  
تكنولوجية عميقة .

للفرات (أبو هريرة ، بقرص ، تل الأسود) وللبلاد التدمرية (تل الكوم) صناعة مشتقة  
مباشرة من صناعة مريط الرابعة : السهام ، رؤوس ييوس أو رؤوس بيضوية ، كثيرة  
ومنتطة . أما السهام ذات الفريضات ، التي مازالت حاضرة بشكل متباعد في مريط  
الرابعة ، فقد اختفت تماماً . بالمقابل ، توجد حفنة من رؤوس العمق<sup>(٤٠)</sup> يمكن أن تشهد  
على تأثير غربي ، والأنصال - المناجل تُظهر الآن علائم جليلة على إدخالها في مقابض  
منحنية ، كالمناجل الحالية<sup>(٤١)</sup> . مازالوا يستعملون الفأس والقذوم (القائمة) المصقولين  
المصنوعين من الحجر القاسي .

أما محطات النيوليتي السابق للفخار B الأخير في فلسطين ومنطقة دمشق فتشهد  
على تصور مختلف بعض الشيء : بالنسبة للتسليح ، فوق قاع يضم رؤوس جبيل والعمق  
وأريحا أو رؤوساً بيضوية لا تختلف عن رؤوس النيوليتي السابق للفخار الأكثر قدماً<sup>(٤٢)</sup> ،  
نشهد أحياناً ، لكن بشكل خاص في تل الرماد<sup>(٤٣)</sup> ، بعض الانبعثات للسهام ذات  
الفريضات ، المعادة بروتوش صفيحي متفاوت الاتساع يميزها عن سهام أسود الأولى .  
الأنصال - المناجل تتنوع : بعض العناصر المجذوعة مرتين تحمل الآن نفس الروتوش الصفيحي  
الذي تحمله السهام<sup>(٤٤)</sup> ، وتظهر عناصر ذات أسنان كبيرة<sup>(٤٥)</sup> سوف تستمر وحدها في  
الألف السادس . بالنسبة للعتاد الثقيل ، نرى تطبيق تقنية الصقل على العديد من فؤوس  
(الرسم ١٦ ، رقم ٣) وأزاميل الصوان المقطوع ، مع صقل الحذ في أغلب الأحيان<sup>(٤٦)</sup> ؛  
أما الأداة التي هي الفاصل فهي نادرة ولم تعد إلا بقية استمرت .

(٤٠) في نهاية استيطان أبو هريرة (المرحلة الثالثة) : Moore, Hillman et Legge 1975 ، الرسم ٦ ،  
رقم ١٠ - ٩ .

(٤١) في تل الأسود ، نشهد آثار الرقت أو القار (؟) على ترتيبها في شكل «سلسلة» على ذراع محني :  
Cauvin M. - C. 1973 .

(٤٢) أولاً ، ربما ، باستخدام أكثف للروتوش المسطح الصفيحي الواسع في كثير من الأحيان .

(٤٣) Cauvin M. - C. 1974 C ، ص ٣٢١ . انظر أيضاً أبو حوش : Dollfus et Lechevallier ،  
1969 ، الرسم ٢ ، رقم ١ - ٣ .

(٤٤) Cauvin M. - C. 1973 ، الرسم ١ ، رقم ٨ ، ٧ ، ١٢ .

(٤٥) في رماد ، تل علي ، أبو حوش .

(٤٦) نفس المواقع .

التقدم الأساسي ، في المنطقتين ، يقرأى بشكل خاص في ميدان تطبيق (فنون النار)  
الكلس ليس فقط يصل إلى الفرات حيث يفرش الأرض والجدران<sup>(٤٧)</sup> بل يخدم في إعداد  
بعض الوعاءات<sup>(٤٨)</sup> . من جهة أخرى ، أصبحوا قريبين جداً من تعتم السيراميك  
(الخزف) : في تل الأسود (الفرات) توجد حوالي سنة ٦٤٠٠ ق م أنية مائدة حقيقية ،  
صافية ومجلوة ، تذكر أشكالها بأشكال الألف السادس السورية - الكيليكية ، في صيغة  
أسط<sup>(٤٩)</sup> . في أماكن أخرى ، كثيراً ما تعلن تقارير الحفريات إما عن الحضور الفعلي  
لبعض الفخار<sup>(٥٠)</sup> وإما عن ظهوره الوشيك في المستويات الأعلى مباشرة ، حوالي سنة  
٦٠٠٠ ق م ، في المناجم التي تناولها التنقيب .

أخيراً ، إن حضور نؤط من النحاس الطبيعي في رماد الأولى<sup>(٥١)</sup> يشهد على اهتمام  
جديد تماماً بهذه المادة ، التي جاءت على الأرجح من الأناضول مع السيج ، لكنه لا يدل  
بطبيعة الحال على بداية تعدين إذ أن الموضوع لم يعامل حتى بالطرق<sup>(٥٢)</sup> .

### شروط التقدم التكنولوجي وطبيعته

بين التغيرات التي يكشفها علم الآثار في تاريخ «شعب» أو منطقة ، اقترح هول  
وفلانري مؤحراً<sup>(٥٣)</sup> تمثيل التغيرات التلاؤمية من التغيرات عبر التلاؤمية . تنتمي لهذه  
الأخيرة ، حسب رأيهما ، التغيرات الأسلوبية أو الطرازية التي ليس لها انعكاس اقتصادي ،  
مثلاً في الديكورات الخزفية . بالمقابل ، إن تغيرات الأدوات هي جزء من التحولات  
التلاؤمية ، ويعترض هول وفلانري بحق على ميل شائع ومتواتر إلى تأويل يعتبرها نتائج  
عزوات ، كوارث ، أو تمازج أقوام . إنهما يفضلان قتيلاً ، أن يريا فيها انعكاساً لتغيرات

(٤٧) انظر آنفاً ، الفصل الرابع (الأسود والكوم) .

(٤٨) أنها «الآنية البيضاء» في رماد الثانية ، لابة ، ييوسون ، الكوم ، بقرص الثانية ، الخ ،

(٤٩) Cauvin J. 1972 b ; 1974 a .

(٥٠) تلك قد تكون الحال في أبو هريرة الثالثة ، التي لم تؤرخ حتى الآن ، وفي رماد الثانية

(٥١) France Lanord et Contenson 1973 .

(٥٢) المشرق هنا متأخر بعض الشيء عن زاغروس حيث عُثر على لؤلؤة من النحاس المطروق في الألف  
السايع بموقع علي كوش مرحلة علي كوش (Hole, Flannery et Neely 1969) .

(٥٣) المرجع الأنف ، ص ٧ .

اقتصادية ، بدون أن نبيّن جيداً مع ذلك ، في الأمثلة التي يقترحناها ، اللعب الحقيقي لكل من الأسباب والنتائج<sup>(٥٤)</sup> .

والحال ، لقد أمكن تتبع تاريخ تل مريبط ، طبقة طبقة ، على مسار ١٥٠٠ سنة ، حيث انكشفت تحولات من كل نوع ، وحاوياً<sup>(٥٥)</sup> بمحاكاة تواريخها ، توضيح طبيعة ترابطاتها على نحو أفضل . إن «الوسط» الذي حصلت فيه بعض الاختراعات الهامة ، التي لا تشجع صفتها المبكرة على تأويلها بالاستعارة من ثقافات أخرى ، يمكن أن يراقب بعناية بنية التعرف على ما يمكن أن تعنيه كلمة «تلاؤم» أو «تكيف» .

أمكننا تمييز اختراعات تلاؤمية بالتأكيد ، حين تستجيب ، بأدوات جديدة ، لحاجات إنسانية (الغذاء ، السكن . . .) وتسهّل إشباعها . لكنها لا تبدو تتوافق مع أي تغيير في اقتصاد الزمرة : هكذا حال القاقمة ورأس السهم و ، فيما بعد ، الفأس المصقول . وإن اختراعات أخرى ، أكثر أساسية أيضاً ، هي صقل الحجر أو صنع الفخار ، لا تسهم حين ظهورها ، في أي تلاؤم من النموذج المذكور .

### قائمة مريبط ورأس السهم

إن ظهور البليطة (القاقمة) يجب أن يُربط بطبيعة الحال بحاجات قرى الفرات إلى الأخشاب ، من أجل أعمالهم المعمارية بشكل خاص<sup>(٥٦)</sup> . لكن الأعمال المعمارية نفسها ، مع الحاجات نفسها ، كانت موجودة في أبو هريرة في مرحلة من التطوفي أسبق قليلاً على الأرجح من مريبط الأولى A ، بدون أن تمثل فيها هذه القاقمة أو البليطة . إذا كانوا هم يقطعون الأوتاد (الأعمدة) بواسطة أدوات أخرى . بل ليس مستبعداً أن يكون الطزق المقذوف معروفاً لديهم ، فبليطة المريبط لا تشهد على شيء آخر سوى اختراع «نصل» حجري متخصص ، مكيف مورفولوجياً لاستعمال وحيد لا ليس فيه<sup>(٥٧)</sup> .

(٥٤) هكذا فالانتقال من ميكروليات «مرحلة محمد جعفر» إلى الأنصال الكبيرة له «مرحلة تبة سائر» يعكس بالتدريج الاقتصادي الهام ، من الزراعة البدائية ذات الصيد - القطف إلى الزراعة المروية . لا نرى جيداً ماذا يمكن أن يكون هنا «التلاؤم» المذكور .

(٥٥) J. Cauvin (a) ، يصدر لاحقاً .

(٥٦) إن قاعدة وتد مفككة ، في المرحلة الثالثة A (البيت رقم ٤٧) كانت تحمل آثاراً واضحة لعمل بالقاقمة : Aurenche ، يصدر لاحقاً .

(٥٧) لقد لاحظ ريجو Rigaud (انظر b - M. Cauvin ، يصدر لاحقاً ، استناداً على آثار الاستعمال وعلى تجارب ، أنه ، في الباليوليث الأعلى الفرنسي ، في محافظة اليندر Indre ، ←

ولقد رأينا من جهة أخرى<sup>(٥٨)</sup> أن زمن ظهور رأس السهم ، على العرات وفي فلسطين ، أي أواخر الألف التاسع ، لا يتوافق مع أي تغيير في نماذج القنص المتبعة ، كما يمكن ملاحظتها على البقايا التي جمعت . بل ولا يمكن أن نستبعد أن يكون «السهم» بوصفه مجموعاً واحداً «عصا - تسليح» قد وُجد في التطوفي ، مادامت أمثلة إثنوغرافية عديدة تشهد على أن كسرة من الصوان حادة الرأس أو قاطعة الجانب أياً تكن يمكن أن تخدم كتسليح لسهم . الاختراع قوامه هنا ، كما بالنسبة للقاقمة ، في تجهيز مبتكر يكثف هذه الشظية مع وظيفتها<sup>(٥٩)</sup> ، وهو ما يجعلنا نتعرف عليها . يمكن أن نقول ، مع استخدامنا مفاهيم من لوروا - غورهان ، نجد نفسها هكذا محققة تاريخياً ، إن لزوماً ملازماً للزمرة البشرية إلى تحسين وسائل تحصيلها قد أثار ، في أماكن ولحظات محددة لكن من الصعب التنبؤ بها ، اختراع أدوات جديدة . هذه الأخيرة تعتبر فعلاً عن درجة أعلى في التلاؤم (مع العمل المحقق) ، لكن الاندفاع الأول الذي يثير التغيير إنما يأتي من «الوسط الداخلي» : إنه ليس تابعاً وظيفياً لمعضلات جديدة يطرحها المحيط وليس له أثر أو انعكاس اقتصادي (على كل حال ، ليس له أثر مباشر) على علاقات الزمرة مع هذا الأخير .

مع ذلك ، لقد تساءلوا<sup>(٦٠)</sup> ما إذا لم يكن ممكناً الربط بين نمو أطوال رؤوس الأسهم في مريبط المرحلة الثالثة والاستيلاء على طرائد أضخم حجماً الذي أشار إليه دوكو إبان المرحلة نفسها . أخيراً قد يكون هنا ، مثال عن علاقة واضحة ومحددة بين التكنولوجيا من جهة واستراتيجية غذائية جديدة من الجهة الأخرى<sup>(٦١)</sup> . إلا أن هذا التفكير غير مأمون ،

← جرى إقباض مكاشط عادية في أذرع واستعمالها كقناصات . إذا فقد كانت الوظيفة «قاقمة» موجودة، لكنها كانت هنا تستعمل من جديد إن صنع القول عرضاً صواباً متعدد القيم ، إلا وهو المكشط ، الذي ليس هذا استعماله الوحيد . قاقمة المريبط مشتقة هي نفسها من المكشط بموجب التقية الوحيدة الوجه لحرفها شبه الدائري . لكنها تتميز عنه بمقايسها وبجهاز إقباضها (سويقة ، عتق) . تقريباً في الوقت نفسه كان اختراع الدامل في أربحا حلاً آخر لمسألة ربما مشابهة . إنه يعيد استعمال الحمت المردوح الوجه الموجود على بعض «عاول» التطوفي ويضيف إليه من أجل تحريك الحد الفاصل تقية «ضربة الفاصل» التي تجهلها قرى الفرات . بالمقابل لا يوجد أي تدبير خاص بقصد الإقباض . علماً بأن الشكل يحتم ، نظراً لعدم وجود دراسة منهجية لآثار الاستعمال ، على الوظيفة الدقيقة لهذه الأداة .

(٥٨) انظر آنفاً ، الفصل الرابع .

(٥٩) في حيز ثقافي آخر ، كان سولوتريو إسبانيا (في الباربالو Parpalló) قد اخترعوا السهم ذا السويقة والجنيحات ، الذي «نُسي» فيما بعد .

(٦٠) Ducos 1975 ، ص ٤٢ .

(٦١) علاقة مشابهة لتلك التي يقترحها هول وفلانزي في المثال المذكور آنفاً (الحاشية رقم ٥٤) .

فليست رؤوس الأسهم وحدها بل كل الأدوات الصفيحية (لاسيما الأنصال - المناجل) تخضع لنمو مشابه في المرحلة الثالثة : هذا النمو ، بينما إختفاء الميكروليثات ، مرده إلى استعمال نموذج التقصيب الجديد على نوى ذات قطبين وإن هذا التقصيب هو الجديد الحقيقي . والحال ، حسب طبقات التل ، يظهر التقصيب المذكور في المرحلة الثالثة A ، حين لا يكاد يبدأ تعديل الصيد وأما مسألة الزراعة فغير واردة بعد . فهو إذاً يسبق ، أكثر مما يرافق ، التغيرات في الاستراتيجيات . ولعله ليس سوى حالة خاصة من هذه «العودة إلى الماكروليثية»<sup>(٦١)</sup> التي تعقب الصناعات ذات الميكروليث في أماكن كثيرة من العالم وفي شروط بيئية شديدة التنوع . بدون أن ننفي نتائج الاقتصاديات على المدى البعيد بإفساحه المجال لإنتاج شئ من أدوات أكثر ملائمة ، يبدو من الواجب استبعاد كل ربط سببي مباشر .

في الحاصل ، إذا كنا نبحث بعناد ، في الأعتدة الأدواتية ، عن «اللوحنة الحساسة» التي تعكس فيها تغيرات الاقتصاد ، ففي دراستها الكمية يمكن أن نجد تلك اللوحة ، لافي التكنولوجيا نفسها . من وجهة النظر هذه ، لا يهتم أن تكون الأداة متخصصة أو لا ، وأن يكشف أو أن لا يكشف شكلها عن الملائمة لهذا الاستعمال المحدد أو ذاك . قد نكون إزاء أدوات بسيطة جداً ولا تحمل سمات دالة على وظيفتها . في هذه الحال ، يكفي أن تكون أساليب غير مباشرة ، مثلاً دراسة آثار الاستعمال قد ربطتها بقطاع معين من النشاط ، حتى يمكن لو فرقتها المتفاوتة الدرجة أن تكشف أهمية وتغيرات هذا النشاط<sup>(٦٢)</sup> وأن ترتدي بالتالي دلالة اقتصادية .

إن التقدم التقني الذي يتجلى في الأدوات الجديدة ظاهرة من نوع آخر . في أماننا ، إن اختراع سكبن الجين وتكاثرها على موائدنا ليس له معنى أو دلالة على استهلاكنا للجين قياساً مع الأمانة التي لم يكن فيها هذا السكبن موجوداً : كنا آنذاك نقطع الأحيان بسكاكين عادية ، مثلما كان الباليوليتيون يحققون الوظيفة «قائمة» بمكاشط لأكثر . فالتقدم التقني إذاً ظاهرة ثقافية قل كل شيء .

(٦٢) و «كامينيتوا» أوروبا أحد تظاهرات هذه العودة .

(٦٣) حسب الدراسة الجارية لم أنصال - مناجل مريبط الثالثة ، هناك فعلاً ، حين ظهور الزراعة ، صعود كمي لهذه الأنصال وبشكل خاص نحو لكثافة استعمالها بعد تهذيب متكرر للحدّ القاطع : M. C. (b) Cauvin ، مصدر لاحقاً . انظر أيضاً بالنسبة للتخصصات في لبنان الألفين الخامس والرابع وتطاراتها الكمية 1968 . Cauvin J .

## صقل الحجر

الصقل الحقيقي صقل بطريقة السحج والكشط . يُحصل عليه بالحك الطويل المديد للموضوع المطلوب تشكيله أو صوغه على مصقل في وضع نائم . التشكيل يمارس هنا بالتآكل الذي تسهله إضافة رمل بين المصقل والقطعة المراد صقلها . بهذه الوسيلة يمكن صقل الأحجار القاسية التي لا تشكل بالتشطية أو حتى الصوان الذي هو نفسه قابل لنحت<sup>(٦٤)</sup> .

لعلّ البدايات الأولى لهذه التقنية<sup>(٦٥)</sup> تشهد أنواط نطوفي المربط المصنوعة من الحجر الأخضر (الرسم ١٨ ، رقم ١) : إنها أغراض زينة ، وفي الوقت نفسه توائم على الأرجح . القضبان المصقولة التي تلبها لم يعثر عليها في مكانها ماعداً واحداً منها فوق قبر . احتمال أن تكون أدوات شغل ضعيف جداً<sup>(٦٦)</sup> . لقد رأينا أن القاقمة المصقولة<sup>(٦٧)</sup> التي هي فعلاً أداة شغل لا تظهر إلا في أواخر المرحلة الثالثة ، نحو سنة ٧٧٠٠ ق . م .

الفأس المصقول يحقق تقدماً تلاموياً على الفأس المقطوع ، هذا أمر لا جدال فيه ، إن صقل الحدّ القاطع في الصناعات الفلسطينية التي تقتقد للحجر القاسي هو الذي سوف يعطي ، في أواخر الألف السابع ، الفأس الصواني مزيداً من الفعالية (الرسم ١٦ ، رقم ٣) . الفأس (أو القاقمة) المصقولة هي بحد ذاتها اختراع من نفس نوع اختراع السهم القاقمة المنحوتة . ونرى جيداً في مريبط أنها ناجمة عن مزج يجمع ، في خلق جديد

(٦٤) هذه التقنية يجب أن تميز عن مفعول الصقل الذي يمكن تحقيقه أيضاً على مواد أقل قسوة (عظم ، حجر لينة) : بالكشط العادي بواسطة نصل من الصوان (Storddeur ، قيد الطبع ، 1974 Newcomer) . ولهذا السبب ، فالعظم «المصقول» في الباليوليتي الأعلى ليس بأي حال صورة مسبقة عن الصقل الباليوليتي .

(٦٥) إن صعوبة تأريخ بعض المواقع العراقية مثل كرجم شهر (وفيه أساور مصقولة من الرخام) أو راوي شيمي شانيدار (وفيه قوس مصقولة) تترك مسألة بداية الصقل في العراق مفتوحة . مع ذلك لا يبدو أنها أقدم من الألف الثامن . انظر آنفاً الفصل الخامس ، الحاشية ٤٧ .

(٦٦) هذه القضبان وجدت دائماً مكسورة ، لكن فحص الآثار المسكة العادية على طرفها غير احاد لم يعط نتائج حتى الآن .

(٦٧) القطع ذات الحافة المشطوبة (أو الحرف المائل) لا يمكن أن تكون سوى قاقمات . «العروس» ذات الحرف المتناظر ، التي يمكن إقباضها كقاقمات لا تبرهن إذن على أن «الوطيمة فأس» كانت معروفة آنذاك .



وعلى نفس المادّة التي صنّعت منها التماثيل التطوفية<sup>(٦٨)</sup> اختراعين موجودين أصلاً ، لكنّ لهما مصيران منفصلان في مكان واحد طيلة ألف سنة تقريباً ، وهما اختراع الفاقمة واختراع الصقل .

هنا أيضاً ، هذا الخلق تلاؤمي وهو في الوقت نفسه بلا مرمى اقتصادي مباشر ، إذ أنه في البداية إنما يحلّ ، في المهام اليومية نفسها ، محلّ أداة أقلّ تحسّناً لأكثر .

لكن ماذا نقول عن اختراع الصقل نفسه ، سوى أنه لم يكن محروصاً في البداية ليس فقط من قبل أية ضرورة اقتصادية ، بل ولا من قبل أيّ قصد « عملي » أيضاً ، أي أنه لم يكن بأيّ حال تلاؤمياً في مملكة « حاجات الأساس » ولا في مملكة الفعل في البيئة ؟ إن منفعة الأدوات ، مع أنها مدعّوة إلى نجاح كلّ ، لم تُدرك في الحاصل من قبل الثقافة التي كانت قد اخترعتها إلا بعد انقضاء ألف سنة على الاختراع نفسه بالمعنى الحقيقي للكلام . . .

إن تاريخ أصول الفن الخزفي ، في بلاد الشام ، منفسح المجال لملاحظات شبيهة .

### معضلات الوعاء وبدايات الفخار

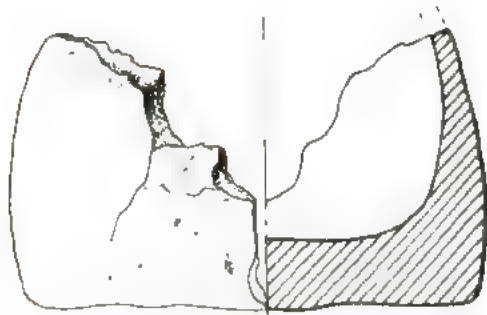
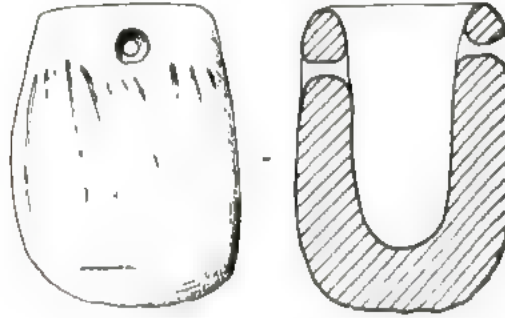
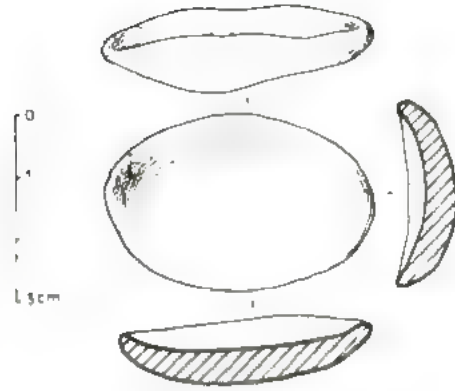
نعلم الأهمية التي ارتداها اختراع الخزف في النشاطات المنزلية والمطبخية . فالفخار المطبوخ يستجيب للحاجة إلى وعاء غير نافذ للماء ومقاوم للنار بأن معاً . وهو وحده الذي سمح ، قبل المعدن ، بطبخ الأطعمة السائلة .

تقنياً ، إنه المأل الذي انتهت إليه ، من جهة ، ألفّة مع الخصائص البلاستيكية للفضار المخلوط بالماء التي تسمح بتشكيله ، ومن جهة أخرى معرفة وسيطرة كافية على تقنيات النار لتصلب نتيجة التشكيل عن طريق الطبخ .

والحال ، لقد أمّى وادي الفرات في وقت مبكر جداً هذه المعارف<sup>(٦٩)</sup> ، أولاً بواسطة استعمال مبكر وهام للفضار في البنى المنشأة : ليس فقط طلاءات الأرض والجدران نفسها ، بل ، في مريوط ، التليس الداخلي للحفر - المواقد . منذ المرحلة الثانية ،

(٦٨) يمسك أديحا النيوليتي السابق للفخار A حيث لا يوجد تقليد محلي لصقل الحجر القاسي وحيث العأس المصقول ، النادر ، استعارة واضحة

(٦٩) Schmandt - Bessera 1977



الرسم ١٩ خدفيات من الطور الثالث A في مريوط : طاسة بيضوية ٢١ - طاسة مزخرفة مع ثقب للتعليق ، ٣ - وعاء بمستوي عميق .

هذه الحفر الأسطوانية ، التي كان يتم فيها طبخ الطعام على حصى<sup>(٧٠)</sup> ، كانت مطلية بالفضار المكمل : الاستعمال المكرر للحفرة كان إذاً يحولها إلى «فخار» حقيقي ثابت . والفكرة الجديدة والحاسمة ستكون ، في المرحلة الثالثة ، الانتقال من هذا الطبخ غير الإرادي إلى الصنع المتعمد ، بنفس العملية أو السيورة ، للأغراض المقولة (أغراض الأثاث) الأولى .

لكن ماهي هذه الأغراض ؟ من جهة ، إنها تماثيل صغيرة للإلهة ، مطبوخة بشكل جيد ، ومن جهة أخرى ، أوعية صغيرة جداً ، بعضها جيد الطبخ (الرسم ١٩ ، رقم ١) والآخر بالعكس (رقم ٢ - ٣) ، فالتقنية لم تُتقن<sup>(٧١)</sup> ، لكن هذه الأغراض ، نحو سنة ٨٠٠٠ ق م ، هي الشواهد الأولى المعروفة عن صناعة فخار حقيقية<sup>(٧٢)</sup> . غير أن هذه الأوعية هي بأن معاً أصغر وأندر (مجموعها خمسة في مريض) من أن تتدخل بشكل فعال في الممارسات الطعمية ، فهي لا تبدو تستجيب للمسألة المنزلية التي يفترض في صناعة الفخار أنها تحلها وسوف تحلها فعلاً في وقت لاحق . من جهة أخرى ، إن الأوعية المعنية ، بعد بضعة قرون من هذا الفصل القصير ، ستختفي لمدة طويلة ، أضف أيضاً أن استخدام الطين المشوي في أسود (دمشق) الثانية لن يعيش ، في مطلع الألف السابع ، إلا في شكل تماثيل نسائية حصراً .

أخيراً ، فقط في النصف الثاني من هذا الألف نفسه سيقوم فخار استعمال حقيقي أخذاً مكانه في الأثاث العادي لبعض المواقع كتل الأسود ، في حوض الفرات مرة أخرى . ذلك سيكون الوقت الذي سيحقق فيه تحسين «فنون النار» طلعته في عدة ميادين معاً ، فالكلس ، الذي لحظ بادئ بدء ، كالفخار المطبوخ ، في مستوى كشوات ثابتة لمنشآت ، سيستخدم أيضاً ، في تجربة بلاغد<sup>(٧٣)</sup> في سورية وفي فلسطين ، في صنع أوعية .

هكذا فلا الحجر المصقول ولا الفخار ، حين نتوصل إلى مراقبة الأزمنة الأولى

لظهورهما مراقبة حقيقية ، يدوان اختراعا «تلاؤميان» ، مادام كلاهما يرى في سياق تزييني أو ديني أكثر منه نفعي<sup>(٧٤)</sup> . تسير الأمور وكأن كل اكتشاف هام حقاً ، لأنه ناتج عن السيطرة على مادة جديدة أو عن طريقة جديدة جذرياً في تحريك مادة اعتيادية ، كان يطبخ منتجاته الأولى بمهابة تجعله يحفظها لميادين أكثر «تقييماً» من تلبية الحاجات البيولوجية . هذا ماجعلنا نقول<sup>(٧٥)</sup> أن كل اختراع لهذا المستوى يمر بادئ بدء بلحظة «رمزية» ، وأن ضرورة هذه المرحلة تزداد كلما ازداد غنى الاختراع المعني بالتطبيقات الثورية بعد حين .

هذه التطبيقات بدت لنا ملكاً للحظة ثانية ، حين يأتي نوع من «ابتدال» للاختراع الأول فيشره في الحياة العادية ويجعله ، بتداعيات حصبة للأفكار (اختراعات مشتقة) ، نافعا حقاً .

ألا يرجع ذلك إلى القول بأن البواصث النفعية لاشأن لها في ظهوره ؟ إذ ليس فقط ليس لهذا النموذج من الاختراع أي مدى اقتصادي ، بل هو لا يبدو ملئياً ، حين يظهر ، لأي نزوع إلى تسهيل ولا إلى تحسين التكنولوجيات الموجودة . الصقل سوف يحسن إصابات القفوس . لكنه لم يُخلق من أجل ذلك . هنا نحن في ميدان الجمالي أو السحري أو الديني ، أي نحن تماماً في ميدان «الثقافة» بعنصرها الأقل براغماتية والأكثر انطواءً على عالمها الذهني . ليس فقط في «الوسط الداخلي» ما ينبغي إذاً البحث عن الضغط الأول الذي أثار أو سبب الاختراع ، بل إن «الوسط الخارجي» لا يبدو مقدماً له في أقصى حد سوى العناصر المادية : إنه ليس «هدفاً» من قبل المجهود الخلاق .

لم يُستند حتى الآن إلا إلى مدلول «راهن» جداً ، أي مادي جداً للنفعة : الحصول على الطعام وإعداده ، إنشاء المساكن ، الخ . . . ، أي باختصار كل هذا الذي بلوّن ويعتدل «العلاقة الأيكولوجية» والأنماط البيولوجية للاندماج الانساني مع المحيط . من وجهة النظر هذه ، بدت لنا بعض الاختراعات «غير نافعة» .

مع أن حضور أغراض من الطين المشوي نحو ٨٠٠٠ ق م في عدة مواقع يبيّن أن لسنا هنا إزاء الخيال المجاني لفرد فائق الموهبة . هذه الأغراض لها مكانها في ثقافة ، الاختراع ذو طابع اجتماعي - اشتراكي ، من الصعب القبول بأنه لا يلبي بضع حاجات

(٧٤) سيكون الأمر كذلك في أرملة المعدن الأولى حيث كثيراً ما سبق اربيه الحاكوسيه (والعجري النحاسي) أداة الشغل .

(٧٥) Malefant et ... ص ٥٠ .

(٧٠) كما تبين الطعام المحروقة في أحيان كثيرة التي عُثر عليها على السطح أو حول هذه الحفر : Cauvin J . 1972 (C) ، ص ١٠٧ .

(٧١) إن تحليلات بحريها M. Le Miere (مدنية يون في فرنسا) تقدّم إيضاحات عن هذه التقنية . (٧٢) يوجد تاريخ بالكربون ١٤ (٨٠٠٠ ق م) مصدره البيت رقم ٤٧ حيث عثر على معظم هذه الفخاريات .

(٧٣) Balfet et ... 1969

أكثر إرهافاً من تلك التي كنا نفكر بها ، لكنها مع ذلك جماعية . وهذه الحاجات إن هي إلا تلك التي تحدّد في المجتمعات حقل الدين ، الفن ، الأيديولوجيا ، أي باختصار حقل هذا الذي يدعى الثقافة غير المادية . إنه الأصعب على التناول الموضوعي بالبحث الأثاري ، إنه أيضاً الحقل الذي تؤثر فيه الخيارات الأيديولوجية الشخصية لعلماء الآثار أو لوسطهم تأثيرها الأكبر على التأويلات . بات من الضروري القيام بعزوة على هذه الأرض إتماماً لقصتنا عن التغيرات في بلاد الشام .

## الفصل السابع

### الوثائق الفنية والدينية

لقد اعتمدنا إلى هنا «الثقافة» ، أو «الوسط الداخلي» ، نوعاً من لجوء تعليلي في كل المرات التي كان المطلوب فيها فهم بعض «التشوهات» في تلاؤم القرية مع البيئة ، وفي كل المرات التي كان يظهر فيها استقلال ما للزمرة الاجتماعية ازاء الضغوطات البيئية . هذا الاستقلال يجد تعبيره في بعض الخيارات غير المتوقعة ، أو بعض الاختراعات التي ليس لها هدف عملي ، بالتناقض مع المخطط الزائد البساطة محوّر - استجابة الذي مازال يغيب ، في شكل صريح أو لا ، عند كثير من علماء ما قبل التاريخ الحديثين . في الحاصل ، خدمتنا «الثقافة» في تبرير كل تلك البقية من وقائع ، التي لا تُعمل باعتبارات بيئية ، والمتدخلّة في صلب نشاطات التحصيل الأولية الأكثر توجّهاً نحو تأمين البقاء المادي . عند الحدّ الأخير ، ظهرت الثقافة كأنها «صوت» أو «ضجّة» (bruit) كما يقال في المعلوماتية ، صوت بشري نوعياً يُبعد مجتمعنا القروية عن الطريقة الأكثر براءةً وغريزةً ألف مرّة التي بها تسجّل وتستخدم المجتمعات الحيوانية بيئتها المحيطة .

يجب أن نذهب إلى ابعد وأن ننقل الآن تحزينا إلى نظام جديد من الوقائع ، الفنية والدينية ، حيث يُفترض أن «الثقافة» تتجلى في وضعها الخالص ، بدون مرمى أمبيريقى<sup>(٥)</sup> صريح ، علماً بأن هذا لا يحول دون تنوع كبير في التأويلات الممكنة عن الطريقة التي يتمفصل بها هذا الميدان فعلياً مع الميادين الأخرى . بالحقيقة ليس وجود هذه الثقافة هو ما يُشكل . لا يشك أحد في أن حاسة المجتمعات

(٥) - أمبيريقى empirique أي «تجبري» ، تجريبي الناشر .



الإنسانية هي إفراز مجموعة كاملة من المواقف الذهنية ومن البناءات غير المادية ، قابلة للنقل من أجيال إلى أجيال ويقال لها ثقافية ، ولأنني أن هذه البناءات ، الموصوفة أحياناً بأنها «بنى فوقية» ، تفعل فعلاً «راجعاً» إن صبح القول على البنى التحتية ، ويمكن أن تطبع التصرفات اليومية الأكثر عينية . لكن العلاقات المتبادلة بين هاتين الدائرتين أو الكورتين ، الامبريقية و«الايديولوجية» ، مازالت بعيدة عن الوضوح . حين يعتبر بنفورد أن الثقافة إن هي إلا مجموعة الوسائل اللا بدنية ، أي غير المتحكم بها توريثياً ، التي تخدم في إحكام الإنسان على منطوقته البيئية<sup>(١)</sup> ، فإن هذا التعريف ، مع احترامه البادي لخصوصية العالم الثقافي ، إنما يعكس ، في حشية أصل وغاية هذا الأخير ، حياراً قلبياً : إنه ليس نتيجة لحث .

فالمأل هنا ، كما رأينا<sup>(٢)</sup> ، هو إضفاء الامتياز في سلسلة التطور السببية ، على ضرورة التلازم مع البيئة الطبيعية بوصفها احتياطياً قوياً بالنوادر الحيوية ، حتى إذا اعترف بأن الوسائل المستخدمة ليست دوماً مادية . تبقى الثقافة وسيلة لحل العضلات ذات الطابع الاقتصادي ، فهي إذاً صدور عنها ، وكأنها «ظاهرة مضافة» ملحقة بقاعدة يتناولونها بمفردات أو حدود بقاء بيولوجي .

هذا التصور إن هو إلا نقل لاقتصادوية راهنة ألبست مفردات ايكولوجية (يعني) إلى ميدان عمل علماء الآثار . إنه غير مبرهن علمياً من قبل ميداننا أو انضباطنا . لا شيء يسمح قلبياً باستبعاده ، ولا كذلك بقبوله . حين تعانين ظاهرتان في وقت واحد ، كما يحصل في لانتوغرافيا مثلاً ، كثيراً ما تكون معرفة أيهما يؤسس الآخر وهو سه ، مسألة خيار عقيدي أو مذهبي . لكننا نعلم أن التحليل المرفف لترتيب ظهورهما أو نظامه التاريخي يمكن أن يقدم في هذا النوع من الإشكال ، بعض الحجج التي لاثرذ ، هذا ماينبغي الآن أن نحاوله بالنسبة للميدان الجديد الذي نتناوله .

كما في الباليوليتي ، ستكون الوثائق أولاً بأول تصورات ، سواء تم إنجازها بالرسم أو التشكيل (القولبة) أو غير ذلك . بها يُظهر إنسان ماقبل التاريخ على النحو الأفضل نشاطه التفكير ، حقيقة أن العالم الذي يحيط به هو بالنسبة له موضوع فكر وحيال . حتى حين ينشئ عن الواقع المدرك نسخة هي على مايكفي من الأمانة ، من الجلي أنه ، في

(١) Binford 1968 ، ص ٣٢٣

(٢) انظر أنفاً ، الفصل الأول ، عند الحواشي ١ - ٣

إعادة الإنتاج<sup>(٣)</sup> هذه ، لاينقل كل شيء ولا أي شيء كان : الصورة التي أعاد إنتاجها ، رسماً أو تمثالاً ، هي تذكير رمزي أو إحضار رمزي لواقع محدد ، اختاره بين ما لاحصر له من الممكنات المعروضة للادراك الحسي<sup>(٤)</sup> . حضور هذا الحيار ، واقع أن هذه الثنية الخيالية للعالم الامبريقي (عالم الخبرة الحسية) التي يجتدها الفن عيانياً ليست سوى ترجمة منقاة ، مؤولة ، تبرز فيها بعض الموضوعات بينما تهمل غيرها ، ذلك هو الطريق الأول الذي يفتح لنا لا من أجل إعادة تكوين العالم المحيط برجال ماقبل التاريخ بل من أجل إعادة تكوين الرؤية الذاتية التي كانت لهم عنه . من البدهي أن هذه الرؤية الذاتية هي ثمرة فاعلية الروح - الذهن الذي لا يستعير بعض العناصر من الطبيعة إلا لأنه يعطيها معنى .

كذلك في عالم «التمثيل»<sup>(٥)</sup> ، عدا عالم الفن ، ينبغي إلحاق كل عمليات الصف أو الترتيب القصدية للعناصر الطبيعية (عظام ، معادن) أو التقنية (artefacts ، صعية - فنية) حين لا تكون هذه الصفات أو الترتيبات نفعية لكنها مع ذلك دلالية<sup>(٦)</sup> . هكذا في نل مريض ، إن جماجم «الثور الكبير» وغيرها من العظام الحيوانية تشارك في تشكيلات من هذا النوع ، ذات قيمة دينية . والأمر كذلك عن المدافن البشرية ، لاسيما وأنه ، فضلاً عن واقعة الدفن التي هي بحد ذاتها غير نفعية ، يمكن أن يشهد ترتيب الهيكل العظمي ومعاملة أجزائه والأعراض المتنوعة المشاركة في هذا الترتيب على خلفية ايدولوجية هامة .

سنسعى إذاً ، انطلاقاً من الوثائق المتوفرة عن بلاد الشام<sup>(٧)</sup> ، إلى لحظ بعض المعطيات ذات الدلالة على الطريقة التي كان بها القرويون الأوائل يتناولون ذاتياً عالمهم ، أي من جهة محيطهم الطبيعي ومن جهة أخرى واقعهم الانساني الخاص . سوف نرى أننا هنا أيضاً نشهد تغيرات : قد يكون من المفيد أن تجابه بالتغيرات الأخرى .

[لذكر أن reproduction = نسخة ، إعادة إنتاج ؛ وأن reflexion = تفكير ، انكار ، من reflect = انعكاس ؛ وأن speculation (مضاربة تأمل نظري الخ) من speculum اللاتينية التي تعني «مرآة» ؛ وأن theorie (نظرة) من theoria اليونانية وتعني «نظر» ؛ imagination (خيال ، تخيل) من image = صورة]

(٢) لقد سبق أن بين لوروا - غورهان ان التشخيصات (التحليلات) الحيوانية في الباليوليتي لا تعطي لائحة الأنواع المقصودة .

[representation = إحضار]

(٤) انظر Leroi - Gourhan 1964

(٥) انظر : Cauvin J. 1972 ، من أجل المجد التمهيلي .

## إدراك البيئة الطبيعية

التمثيلات البلاستيكية (تمائيل - أشخاص) ستكون هنا مصدر استعلامنا الرئيسي . إنها جوهرياً تمثيلات حيوانية ، فالعالم النباتي لا يعبر نفسه ، بنفس السهولة ، لإعادة الانتاج التصويرية .

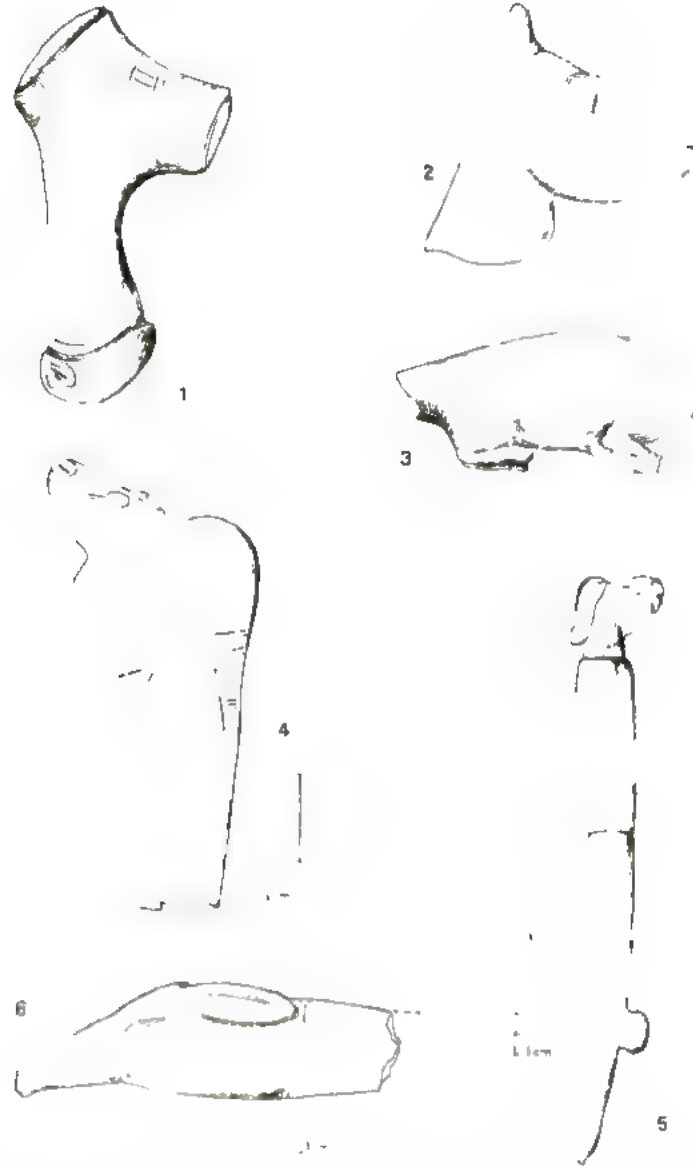
### الوثائق

٨٣٠٠ إلى ١٠٠٠٠

إن عصر القناصين - القاطنين التطوفين هو أيضاً العصر الذي تتظاهر فيه النشاطات الفنية الأولى في الشرق الأدنى ، إذ لا نعرف له فناً باليوليتا . ولقد سبق أن سجلنا في مكان آخر<sup>(٦)</sup> السمات الجوهريّة الثلاث لهذا الفن النطوفي :  
- كما في الرسوم الفرانكو - كانتابرية<sup>(٧)</sup> ، نرى هنا من البداية أسلوباً جذاً «تصويري» ، هو الغالب ، وتمثيلات «تخطيطية» .

- تمثيلات الحيوان هي الشيء الأهم ، أما تمثيلات الانسان فهي استثنائية .  
- الأنواع الحيوانية الممثلة تبدو قليلة التنوع تماماً : مع أخذنا في الاعتبار صعوبة تحديد هوية التمثيلات الأكثر تخطيطية ، يبدو حقل الممكنات محصوراً في الغزلان والأيليات .  
معظم الوثائق آت من اثنين فقط من القطاعات التي أصاب فيها التنقيب محتلات نطوفية وهما جبل الكرمل وبادية جنوبي القدس . هذه الوثائق عُثر عليها في كهوف ، أي في الشكل الأكثر قدماً (الشكل غير القروي) للثقافة النطوفية .

سنذكر عن المنطقة الثانية التمثال الكلسي الصغير ، الواقعي جداً ، في أم الزويتينه (الرسم ٢٠ ، رقم ٣) ، الذي وُجد مطلياً بالمغرة ، وعن جبل الكرمل التماثيل الثلاثة التي عُثر عليها في وادي الفلاح ، وهي تخطيطية (رقم ١ ورقم ٢) ، وهي حسب تأويل مخترعها رؤوس غزلان<sup>(٧)</sup> : علماً بأن أحد هذه التماثيل منحوت على طرف قرن غزال ، لكن تماثلاً آخر (رقم ٢) يأتي من القرن الطويل لأحد الأيليات . هناك من جهة أخرى



الرسم ٢٠ - تمثيلات حيوانية من النطوفي : ٢ ، ١ وادي الفلاح ، ٣ ، أم الزويتينه ، ٤ إلواد ، ٥ - ٦ ، كياره .

(٦) Cauvin J. 1972 a

[ه الجبال الكانتابرية تمتد جبال البيرينه في شمالي إسبانيا]

(٧) Stekelis et Yisraely 1963

تزيينات أو ديكورات محدّبة لـ «مقابض مناجل»<sup>(٩)</sup> ، أحدهما من قرن أثلي في موقع إلواد (الرسم ٢٠ ، رقم ٤) وأربعة غيره من العظم في موقع كياره (رقم ٥ ، ٦) ، تمثل كذلك عزلاً أو أثليات ، وأخيراً مدق من البازالت ، في الواد ، منحوت في شكل حافر أحد ذوات الخلف .

إذا خرجنا من ميدان الفن للاهتمام بإعادة الاستعمال الرمزية لعناصر من هياكل حيوانية ، حضرت لنا ثلاث وثائق فقط : أولها ثلاثة عراقيب عظمية لغزلان في قبر جماعي بموقع عين ملاحه<sup>(١٠)</sup> ، والثاني أسنان خيليات في مدفن ، بموقع عرق الأحمر ، وتصحب كل منها إحدى الجماجم على ما يبدو<sup>(١١)</sup> ، والأخير هيكل كلب أشرنا إليه سابقاً<sup>(١٢)</sup> ، وقد اكتشف مؤخراً في

عين ملاحه كتكملة قضيدي لمدفن بشري في الدرجة الأولى . يمكن أن نضيف الاستعمال الخاص للقواقع في الزينة ، وقد ذكر في كل مكان تقريباً (سنيات في جبل الكرمل وفي النقب ، «تيودوكسوس» في مريط) وبيض نعام مزين في رأس زين<sup>(١٣)</sup> .

قد تبدو هذه الوثائق جميعاً غير ذات شأن إلا أنها على ما يكفي من الكثرة ، إذا ما تذكرنا أن التحف الفنية نادرة بطبيعتها وأن معظم هذه الأغراض والوثائق الأخرى التي ذكرناها قد عُثِر عليها في سياق عملية دفن . وغياها على الفرات بشكل خاص يمكن أن يكون مرده لمصادفات حفريات مازالت محدودة ولم تسفر عن اكتشافات مدافن .

بخاصة ، إن هذا المجموع يمكن أن يتفارق بوضوح عن حصيلة الحقبة التالية .

٨٣٠٠ - ٧٦٠٠

العصر الذي سبى الآن لزهارة التجارب الزراعية الأولى لم يعطنا حتى هذا اليوم

(٨) إن تحديد هوية هذه الأغراض بأنها «مقابض مناجل» مبني على حضور أبعاد لتركيب اتصال صوانية متالية على طوله ، لكن لم يُعثر على أي نصل في المكان وبالأحرى على أي نصل ملقح . هذا يدفع إلى الحذر ، ومن الأفضل الآن تسميتها «مقابض سكاكين» .

(٩) Perrot 1966 a

(١٠) Neuville 1951

(١١) انظر آنفاً ، الفصل الخامس ، عند الحاشية ٣١ .

(١٢) Henry 1976

سوى موقعين فيهما تماثيل ، أحدهما ، تل أسود دمشق ، حيث هي جميعاً حيوانية ، والآخر ، مريط ، حيث هي بالعكس إنسانية . على الصعيد التقني ، الحديد في الحالتين هو استخدام الطين المطبوخ .

على عكس ما رأينا في التطوفي ، تبدو الأنواع الحيوانية الممثلة في أسود المرحلة الأولى بالغة التنوع : بقريات ، ماعريات (عنز بري ، غزلان) أو خنازير بريّة<sup>(١٤)</sup> .

في مريط ، حيث لا يوجد فن حيواني ، إلا أننا نجد في جهات التمثيلات «غير الفنية» وثائق هامة . الوثائق الأقدم تأتي من مطلع المرحلة الثانية ، نحو ٨٢٠٠ ق م ، وهي شواهد الترتيب القضيدي لجماجم الثور *Bos primigenius* داخل مصاطب من الغضار : في إحداها ، الجمجمة تامة ، موضوعة أفقياً ، الحطم نحو الغرب ، تصحبها ثلاثة ألواح (عظام الكتف) ، اثنان للور والأخير لجماجم<sup>(١٥)</sup> ، بغياب أية عظام أخرى ، والكل كان مغموراً في غضار أصفر مكمّل ، شبيه بالغضار الذي يزين الأرض والجدران . الجمجمة الثانية لم تكن تامة بل كانت «مفصلة» ، وأجزاؤها مصفوفة ، القرنان متوازيان ، فوق مساحة ضيقة داخل كتلة من الغضار المكتمل كأنها تشكل نوعاً خارج جدار بيت مستدير . عدا ذلك ، كانت بعض العظام الأخرى إلى جانب هذه العناصر : عذّة أجزاء من حوض بقري ، ولوح حمار وهي العظمة الوحيدة التي لا تنتمي للنوع المعني . هذه العظام جميعاً كانت تؤلف كوماً متراففاً ، عناصره متلاصقة ومن الجلي أنها رُتبت مرة واحدة . ليس ثمة شك في أننا هنا أيضاً أمام ترتيب قضيدي .

يمكن التساؤل ما إذا كانت للمقرون البقرية التي وُجدت داخل الجدران في المرحلة التالية (الثالثة A) في تل المريط دلالة مشابهة . فلقد رأينا<sup>(١٦)</sup> أنه كان يحدث آنذاك أن تُصنع جدران باللين الخشن مع شتى أنواع الحجارة والعظام المخلوطة بالتراب بدون أي هدف آخر سوى الهدف التقني . إلا أنه لم يُعثر على قرن في كل الجدار الغربي للبيت رقم ٤٧ المشيد حسب هذه التقنية . بالمقابل ، عثر على قرن بقري ، منفرد ، في الجدار الأوسط لهذا البيت وللبيت رقم ٤٢ (الرسم ٨) ، وهو جدار مبني من الحجارة المسطحة الملحومة بالغضار بدون أية عظام . وبخاصة ، في الجدار الشمالي للبيت رقم ٤٧ ، كانت بنية غضارية تؤكد الظاهرة نفسها : كان قرن ثوري مسحوق موضوعاً على قاعدة من

(١٣) Contenson 1972 ، ص ٧٨

(١٤) هذه التحديدات وكذلك التالية هي من P. Ducos الذي حرّر جماجم الثيران .

(١٥) انظر آنفاً ، الفصل الرابع ، الحاشية ٥١ .



لحيوانات ، معظمها على ما يبدو أبقار<sup>(١٦)</sup> ، فقط واحد منها مشروح<sup>(١٧)</sup> . هذه التماثيل ، من الطين النقي ، التي يشير إليها يرو في موقع محطة ٦ - ٤ : كثيراً ماتمثل حيواناً طويل القرنين<sup>(١٨)</sup> : أحدها<sup>(١٩)</sup> يبدو كأنه كبش . في موقع البيضا<sup>(٢٠)</sup> ، يوجد تماثيل من الطين المشوي لعنز يزي (الرسم ٢١) ؛ يرد أيضاً ذكر قرنين لثور من الغضار المطبوخ وتمثيلات بالمادة نفسها لعرات وأكباش<sup>(٢١)</sup> .

في سورية ، تستمر تماثيل أسود (دمشق) الأولى في المرحلة الثانية ؛ مريبط الرابعة لم تسفر عن وجودها ، لكن ليس لهذا دلالة كبيرة نظراً لضيق المساحة التي شملها التقيب . خارج هذه التمثيلات ، تجدر الإشارة إلى أن الغرايات المعينة بين بقايا الماعز في الحيام ١ - ٢ تؤل<sup>(٢٢)</sup> على أنها نتيجة ممارسات دينية (تضحيات) : كثرة استثنائية للأفراد دون الشهر الأول (٨٣٪) ، هيئة تامة لجسم العظام بلا آثار لنزع اللحم أو لظهور ، وغياب مدهش للجماجم والسلاميات مع أنها بوجه عام تحفظ جيداً . هذه الواقعة الأخيرة يمكن تعليلها ، حسب دوكو ، باستعمال خاص لجلد صغار الماعز (والرأس والقوائم تُنزع معه) ، لكن الكثرة الفائقة للمواليد الجدد وعلام عدم استهلاكها تدير ظهورها تماماً للمصلحة الاقتصادية لكل مربٍ راجٍ بحيث لا يذبح من الاعتراض بدوافع من نموذج آخر .

٦٦٠٠ - ٦٠٠٠

أخيراً حقبة «النيوليتي السابق للفخار B الحديث» لم تُسفر بالنسبة لفلسطين إلا عن وثائق أبو غوش التي هي تمثيلات لبقرات : رأسان ثوريان من «الطين المصلب» وقرن من الحجر<sup>(٢٣)</sup> .

في منطقة دمشق ، توصل الغريفة في مرحلتها الأولى تماثيل أسود ، منها تمثيل

(١٦) Garstang et Garstang 1940 ، ص ٥٠ ؛ Kenyon 1957 ، ص ٦٠ .

(١٧) Kenyon 1957 ، اللوحة ١٩ .

(١٨) Perrot 1966 ، ص ١١ ، رقم ١ .

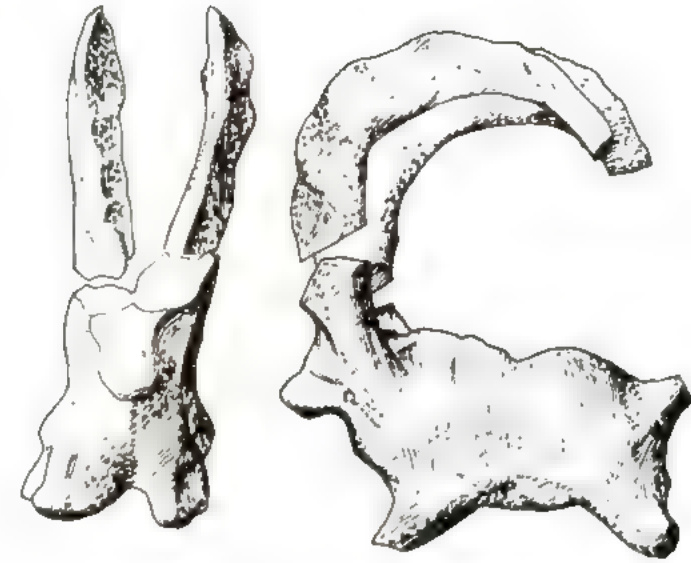
(١٩) Perrot 1967 ، ص ١١ ، رقم ١ .

(٢٠) Kirkbride 1966 .

(٢١) Kirkbride 1967 ، ص ١٠ .

(٢٢) انظر أنفاً ، الفصل الخامس ، عند الحاشيتين ٧٥ - ٧٦ .

(٢٣) Dollfus et Lechevallier 1966 ، الرسم ٥ .



0 3 cm

الرسم ٢١ - عنز يزي من الطين المشوي في البيضا (نقلاً عن Kirkbride)

الحجارة ومغطى بشرائط سميك من الغضار الأصفر ، هلالتي الشكل ، طوله ٦٠ سم ، عرضه ٢٠ ، وسمكه كذلك . هذه البنية كانت موجودة في الحدار على ارتفاع ١٠،١٠ م فوق أرض البيت . وقد عُثر على قرن آخر في سلك الحدار ، أبعد بـ ٥٠ سم ، خارج «البنية» التي وصفناها ، لكن في المستوى نفسه تقريباً .

إذا فهذه ممارسات المرحلة الثانية التي استمرت ، لكن مع استعمال القرون وحدها بدلاً من المجموعة كاملة .

٧٦٠٠ - ٦٦٠٠

العصر الذي يتوافق مع مريبط المرحلة الرابعة ومع النيوليتي السابق للفخار B القديم بفلسطين أعطى عدداً كافياً من تمثيلات الحيوان العصرية . لسوء الحظ ، إن تقارير الحفريات تذكرها أو تنوّه بها أكثر مما تنشرها . عن أريحا ، يرد ذكر تماثيل عديدة

لخزير<sup>(٢٤)</sup> وقرون . بعض ذوات القوائم الأربع تستمر في المرحلة الثانية . هي الرماد ، التمثيلات الحيوانية عديدة ، وهي في الغالب من العصر النوبي وثقافة الصنع ، وأحياناً من العظم ، معظمها محترقات صغيرة وخيليات<sup>(٢٥)</sup> أو حيوانات لا يمكن التعرف عليها .

على الفرات ، توجد أيضاً تماثيل حيوانية في أبو هريرة<sup>(٢٦)</sup> ، جميعها من الغضار النوبي ، وإن كانت بعض الأغراض الأخرى من الغضار المطبوخ موجودة منذ ذلك الحين . لانعرف الأنواع المثلثة ، على الأرجح لأنه من الصعب تحديد هويتها . كذلك في الجزيرة ، حيث وُجدت في تل الأسود<sup>(٢٧)</sup> حيوانات من الطين ، تامة أو محزاة ، لكنها غير قابلة للتحديد . لكن توجد قرون صغيرة ملوثة بشكل خفيف : إذا كانت هذه السمات معتقدة ، فقد تؤثر على ماعز أهلي .

## مناقشة

الوثائق الفنية ، كما يرى القارئ ، تشكل مجموعاً على ما يكفي من الغموض وأنه لمن الجسارة أن يزيد المرء في الاستنتاج . هذا مرده إلى واقع أن النطوفي وحده قدم تماثيل ذات مستوى فني كافٍ لنشرها بعناية . فيما بعد ، كثيراً ما تلعب مادة أكثر هشاشة (الغضار) وصناعة أكثر ارتخاء دور إحباط . على كل حال ، في المنشورات الأولية التي ينبغي الاكتفاء بها دوماً تقريباً ، نجد ذكراً لهذه الأغراض مع قليل من الصور وبدون أي عد أو إحشاء بشكل عام . هذا كله يحول دون العمل المفيد لموضوعنا ، ألا وهو ، بالنسبة لتوزيع الأنواع ، إقامة تجاوبه بين ما يمثل وما يستهلك . تلك هي الطريقة الوحيدة لإظهار توافق أو بالعكس تباعد ذي دلالة بين الصعيد الأيديولوجي والصعيد المادي .

فقد رأينا أنه يوجد تصور للأديان البدائية يجعل من إنتاجاتها الفنية ومن معتقداتها محض ترجمة على صعيد الخيال لاستراتيجيات التحصيل . هكذا ، في نظر ينسن ، ينتمي الحيوان «المؤله» (رب الحيوانات) عند شعوب الصيد للنوع الأكثر صيداً ، النوع

(٢٤) Contenson 1975

(٢٥) انظر المرد الذي أنشأناه (Cauvin J. 1972 a) ص ١٢٩ - ١٣١ استناداً إلى تقارير حفريات كوتسون .

(٢٦) Moore, Hillman et Legge 1975 ، ص ٦٣ والرسم ٩ ، رقم ١٩ .

(٢٧) Cauvin J. 1972 b

الذي يؤدي دوراً أساسياً في الحياة اليومية فتثقل أهميته بشكل طبيعي لتوضع في الصعيد الثقافي<sup>(٢٨)</sup> .

نعلم بالحقيقة أن هذه الحالة المشهود لها أحياناً في الانتوغرافيا لا يمكن أن تُعتمد ولأن تُنقل كما هي إلى ماقبل التاريخ مفتاحاً كلياً للتفسير . هذا النوع من الأسئلة هو ما يجب على وجه التحديد أن يكون موضع بحث واستقصاء .

أمن الممكن أن نستمد بعض النتائج من تحقيقنا في بلاد الشام رغم غموض الوثائق ؟ أولاً الصيادون النطوفيون : فنّ الحيوان يغلب عندهم كما يمكن أن نتوقع . إنهم من جهة أخرى ، صيادو غزال قبل كل شيء . لقد أقمنا تجارباً بين محيطهم واستراتيجياتهم : ظهر أنه وإن كنا أمام اقتصاد ذي «طيف عريض» يلجأ إلى موارد متنوعة جداً ، فثمة تشوّه كان موجوداً في كل مكان تقريباً على صعيد الصيد لصالح هذا النوع الذي يبدو موضع «خيار ثقافي» . إذاً ليس أمراً بلا أهمية أن نجد الغزال بين الأنواع النادرة جداً المثلثة في الفن ، الذي هو ، بجمامة ، في جهة الثقافة . لكن ماذا نقول عن تمثيلات الأُمُليات (مهما تكن غير مؤكدة) سوى أنها على العكس لاتعكس أية غلبة طعمية ، إذ أن بقاياها ، بدون أن تكون غائبة ، نادرة نسبياً في الحيوان المدروس ؟ ولماذا ، بعكس المراحل اللاحقة ، لانجد في الفن الحنازير (وصيدها مزدهر في عين ملاحه) ولا البقرات المستهلكة في كل مكان (وإن كانت نادرة نوعاً ما) ، شأنها شأن الأُمُليات ؟

الأسئلة ، كما يرى القارئ ، أكثر من الأجوبة . في الوضع الراهن للاكتشافات ، ثمة نتيجتان حذرتان تبدوان لنا وحدهما تبرران من الوقائع :

١ - تمثيلات العالم الحيواني لاتنطفي في العصر النطوفي مروحة الأنواع الحاضرة في المحيط ولا حتى مروحة الأنواع المقتنصة ؛

٢ - دورها الغذائي ، الهام بالنسبة للغزال وحده ، قد لا يكفي لتعليل الاصطدامات المفعولة في مستوى الثقافة غير المادية .

التمائيل اللاحقة ، الطينية ، ليست أكثر بلاغة ، وإن كنا نلمس تغيراً يظهره تنوع أكبر بكثير في الحيوانات المنقولة . لكن التحديدات موضع شبهة والسياق الأيكولوجي غير معروف بشكل جيد في كثير من الأحيان ، مما يفرض عدم المجازفة والامتناع عن تأويلها .

Jenssen 1954 (٢٨)

ليس الأمر كذلك بالنسبة لترتيبات العظام في تل مريبط . الجماجم الموضوعة قسداً في مصاطب من المرحلة الثانية ، تامة أو مُجزأة على مفاصلها ، تشهد على البدايات الأولى في الشرق الأدنى ، نحو ٨٢٠٠ ق . م ، لعبادة مدعوة لمستقبل عظيم . إنها تتفرد نسبة إلى وثائق موقع شطل هويوك التالية والمشتقة منها بالتأكيد<sup>(٢١)</sup> بكونها لا تحوي أي عصر مشكل وتقتصر على حصور الكتلة الجمجمة و/أو القرون حضوراً غير مشعول ، وايضاً بكونها غير مُدرجة في الديكور المنزلي بل هي مدفونة في الفضا ، أي أنها حاضرة في الرياضات لكنها غير مرئية . إن إضافة ألواح الكتف كان لها معنى ، بدون أن نغير بوضوح ما إذا كانت ألواح الكتف الحمير المضافة إلى ألواح كتف البقر تصطف على أساس شكلها المائل أو من أجل ضم نوع حيواني ثان إلى عبادة الثور .

والحال ، إن هذه العبادة ، التي هي الشهادة الوحيدة في مريبط على علاقة نفعية مع المملكة الحيوانية ، يمكن أن نجابهها بنتائج علم الحيوان الأثاري . لقد رأينا ، حسب دوكو ، أن المجترات الصغيرة ولاسيما الغزال هي الغالبة في المرحلة الثانية بشكل واسع ، كما كانت غالبة في نعلوني أبو هريرة . البقر حاضر ، لكن نادر ، مع بضعة أثليات وخنازير . ثم المرحلة الثالثة A ، مع قرون البنية رقم ٤٧ ، هي العصر الذي يبدأ فيه صعود نسبي للبقر الوحشي ، الذي لن يبلغ إلا في الثالثة B (نحو ٧٧٠٠ ق . م) كيانه كطريدة مفضلة جنباً إلى جنب مع حمار الوحش .

إذاً من المتيقن ، بطبقات الآثار ، أن الثور (وربما الحمار) لعبا بالأصل دوراً أولياً في إيديولوجية قروتي المريبط قبل تظاهر هذه الغلبة في الممارسات الطعمية أيضاً . هذه واقعة لا يستطيع أي اعتبار نظري أن يحدف منها شيئاً ، لكنها تستطيع بالمقابل أن تلعب دوراً فارقاً بين التعليقات المقدمة عن عبادات ما قبل التاريخ ، بل وعن أصول أو منشأ التدجين .

إن النظريات التي تعتبر الدين انعكاساً مجزئاً (مُبطناً) لوضعيات اقتصادية تجد نفسها منجاة في الحالة التي أمامنا . إن أسباباً أخرى ، غير تآلف صيادي استثنائي ، أو بالأحرى والأقوى غير بداية تربية للحيوان ، قد ساهمت في إعطاء الثور كيانه الخاص في منظومة

(٢٩) Mellaert 1967 . في التقليد نفسه وُجدت جمجمة ثور في سورية ذاتها على يد 1946 Mallowan في خلفي تل الأسود (المرات) .

العكر في الألف التاسع<sup>(٣٠)</sup> . إن مسألة إيزاك<sup>(٣١)</sup> وريد<sup>(٣٢)</sup> عن أصل ديني محتمل للتدجين تتخذ ، بالمقابل ، بروزاً جديداً .

فترية الحيوان تُدرك ، على نحو عام ، كما رأينا ، كأنها امتداد أكثر تحسباً للممارسات شتى يقوم فيها رابط وثيق بين الزمرة البشرية ونوع حيواني . وليست القضية عندئذ ، في ذهن الباحثين ، سوى «صيد اصطفائي» قد تتظاهر فيه ثقافة الزمرة عن طريق هذا الخيار ، لكن بدون أن يتصوروا غاية هذا الخيار ذاتها على نحو آخر غير تلبية حاجة طعامية .

مع أن إيزاك وريد تساءلا ماذا لم يكن هناك في منشأ الاهتمام البشري بالثور الوحشي شيء آخر غير هذا الهدف الافتراضي ، أي موقف ديني ما ، مبني على الخوف والإعجاب اللذين يثيرهما هذا الحيوان ، وهي مشاعر توحى بهما وعلى نحو عالٍ الإيقونوغرافيا المذهلة المكتشفة في موقع شطل هُيك . وبالتالي فإن التسلسل التاريخي المقترح ينطلق من علاقة طقسية (تضحيات ؟) في البداية ، أي غير نفعية ، بين الانسان والحيوان ، لينتهي شيئاً فشيئاً إلى استهلاك عادي أكثر وليشجع التدجين أو التأهيل .

هذا الذي لم يكن عند ريد سوى فرضية قد يجد نفسه معزراً باكتشافات تل مريبط ، وذلك ببساطة لأن دراسة طبقات التل حملت معها الدليل على أن الثور الوحشي كان يسكن نفسية البشر قبل سيادته على بقايا المطبخ بكثير . يتبين أن «مشهد» الثور ، في عصر مازال فيه القبض عليه حدثاً نادراً نظراً لعدم وجود تقنيات مناسبة لاربع ، كان كافياً لنتج على الزمرة البشرية انطباعاً قوياً بحيث يدفع ثقافة الزمرة إلى تكريسه (تقديسه) في مكانة رفيعة . طبيعة هذا الانطباع جلية إلى حد كاف<sup>(٣٣)</sup> . لكن الأمر الذي يهمنا هنا هو أنه يصح ، في زمن ثانٍ ، على استراتيجية صيد ، أي على تقنيات جديدة تتيح التملك الغذائي الكبير للحيوان الذي كان في أمس قريب موضع احترام وتقديس ، من على بُعد . إلى أي حد خلق هذا الاحترام ، الفاعل كمتحد هاجسي وكدعوة إلى السيطرة

(٣٠) انظرحت المسألة صلياً ، في مرحلة متأخرة أكثر (الألفان السابع - السادس) بالنسبة لموقع شطل هُيك . حيث كانت موضوعة الثور التيشلية تتطابق مع أهمية كبيرة للغرباء في الاقتصاد المعمر Reed 1969 ، ص ٣٧٣ .

(٣١) Isaac 1962

(٣٢) Reed 1969

(٣٣) انظر الصحامة «السوربالية» للحيوان في رسوم شطل هُيك الجدارية ، في العصر التاريخي ، مماثلته مع خذد ، إله العاصفة والحرب عند الفينيقيين ، بوصفه قوة ذكرورية كاسحة .

على الخوف ، خلق شروطاً سيكولوجية ملائمة ليزوغ هذه «المطاردة للبقر» ، بل لتأهيل لاحق<sup>(٣٤)</sup> ، ذلكم هو السؤال الذي يجب أن يطرح . عندئذ نفترض في أصل هذه السلوكيات الطعمية نموذج بواعث يكون إلى ميدان الباليو سيكولوجيا أقرب ولم تجري العادة على استحضاره في هكذا حال . يجب أن نستأنف هذه النقطة في إطار مناقشة أعم .

قنما نصادف ، خارج جماجم مريبط البقرة ، وثائق على مايكفي من الوضوح والتحديد لدفع معرفتنا لهذه الآليات إلى الأمام لنذكر مع ذلك بأن حيوانات الخيام ١ - ٢ تقدم في العصر النيوليتي السابق للفخار B تشوهات في طبقات الأعمار تناضل إلى حد كافٍ ، هي أيضاً ، في اتجاه فرضيات ريد . بالفعل ليس أمراً محايداً أن نصادف ، في العصر نفسه الذي يبدأ فيه تأهيل العزلة في فلسطين ، تشوهات آتني - اقتصادية لدرجة لم يكن معها بالإمكان تحليلها إلا بالدجوء إلى شواغل دبية .

### تمثيل الانسان

هنا سنجمع في زمر ، الوثائق التي من شأنها أن تكشف كيف الانسان يدرك ذاتياً نوعه الخاص ذاته . سبباً الوصول المفتوحان لنا عياناً هما من جهة استعماله لـ «الشكل البشري» في تمثيلاته الفنية ، ومن جهة أخرى هذا الذي يكشف الطريقة التي يعامل بها أقرانه بعد موتهم . سنتناول إذاً ، تباعاً ، التماثيل الانسانية الشكل ومعالجة الهياكل البشرية .

### التمائيل

قنما يمثل الصيادون أقرانهم ، فنحن هذه الشعوب تمثيل لحيوانات بالدرجة الأولى . هذا لا يمنع أن الشكل الانساني حاضراً منذ التجليات الفنية الأولى ، سواء في «فيتوسات» (زهرات) الباليوليتي أو في بعض كهوف الفن الفرانكو - كانتابري المرسومة أو المحفورة . في الشرق الأدنى ، لم يسفر العصر النطوفي إلا عن قلة قليلة من التماثيل الانسانية ،

(٣٤) بما أن هذا الكتاب فيد الطبع ، يذكر Ducos 1978 ، بعد دراسة حيوان المرحلة الرابعة من مريبط ، ما يشير إلى «بداية تأهيل» للبقر . هذا من شأنه أن يثبت السيرة المقترحة هنا وأن يطرح في الوقت نفسه مسألة أخرى : لماذا لم يستمر في هذا الطريق حلفاء مريبط الرابعة المباشرون في أبو هريرة ، مع أن محيطهم مماثل ، ولماذا ليس عندهم كحيوانات أهلية سوى مجترات صغرة ؟

جميعها من الحجر : رأس صغير تخطيطي في الواد (الرسم ٢٢ ، رقم ٤) ، تمثال صغير «إبروتي» ( «جنسي» ) في عين صخري (الرسم ٢٣) يمثل زوجاً بشرياً يتعانق في وضع جالس ، وتمثال شخصي في عين ملاح (الرسم ٢٢ ، رقم ٢) بلا رأس ولا أطراف<sup>(٣٥)</sup> . معناها الدقيق يغلت منا بالنسبة للأول والثالث . أما الثاني ، التمثال الغزلي ، فهو يعني أن الفعل الجنسي كان يحتمل على الأرجح قيمة «نورية - قدسية» ، وهذا شيء عادي جداً في المجتمعات العتيقة ، أي القديمة السابقة للعصور الكلاسيكية<sup>(٣٦)</sup> .

بالنسبة لآخر الألف التاسع ، يوجد تمثيل واحد إنساني على الأرجح : إنه تمثال صغير حجري في مريبط الثانية ، مجزوع لسوء الحظ (الرسم ٢٤ ، رقم ٢) ، يمكن أن نضيف إليه رأس غير أكيد من الطين النقي (رقم ١) . إذاً ، لا يوجد حتى نحو سنة ٨٠٠٠ ق م أي شيء يمكن أن نتعرف فيه على التمثيلات النسائية التي ستكثر فيما بعد .

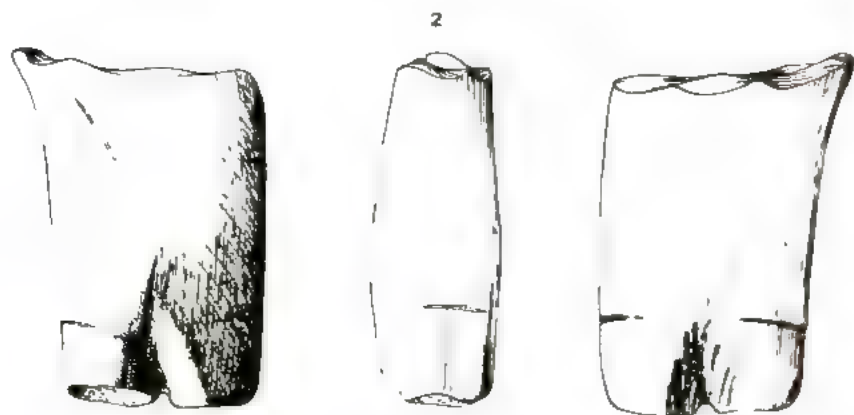
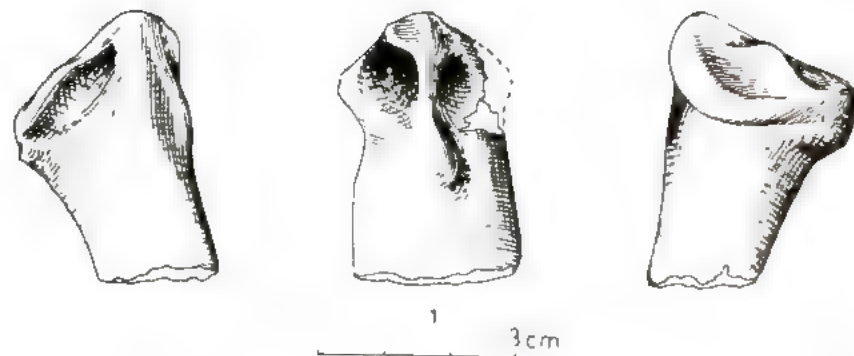
هذه تظهر لأول مرة في مطلع الألف الثامن في منطقة الفرات ، مريبط الثالثة A ، في شكل تماثيل صغيرة من الحجر وتماثيل أشخاص من الطين المشوي .

بلاستكياً ، باتت طريقة معالجة هذا الموضوع مؤنة من الآن . نجد تمثيلاً كاملاً وواقعياً لجسد المرأة مع إشارة إلى عضوها بشق والذراعان معادان على الصدر تحت الثديين والحاج ما في تشكيل منطقة الأرداف : هذا مشترك لتمثالين ، أحدهما من الطين المشوي (الرسم ٢٥ ، رقم ٤) والآخر من الحجر (الرسم ٢٦ ، رقم ١) . هذا الإحاج واضح بشكل خاص في التمثال الطيني حيث الأرداف ، التي شكّلت على حدة ، قد أضيفت في نهاية العملية ، وأحد الردفين انفصل عن الجسم فيما بعد . إن تمثالاً طينياً آخر (الرسم ٢٥ ، رقم ٢) ليس فيه سوى الرأس والصدر ، أما القاعدة فقد تحطمت . الرقم ١ تصوير تصغيري ، تخطيطي إذن ، لشخص نسوي جالس ، عريض القاعدة ، وهذا النموذج النمطي سوف يرى في مقابل فخار تل شايونو وغيره من المواقع . الرقم ٥ ، المبسط جداً كذلك ، هو النموذج الوحيد الذي ليس فيه أي ملمح جنسي صريح ، أذلي أو ثانوي . الشكل العام ضيق ومخروطي . لكن جدعتي الرجلين الخارجيتين من القاعدة أفقياً ، تبدوان تذكيراً بالوضع الجالس . نجدها أيضاً على تمثال صغير حجري (رقم ٣) ، مخروطي هو أيضاً أشير

(٣٥) غرضاً عين ملاحه الآخرون ، تخطيطيان تماماً (الرسم ٢٢ ، رقم ١ ، ٣) وقد يكونان أيضاً ، حسب Perrot 1966 ، من الرؤوس البشرية .

(٣٦) أراد البعض أن يرى ، في الواد ، رموزاً جنسية أخرى في أنواط ذات قصتين من العظم وفي يذق من البازالت ، لكن هذه الأغراض بعيدة عن التصويرية بحيث أن التأويل الأنثى ليس بدهياً .





الرسم ٢٤ - تمثيلات بشرية (٢) في مريبط الثانية : ١، شخص من الطين السيء ٤، ٢، تمثال صغير من الحجر الكلسي

فيه إلى الجنس إشارة واضحة عن طريق شقوق . أخيراً ، على غرض أخير (الرسم ٢٦ ، رقم ٢) من الحجر الكلسي اللين المنحوت بالصوان ، يظهر رأس ، بارز ، مفصول عن الباقي بخط أفقي ، لكن المحيط العام وهو كَلَوِي .

الشكل إلى حد ما ، والشقوق الطولانية العميقة في الجهة الأمامية ، لاتستحضر أي واقع طبيعي : بل ليس من المؤكد ، أننا هنا أمام تمثيل الانسان .

ثم ستظاهر الشخصيات النسائية ، في العصر التالي مباشرة (أواخر الألف الثامن) ، في المنطقتين المتاخمتين للفرات الأوسط . من جهة ، الفرات الأعلى في تركيا : وثيقة



1



2

3cm



3



4

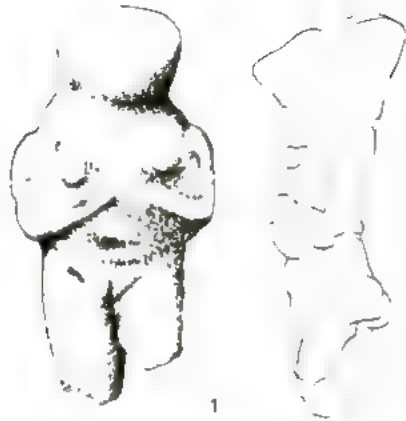
3cm

الرسم ٢٢ - تمثيلات أشخاص بشرية من النطوفي :  
١ - ٣ عين ملاحظة (تقلاً عن Perrot)  
٤ ، إلواد (تقلاً عن Garrod)



٢ ٣

الرسم ٢٣ - تمثال جنسي نطوفي من عين صخري



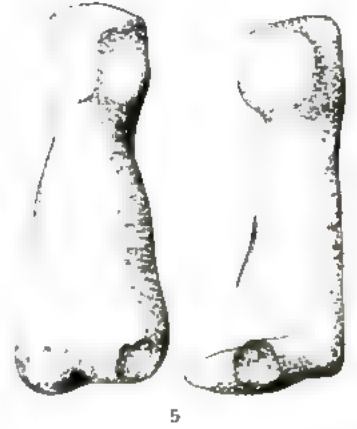
الرسم ٢٦ - تمثال من الحجر من مريط الثالثة : ١ ، تمثال نسوي من الكلسيت ٢ ، تمثال من الحجر الكلسي .

شايونو التي سبق أن ذكرناها ، ومن جهة أخرى غوطة دمشق ، مع تماثيل الطين المشوي في أسود الثانية<sup>(٣٧)</sup> . هذه «الأشخاص» تظهر كما في المريط في شكلي الطبيعة أو

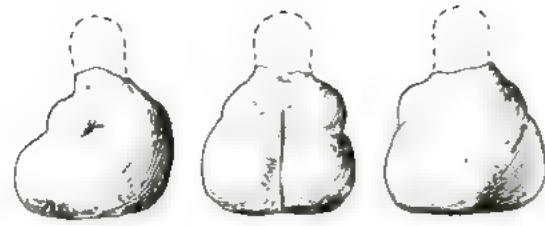
(٣٧) Contenson 1972 . أوضح لنا كونتسون ان التماثيل النسائية تأتي فعلاً من أسود الثانية .



0 3 cm



الرسم ٢٥ - تمثيلات نسائية في مريط الثالثة : ١ - ٢ ، ٤ - ٥ من الطين المشوي ٣ ، من الحجر الكلسي



الرسم ٢٨ - شخص نسوي من الطين النقي (١) في البيضاء - النيوليتي ما قبل الفخار B (حسب Kirkbride)، وتمثال من حجر الكلس (٢) في الحيام (حسب Leharay)

النيوليتي السابق للفخار B القديم هو أيضاً عصر ظهور الموضوع نفسه في فلسطين<sup>(٣٨)</sup> بأسلوب يختلف بعض الشيء من مرة إلى أخرى : يُذكر شخصان من الطين في أريحا<sup>(٣٩)</sup>، واحد في البيضاء (الرسم ٢٨، رقم ١)، والأخر من الحجر، مشكوك فيه أكثر، في الحيام (رقم ٢). الثلاثة الأولى تشترك في الإلحاح على منطقة الوركين، وبالنسبة لأريحا، الحركة التقليدية التي تعيد الذراعين على الصدر<sup>(٤٠)</sup>.

منحطة ما قبل الفخار تتبدى حالة على حدة : ليس فيها سوى شخص نحلة بشكل قضيبات من الطين النقي مسحوقة عند القاعدة لتأمين بقائها واقفة، مع رأس بشكل

(٣٨) علماً بأن تمثالاً صغيراً من الحجر، حد تخطيطي، في وادي العلاح (Sickels et Yisraely 1963)، قد يكون من تباشر الموضوع في الحقبة السابقة.

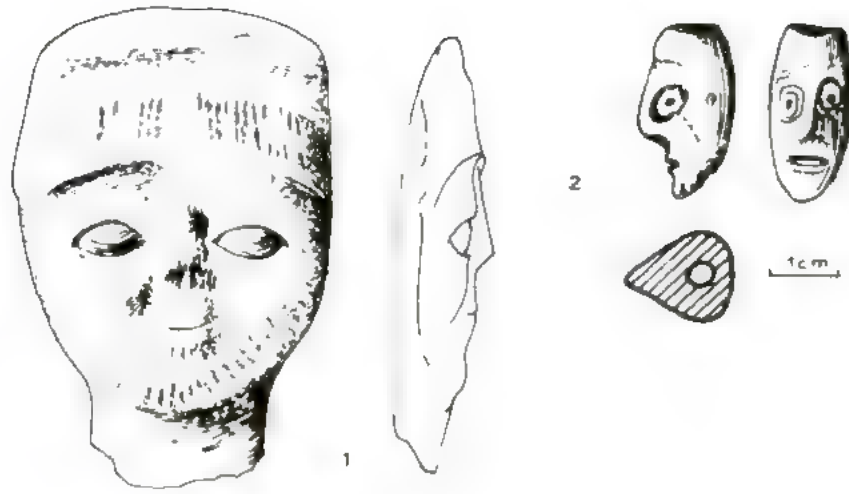
(٣٩) Kenyon 1975، اللوحة ١٩.

(٤٠) المرجع المذكور، ص ٥٩.



الرسم ٢٧ - تماثيل نسوية من الطين المشوي في أسود الثانية - صور كوتنسون

التخطيط : الأشخاص الطبيعية (الرسم ٢٧، رقم ١، ٣)، في وضع جالس، تلخ على غزارة الحجم أكثر منها في المربط أيضاً، أما الترحمات التخطيطية (رقم ٢) فتبدو، كما في المربط أحياناً، مكثفة بتأمين جلوس الشخص - التمثال بقولة مفتضبة للعندين أفقياً وتوزيع المجموع برأس مبسط. كوتنسون يذكر أيضاً قطعاً عديدة في شكل «قضيبات» أو يبادق يفلت منها معناها الممكن، التلميح البعيد.



الرسم ٣٠ - رأس تمثال في أريحا النيوليتي السابق للفخار B (١) ونوط من الحجر في مريبط الرابعة (٢)

هذه الأخيرة نجدها من جديد وحيدة في النيوليتي ما قبل الفخار ، الحديث ، وقد بلغت الساحل السوري في تمثالين - شخصين مثليين «جالسين» شديدي التخليط في رأس شمرة الخامسة ح ، e ، (الرسم ٣١، رقم ١ - ٢) ، وهي حاضرة كذلك في تل رماد : قطعة حجرية مكسورة (رقم ٣) ، ذات أسلوب فني أكثر واقعية .

الرسم ٣١ - شخص من الطين المشوي (١)  
وتمثال من حجر الكلس (٢) في رأس شمرة  
الخامسة ح ب تمثال من حجر الكلس (٣)  
في الرماد (حسب كوتسون)



الرسم ٢٩ - أشخاص من الطين المشوي  
المنحطة ٦ - ٣ (صنور Perrot)

قرص جرى تسطيحه ومُخَيَّن فيه العينان والأنف بأقراص (الرسم ٢٩) . أحياناً عُيِّن العضو الجنسي ، وهو مؤنث ، أو في بعض الحالات مذكّر<sup>(٤١)</sup> . كذلك في المستويات العليا من النيوليتي السابق للفخار B بأريحا<sup>(٤٢)</sup> ، تظهر «تماثيل» حقيقية مقولية بالفخار النقي على مساند من القصب . وقد عثر غارستانغ<sup>(٤٣)</sup> على رأس أحدها واعتبره مذكراً بسبب الخطوط المحفزة بالمعرة حول الدفن والتي تمثل النحية على ما يبدو (الرسم ٣٠، رقم ١) . لعل شكله القرصي تدكير أسلوبه بالتسطيع نفسه الملاحظ على شحوص المنحطة من الجنسين .

أخيراً ، إن التمثيل الانساني الوحيد الذي اعطاه الفرات عن هذه الحقبة ، وهو نوط من الحجر في مريبط الرابعة B (الرسم ٣٠، رقم ٢) ، يمثل كذلك رأساً ذكرياً ملتحمياً يترأى بالتالي إن التمثيلات الذكرية الأولى تنضم ، نحو ٧٠٠٠ ق . م ، إلى الشحوص النسوية التي مازالت غالبية تماماً .

(٤١) Perrot 1967 . نسب أشخاص الجنسين مجهولة .

(٤٢) Kenyon 1960 ، ص ٥٤ .

(٤٣) Garstang et Garstang 1940 ، ص ٥٧ - ٥٨ .



## معالجة الهياكل البشرية و «عبادة الجماجم»

لن نسهب عن المدافن ذاتها ، فقد كانت موضوعاً لدراسات مستفيدة . في النطوفي<sup>(٤٧)</sup> ، حيث شمل التنقيب حوالي مئة من المدافن بالكهوف وبالقرى ، تلاحظ ممارسات متنوعة تذهب من الدفن الأولي الدرجة ، الفردي أو الجماعي ، حتى الدفن الثانوي ، وهو جماعي بوجه عام . توجد المدافن وسط حيز السكن : إنها حفر مقتضبة الإعداد ، مائية بالطين أحياناً (عين ملاحه) ؛ وأحياناً مكسوة ببلاطات (ملاحه ، عرق الأحمر) ، أو بحجر مسطح وحيد ، أو ببضعة بلوكات أو بملاط منقوب (وادي الفلاح) . لاشيء دائم في المدفن الفردي ، لاوضع الجسم (المحنى في الغالب) ولا اتجاهه . في مدافن «الدرجة الثانية» ، المجمعة هي الجزء المدفون ثانية ، لكن تصحبه عناصر أخرى من الهيكل العظمي ، دوماً تقريباً . وحده يشذ قبر عرق الأحمر الجماعي : فرد وحيد كامل ، وستة آخرون مثنون بجماجمهم فقط .

في الحقبة التالية ، الألف الثامن ، يبدأ حقاً تكون هذا الذي سوف يكون «عبادة الجماجم» . ففي أريحا النيوليتي السابق للفخار A ، وجد كتيون<sup>(٤٨)</sup> عدة مستودعات لجماجم : في إحدى الحالات ، كانت الجماجم «مرتبة في شكل دائرة ، وتظهر نحو الداخل» ، في حالة أخرى كانت تؤلف «ثلاث زمر من ثلاث جماجم تنظر في نفس الاتجاه» . وكان مستودع ثالث لا يضم ، إلى جانب مدفن ولد بكامله ، سوى جماجم أولاد . كانت المستودعات موجودة «تحت بنية طينية حوضية الشكل مثيرة للفضول» . إذا فهذه «المستودعات» تبدو فعلاً قد دُفنت بالأصل .

أعطى الفرات ، عن نفس العصر ، وثائق مشابهة . لا يوجد في مريبط الثالثة A سوى مدفين ، كلاهما «ثانويان» : أحدهما كان ، داخل البيت المستدير رقم ٢٢ وتحت موقد في شكل حوض مئس بالغضار ومليء بالرماد ، مدفناً لجمجمة نسوية<sup>(٤٩)</sup> تصحبها عظام الأطراف بدون نهاياتها ؛ والآخر في المستوى نفسه لكن خارج البيت كان يحوي تكملة الأول الظاهرة ، أي القفص الصدري مع لوح الكتفين ، والحوض وعظام

(٤٤) Valla 1975 .

(٤٥) Kenyan 1957 ، ص ٧٢ .

(٤٦) حسب M. Ozbek الذي درس الهيكل العظمي .

النهايات<sup>(٤٧)</sup> . إذاً ليس ثمة هنا سوى مدافن «ثانية الدرجة» من التقليد النطوفي ، وأهميتها آتية فقط من يقيننا أننا إزاء دفن قصدي داخل بيت .

لم يعثر على مدفن في مريبط الثالثة B . لكن شيخ حسن المعاصر لها أعطى مدافن : مدافن أولية (أحدهما يضم راشداً وطفلاً) ومستودع فيه ثلاث جماجم بدون أية عظام أخرى<sup>(٤٨)</sup> .

إذاً فالألف الثامن وقبل سنة ٧٥٠٠ تعود في بلاد الشام عادةً فصل الجماجم عن الهياكل بغية استعمال خاص ، هو على الأرجح إعادة دفن بنفس روح المدافن «الثانية» النطوفية ، لكن مع اصطفاء متقدم أكثر للجزء المعاد دفنه مادام يتحدد أكثر في الجزء الراسي وحده الذي أضحت هيئته الرمزية واضحة منذ ذلك الحين .

مايتراى بعد ٧٥٠٠ يبدو مختلفاً . في المرحلة الرابعة B من مريبط ، توجد بأن معاً قبور فردية وجماجم منفردة (الرسم ١٣) . الهياكل الكاملة مدفونة في حفر تحت أرض السكن ؛ بالمقابل ، ليست الجماجم المكتشفة مجموعة بل مرتبة على الأرض نفسها بمحاذاة الجدران وكل منها قاعد على تلمة من الطين الأحمر المكثف<sup>(٤٩)</sup> . إذاً لم تكن تُدفن ، بل كانت مرئية لسكان البيت كضرب من أثاث طقسي .

الأمر كذلك على الأرجح في أريحا النيوليتي السابق للفخار B<sup>(٥٠)</sup> ، وإن كانت المعطيات أقل وضوحاً هنا . وُجدت عمليات دفن أولية جماعية تحت أرضيات بيوت ، والظاهر أن هذه الأرضيات لاحقة لعمليات الدفن ولعلاقة لها بها . بعض الهياكل بلا رؤوس ، والتدخل الثاني الهادف إلى جمع الجماجم خرب بعض الشيء ترتيب الهياكل نفسها ؛ الفك الأسفل حاضر في كثير من الأحيان بخلاف الجمجمة التي نُزعت ؛ بعض الترابطات المحفوظة في الهيكل تبيّن أن هذا التدخل حصل بعد الدفن الأول بزمان قصير الأمر الذي مكن الأربطة العظمية من إبقاء هذه الترابطات رغم اختلال المجموع .

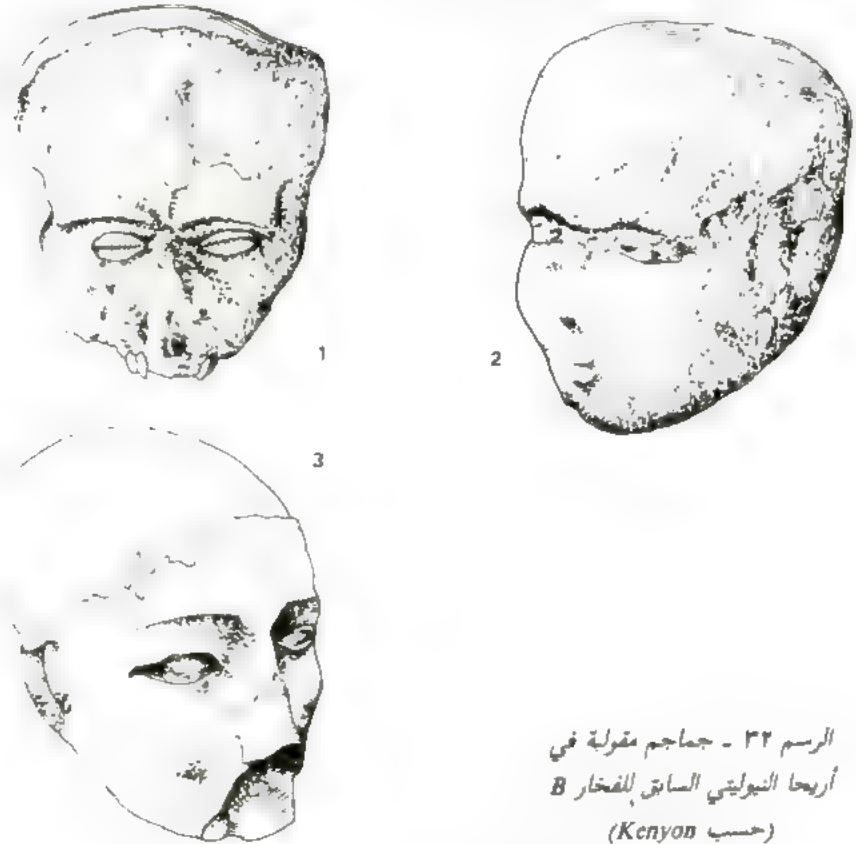
(٤٧) كان القبر يحتوي أيضاً على قضيب من الحجر المصقول (الرسم ١٨ ، رقم ٢) . لا ريب أن الدراسة الأثروبولوجية ستقول ما إذا كان محتوى القبرين يعود فعلاً لفرد واحد .

(٤٨) وجدت داخل مستودع فيه رماذ (موقد؟) مؤرخ جيداً من حيث معذاته لكنه قريب جداً من السطح ولا يمكن أن نموقعه وظيفياً في بنية ولا بالنسبة إلى مساحة سكنية .

(٤٩) (b) . Cauvin J ، يصدر لاحقاً . بعض الصلصال الأحمر يحتم أيضاً كوسادة . المدفون التام يرتاح على خذه الأيمن ، يسا الجماجم المفصلة واقعة عمودياً فوق التلعات . الساند .

(٥٠) Kenyon 1975 ، ص ٦٣ ؛ Cornwall 1956 .

أما الجماجم نفسها ، المخشوة بالطين ، فهي تبدي خاصية مرموقة ، ألا وهي أن الوجه قد أعيد تشكيله ، بنوع من المعجون أو الحصى الغضاري ، على هيئة وجه الحي وذلك بطريقة اعتبرها كثيرون فردية وواقعية جداً<sup>(٥١)</sup> واعتبرها ستروغال اتفاقية واصطلاحية<sup>(٥٢)</sup> . العيون ممثلة بقواقع ، ذات صمامين (الرسم ٣٢ ، رقم ٣) أو أصداف «غوري» (رقم ١) . الوجوه يمكن أن تصبغ بلون يذكر بلون بشرة الانسان ، أما قلتسوة الجمجمة فغير مطلية . إلا أن إحدى الجماجم كانت تحمل في قمتها أشرطة من الصباغ البني ، وهذا تلميح ممكن إلى الشعر أو إلى تصفيفة شعر .



الرسم ٣٢ - جماجم مقولة في أريحا النيوليتي السابق للفخار B (حسب Kenyon)

(٥١) Kenyon 1957 ، ص ٦٢ .

(٥٢) Strouhal 1973 .

وُجدت هذه الجماجم مجموعة : سبع في «مستودع» واثنان في غرفة متاخمة من نفس البيت . ترتيبها الأصلي لم يوضح لأنها أخرجت من بين أنقاض بيت مهديم غطتها أرض عمارة لاحقة . إلا أن الشغل الفني الذي حظيت به يحولها إلى «تمثيلات» حقيقية ، بقصد إظهارها على الأرجح .

يفترض أن ممارسات شبيهة كانت موجودة في البيضاء ، وإن لم يُعثر على الجماجم نفسها التي يرجح أن السكان حملوها معهم حين ارتحلوا من الموقع . لكن أصاب التنقيب حوالي أربعين مدفناً ، معظمها لأطفال ، وهي مدافن فردية ، نادراً ثنائية وثلاثية ، مورست في خرائب البيوت المهجورة . كثيراً ما عُثر على مدافن الكبار والبالغين بدون جماجم : إن ملاحظات دقيقة<sup>(٥٣)</sup> لفقرات العنق التي مازالت في مكانها ، مقلوبة أحياناً ، ترجح أن الجماجم فُصلت بعملية لي ماهرة ولم تُبتر بتر<sup>(٥٤)</sup> .

في النيوليتي السابق للفخار B ، استمرت هذه الأعراف كما يتبين من وثائق يسمون وأبو غوش والرماد . في يسمون ، عدا عن مدفين جماعيين ، مع هياكل بلا جماجم ، عُثر على جمجمتين مدفونتين في غرفة - مدخل البيت الذي وصفناه آنفاً<sup>(٥٥)</sup> . على إحداها ، وهي محفوظة جيداً ، الفك حاضر لكن بلا أسنان ، فالأسنان نزلت بعد الموت قبل القولية . في كل من العينين وضعت «عدسة من الحصى» . الطلاء الذي يرسم الوجه ، موسعاً إياه صناعياً بالتسميك يتواصل على رأس الجمجمة بطبقة رقيقة .

أبو غوش<sup>(٥٦)</sup> ، كالبيضا ، لم يعط جماجم بل هيكلي مروع الرأس ، في وضع مشي ، والفك الأسفل حاضر كما في أريحا .

في الرماد أخيراً وُجدت جماجم عديدة مقولة في المستويين الأول والثاني . هذه الجماجم مطية ها بالكلس كما في يسمون على الأرجح . القولية شملت أيضاً الفك ، الذين نزلت منه الأسنان الأمامية<sup>(٥٧)</sup> ، وتواصلت ببداية عنق (الرسم ٣٣) . عُثيت العينان بكلس أصفر . كان أحد المستودعات يحوي حوالي ١٢ من هذه الجماجم ، صُبت

(٥٣) Kirkbride 1966 .

(٥٤) ملاحظة مشابهة كان قد أجراها غارستانغ (Garstang et Garstang 1940) في أريحا : هيكلان بلا رأس تحصل عليهما بكسر الرقبة بواسطة تدوير الرأس بقوة .

(٥٥) انظر أنفاً ، الفصل الرابع ، عند الحاشية ٦٩ . Ferembach et Lechevallier 1969 . الطلاء المقولب وصف بأنه «حصى» ، لا ريب أنه كلس .

(٥٦) Dolfus et Lechevallier 1969 ، ص ٢٨١ .

(٥٧) Ferembach 1970 .

بالمغرة ، مرتبة داخل فجوة بيضوية تحدها قطع من الحجر النقي ، ووعاء كلسياً خشناً .  
بينها وجدت تماثيل صغيرة بشرية الشبه مصنوعة من الصلصال (الرسم ٣٣ رقم ٣) ،  
ارتفاعها ٢٠ سم ، في وضع جالس ، «رأسها» اختصر في «انتفاخ» عند القمة  
المسطحة (٥٨) حيث كان يندرج عنق الجماجم المطلية الأسطوانية . فالتماثيل المذكورة  
كانت ركائز للجماجم .



الرسم ٣٣ - جماجم مقولة (١ - ٢) ومسدّد إنساني الشبه من الصلصال (٣) في تل الرماد (صور  
(Contenson) .

وُجد مستودع آخر ، فيه أيضاً تماثيل ، في حفرة داخل كوخ مستدير من المستوى  
الأول  
قد تبدو هذه الإشارات المختلفة عن تل الرماد متناقضة : الجماجم كانت تحفظ داخل

(٥٨) Contenson 1967 ، ص ٢١ .

البيوت ، لكنها من جهة مكذّسة في حفر ، ومن جهة أخرى مشتركة مع قواعد بشرية  
الشبه مخصصة ظاهراً لإسنادها لكن من الجلي أنها ليست ، كما تكتشف ، في وضعية  
وظيفية (بخلاف التلعات - المساند في مريط الرابعة) يمكن أن نفترض ببساطة أن هذه  
«المستودعات» ، المجموعة والمغروزة في الأرض ، ليست حصرية وناحية لفكرة العرض  
المفترضة في القواعد ، إذا ما افترضنا بقاءها مفتوحة بحيث يمكن إخراج الجماجم منها في  
بعض الظروف .

على الفرات أخيراً ، تبدو طقوس الدفن في أبو هريرة لوحة أكثر غموضاً . على  
الرغم من وجود ممارسات قطع الرأس بعد الوفاة هنا أيضاً ، يشير المنقب (٥٩) إلى مدافن  
بحفر قليلة العمق تحت البيوت أو في البساتين ، ونجد في عدادها إما عمليات دفن  
بسيطة ، ينقصها أحياناً جمجمة ، وإما تجميعات جنازية عجيبة يتشارك فيها هيكل  
وجمجمة لا ينتميان لفرد واحد . لا توجد قولة للجماجم ولا أي شيء يذكر ب «أناث  
طقسي» . ما وصفناه عن مريط الرابعة ، حيث لا قولة أيضاً ، يدي ، فيما عدا ذلك ،  
من المشابهات مع الوثائق الفلسطينية أكثر مما يدي مع هذا الموقع المجاور ، لكن التأخر  
أكثر ، الذي هو أبو هريرة .

إذاً ، من أواخر الألف الثامن حتى أواخر الألف السابع ، تستخدم بلاد الشام (ربما  
باستثناء أبو هريرة) قسماً من الهيكل العظمي ، والجمجمة ، لتجعل منهما تمثيلات حقيقية  
محفوظة في منازل الأحياء . هذه الممارسات تتخطى كثيراً ما تعتبر عنه بوجه عام واقعة أن  
الموتى يُدفنون .

## مناقشة

ماذا نستخلص من هذه الآلاف الثلاثة من السنين في مضمار التمثيلات البشرية ؟  
من جهة ، ثمة تضاد ظاهر بين ندرة أولية لتماثل الأشخاص وتواترها الملاحظ منذ  
الألف الثامن على الفرات ، وفي الألف السابع في سائر الأماكن . بشكل خاص ، حين  
يبدأ تكاثر هذه التماثل في المريط نحو سنة ٨٠٠٠ ق.م ، فهي حصراً تمثيلات نسوية  
مجهولة حتى ذلك الحين .

علام الجنس ، الأولية أو الثانوية ، واضحة ، حتى على معظم الأغراض  
التخطيطية ، وإذا ما غابت تماماً على سبيل الاستثناء (الرسم ٢٥ رقم ٥) ، يمكننا التفكير

(٥٩) Moore, Hillman et Legge 1975

بشكل معقول أن الهيئة العامة كانت تكفي للتذكير تلميحاً بواقع شائع التصوير بينما التماثيل الذكرية غائبة تماماً .

إن ملحوظة ثانية تصحح أيضاً عن هذه الحقبة والحقب التالية : عبر تنوع كبير في الأساليب التي تعكس تنوع المواد كما واختلاف درجات التخطيطية في موقع واحد ، بل وبعض فروق الأسلوب الفني من منجم إلى آخر ، يوجد نموذج نمط ، أو بالأحرى عدة نماذج نمطية تتصالب وتتجاوب من منطقة إلى أخرى : أولاً تأكيد الأوراك على الأشخاص الواقفة (مريبط) والجالسة (مريبط ، أسود دمشق ، البيضاء ، رأس شمرة) على حد سواء . ثانياً هذا الوضع الجالس نفسه ، الجديد والذي أضفى شائعاً جداً . الشخص الجالس لا يمثل بصورة طبيعية إلا في أسود دمشق ، وذلك بأسلوب فني يذكّر جداً بأسلوب شطل هيك الذي جاء بعده . في حالات أكثر شيوعاً ، يقوم تبسيط كبير ، يوسع القاعدة ويقلص إلى هذا الحد أو ذاك الجزء العلوي من الجسم مغطياً الموضوع شكلاً مخروطياً أو مثلثياً . هذا «الكود» أو «النظام» في التمثيل سوف يطفئ هو نفسه في بلاد الرافدين وفي جبال زاغروس ، في ثقافات جازمو وحشونة وخلف .

تنجم عن ذلك نتيجتان : الأولى ، وهي طبيعية بالنسبة للعصور العتيقة ما قبل الكلاسيكية ، إن قولية هذه الأغراض الفنية (أو تشكيلها الحجري) ليست غاية في ذاتها ، إنها ليست نشاطاً لغبياً بل ولا قنئاً بالمعنى الذي قد نعتمده لهذه الكلمة اليوم . فالشكل الانساني ، بخاصة النسوي هنا ، لا يعاد إنتاجه إلا لأنه قوي المعنى والدلالة وفائق التحدد . هذا المعنى هو المهم للشكل ذاته الذي سوى إشارته . وهذه القيمة الدلالية يؤكدتها واقع أن الترجمات الأكثر تخطيطية ، المجردة تقريباً ، ليس عند الحد الأخير سوى شبه بعيد من واقع مرئي عادي .

من جهة أخرى إن هذا «الكود» أو النظام هو فعلاً الدليل على «إجماع» أو توافق اجتماعي يتخطى الأماكن والثقافات الخصوصية . يوجد هنا نوع من لغة مشتركة ترمي ، ككل لغة ، إلى خارج ذاتها . لذا يمكن أن نؤكد أن القضية ليست هنا «تمثيلات لنساء» بقدر ماهي التأثير الاتفاقي ، بالشكل النسوي ، على هوية تنتمي للنفسية الجماعية لعصر بالكامل . إنها بالحقيقة صورة هذا الذي سيكون «الإلهة الكبيرة» الشرقية تبرز مع فجر هذا الألف السابع وسوف تتابع تحولاتها حتى الحقب التاريخية .

إذاً لن تدخلت هذه الهوية في لحظة محددة من ماقبل تاريخ بلاد الشام ، فلأنه في هذه اللحظة قد تبدلت السيكولوجية الجماعية . شخص المربط تقدم لنا عن ذلك نوعاً من شهادة أولى داعيةً إيانا هنا أيضاً إلى محاربة هذا الطغف مع ما نعلم عن الميادين

الأخرى . عندئذ نلاحظ أن صورة الإلهة تظهر هنا في وسط قروي استقر وتوطن ، لكن في المرحلة الثالثة A ، قبيل الممارسات الأولى الممهدة للزراعة ومع بدايات تبدل الصيد . هذا يثبت أن صفة الألوهة الزراعية التي سترتديها فيما بعد<sup>(٦٠)</sup> لا يمكن أن تكون أولية أو أصلية ، لكنه يبين كذلك أن مجيئها يستيق بقليل فقط على تغيرات كبيرة في النشاطات الغذائية ولا يمكن أن يكون غريباً عنها تماماً<sup>(٦١)</sup> .

هذه التغيرات ، كما رأينا<sup>(٦٢)</sup> ، لا تظهر كدرة على ضغط إيكولوجي بقدر ماهي تظهر في أثر تفتح ثقافي وديموغرافي ، حيث أن مجتمعاً قيد التبدل لا يبدو مغيراً استراتيجياته إلا لأنه هو نفسه يتغير . ذلك هو الوجه السوسولوجي للتغير الذي بدا لنا أولاً على الهيئة الاقتصادية . أما معانياتنا الحاضرة . فتضيف إلى ذلك بعداً أكثر ذاتية لأنه يتصل بالمعتقدات . أن يكتسب «الشكل الانساني» عندئذ في الفن ضرباً من ترفع وأن يتظاهر منذئذ معنى «الإلهي» بوصفه بؤرة «خيالية» لكل فاعلة للنفسية الجماعية ، على سبيل الأصلية في شخص نسوي ، أخذاً مكان «النوريات المقدسة» الحيوانية التي كانت غالبية حتى ذلك الحين<sup>(٦٣)</sup> : هذه واقعة خام قد يكون من الصعب النفاذ في علاقتها الصحيحة مع الباقي بدون الانكباب على نوع من تحليل نفسي تاريخي للعلاقات بين ايدولوجية زمرة بدائية وممارستها الاقتصادية لا بد أن يحسب حساب هذه الواقعة . في عصر مفصل يتغير فيه كل شيء بنوع من عملية توالد متفاعل ، إن انقلاب المعتقدات هو ، زمنياً الأول المشار إليه .

هل وجدت بعد ذلك ، نحو سنة ٧٠٠٠ ق م ، صورة إنسانية ثانية ، مذكرة هذه المرة ، جاءت تصحب الإلهة في البانتيون النيو ليتي كما ستكون الحال بالتأكيد في الألف السادس في شطل هيك<sup>(٦٤)</sup> ؟ مازالت الوثائق عن بلاد الشام أندر من أن تؤكد ذلك : إن الشخص القضيبي الشكل بموقع المنحطة لا تبدو متفقة ، بالنسبة للشخص النسوي ، مع

Przylusi 1950 (٦٠)

في أسود دمشق ، المرحلة الأولى التي ليس فيها زراعة ، ليس فيها سوى تماثيل حيوانية ، أما التماثيل الانسانية فظهرت في أسود المرحلة الثانية ، التي هي ، حسب أوليت لوروا غورهان (إبلاغ شخصي) ، زراعية .

(٦٢) انظر أيضاً ، امصل الخامس ، عد الحواشي ٥٤ - ٥٧ .

(٦٣) في منظور ينسب الى يونغ Zung ، حيث يوضع تاريخ البشرية السيكولوجي في توافق مع مسيرة «التفرد» الشخصية (انظر Neumann 1955) ، يكون الانتقال من لشكل حيواني الى الشكل الانساني ، في الأساطير كما في أحلامنا ، مترجماً عن مزيد من «الوعي» (الشعور) ومن القوة الداعية .

Mellaert 1967 (٦٤)



النموذج النمطي للإلهة الذي برز بشكل جيد في أماكن أخرى والحاضر في العصر نفسه في أريحا والبيضا . بحيث لا يمكن أن تؤكد أن هذه الأشخاص الطينية من الجنسين ، ومع الإهمال البادي في صنعها عدا عن ذلك ، هي فعلاً تمثيلات إلهية . لعل الأشخاص الملتحين بموقع أريحا ومربط الرابعة يهيئون الرب الذكرى بموقع شطل ، الذي هو أيضاً ملتح ، ومُشرك إيقونوغرافياً مع الثور . من المؤكد على كل حال أن تقديساً للثور كان موجوداً في مربط بمزارعة بروز الإلهة بل وقل ذلك بقرون . يبدو الفرات الأوسط ، بهذه الثنائية ، ييسر بالزوج الإلهي الأكثر صراحة بكثير الذي سيمثله ، في قته ، النيوليتي الأناضولي .

لكن ، إلهاً أو إلهة ، ليس الشكل الانساني هنا سوى رداء لقوة إلهية كان لشكل حيواني أن يستحضرها بالأمس<sup>(٦٥)</sup> . أجل إنه لتطور هام أن يحل جسم الانسان وظيفة رمزية متزايدة الهيمه ، وسوف نحيل ، في العصر التاريخي ، كما يعلم الجميع ، الخيوانات على دور «محمولات» مساعدة لآلهة جميعها إنسانية الشكل .

إن «عبادة الجماجم» قد تعني ، من جهتها ، شيئاً مختلفاً أيضاً . لعل هناك مبالغة ، على الصعيد الاستيطقي ، تحول الهيئة الفردية والشخصنة للقولبات الجمجمية<sup>(٦٦)</sup> . يبقى ، في ما - بعد التقوى الخنازيرة المخض التي تعود صعداً ، عالياً جداً ، إلى بشرية العصر الموستيري ، أن نيوليتي الألف السابع قرروا الاحتفاظ بصورة بعض ذويهم الراحلين حاضرة ورمزية لجماعة الأحياء . الجماجم ، سواء عُرضت في حالتها الطبيعية كما في مربط الرابعة أو مقولة على صورة الحي كما في أريحا أو بيمسون أو رماد ، إنما تبدو ، بحكم كثرتها أو تجاورها المراد داخل المساكن ، شيئاً آخر مختلفاً عن أن تكون مساند رمزية لقوة غير متميزة ، إنها بالتأكيد استحضار الأشخاص الذين كانت تنتمي لهم . من هنا التعبير المشروح «عبادة الأجداد» الذي أطلق أيضاً على هذه الظاهرة<sup>(٦٧)</sup> .

في عصر تنعّم فيه الزراعة مع النتائج ، التي أشار إليها فلانري ، التي استبجها على

(٦٥) تلك حال الثور ، والفهد ، في شطل هيك بوصفهما بديلاً حيوانياً عن الإلهة .

(٦٦) بالحقيقة ليست موهبة المصور أمراً لا شك فيه إلا بالنسبة لجمجمة واحدة في أريحا (الرسم ٣٢ رقم ٣)

(٦٧) ليس مستحيلاً أن يُعز عن هذه العبادة ذاتها ، في أواخر النيوليتي السابق للفخار B في أريحا ، بـ «التمثيل» التي تذكر تقنياتها (تمثيل الميون بقرع ، تلويحات بنية في شكل أشربة : انظر الرسم ٣٠ ، رقم ١) تماماً بتقنية القولبات ، إذا استتبنا إعادة استخدام الجمجمة . ذلك أول تطاهر لعن إنساني الشكل وبالحجم الطبيعي ، فالقصد الواقعي يمتد اذن الى المقاييس . الخيار بين هذا التأويل وتمثيل الآلهة يبقى بالتالي مفتوحاً .

تملك المجال بوصفه قطعاً من الأرض «بقيمتها» الشغل الزراعي<sup>(٦٨)</sup> وانتقال هذه القطع بالوراثة ، من المفيد والهام أن نجد في الثقافة غير المادية الآثار المادية لايديولوجية نبوة . تتم الأمور كما لو أن البشرية التي أتت إلى موقف أكثر فعلاً ونشاطاً إزاء الطبيعة «قيمت» في الوقت نفسه في ذات أعينها نوعها ذاته لدرجة جعلتها تقيم له مزيداً من التكريم اليومي في شخص أعضائها الراحلين .

هنا نعود ، في مستوى عياني أكثر أيضاً ، إلى ملاحظتنا الآتية . سواء كان الأمر إعطاء الانسان شكلاً لمراجعة الأسطورية أو توطيد وعيه الواضح لنسله الشخصي ، فإن مايسعد آنذاك في فكر وثقافة المزارعين الأوائل هو صورة الانسان .

### الأسس النفسية للاختراع

الأغراض الأولى من الطين المشوي هي ، كما رأى القارئ ، في مربط الثالثة الشخص البشرية جوهرياً ، مع الآنية الصغيرة المتفاوتة الشيء والتي وصفناها أعلاه<sup>(٦٩)</sup> . الأغراض الأخرى الوحيدة المعاصرة المصنوعة من المادّة نفسها هي (في مربط وشيخ حسن) أقراص وأسطوانات وأشياء أخرى غير تصويرية . والأمر كذلك ، حسب شقندت - بترات ، بالنسبة للأغراض الأولى الفخارية في جبال زاغروس ، في آشباب حرم شهر : إنها تماثيل تصويرية أو أشياء هندسية ملغوزة المعنى<sup>(٧٠)</sup> ، أي أغراض لا يمكن فهم حضورها المادي بدون الرجوع إلى محتوى رمزي . ولقد ظهر لنا أن سياقاً دينياً أكثر منه نفعياً لأمر بدهي بالنسبة لهذه الأغراض كافة ، تصويرية وغير تصويرية . وبدا لنا أن الأمر لا يختلف بالنسبة للإبداعات الأولى بالحجر المصقول في المربط : أنواط - قُصبيات التطوفي ، ثم القضبان المصقولة . هل سيتوجب علينا ، وإن كره الوضعانيون ، أن نلقي بهذه التقنيات الوليدة ، مع كل مانع من بذور تقدّم تقني هام ، في كفة الممارسات الدينية ؟

بالحقيقة لن يندعش إلا أولئك الذين يرون أن ينسوا ما تعلمنا إياه كتب تاريخ العلوم أو كتب الانثوغرافيا جميعاً : الكيمياء الحديثة آتية من السيمياء ، صناعات التعدين البدائية مشبعة بالطقوس ومقيدة بالغرمات «السحرية»<sup>(٧١)</sup> ، باختصار إن عالماً من الهوامات ومن الإسقاطات اللاشعورية يطبع كل التكنولوجيا في بداياتها الأولى .

(٦٨) والأمر كذلك بالنسبة للحيوانات حين ، مع التربة ، ينتمي القطيع للقرية ويكر أيضاً أن يُنقل فيها

(٦٩) انظر آنفاً ، الفصل السادس ، عند الحاشية ٧١ .

(٧٠) يقرها Schmandt - Besserat 1974 بـ «الخصى الحساية» العراقية في الألف الثالث .

(٧١) Elade 1956 .

ثمة سؤال تقود أحدث البحوث عن آلية الاختراع<sup>(٧٢)</sup> إلى طرحه : بدلاً من أن تكون نوعاً من براز لاعقلي يتوصل حرص على الحدوى الموضوعية أساسي وأول إلى التحرر منه شيئاً فشيئاً ، أفلا تكون هذه الهوامات وهذه الإسقاطات على العكس من ذلك محرك الاكتشافات عينة ، ولا يتخذ الفعل الخلاق غاية عيانية إلا بعد الضربة ؟

إن الإدخال المؤخر في سوربة للصقل واللفخار في الأثاث النفعي يبدو مثبتاً هذه الرؤية . مثلما لم يكن اختراع الطائرة ، في الأصل ، فعل مهندسين حرصوا على تحسين تقليدنا بل كان عمل هواة جرفين يعيشون من جديد أسطورة إيكاربوس ، أي يحاولون أن يخرجوا في ممارسة جرفية «حلم الطيران» ، بوصفه هوماً يكاد أن لا يكون واعياً ، كذلك ينبغي من أجل تحليل طابع الأغراض المصقولة الأولى «غير النافع» ، لكن «الرائع» ، التوقف طويلاً عند فعل الصقل نفسه ، عند الرنين الحياتي لهذه الكيفية ، الجديدة تماماً آنذاك ، في تكييف الحجر بعملية حلك إيقاعي مديد ، وعند الإجلال اللاعقلي الذي لا بد أنه قيم منتجاتها الأولى .

وكذلك أيضاً ، حين نقدم اكتشاف الطين المشوي كأنه نتيجة المعاينة الاختيارية الباردة للشيء اللاإرادي لحوائف الحفر - المواقف الطينية ، ليس أكيداً أننا لانسقط هنا على تلك الحادثة القديمة «ذهبتنا العلمية» ذاتها ، مع أن بروزها في الغرب شيء حديث بما فيه الكفاية . لعل من المناسب أن لا يعزو علماء ما قبل التاريخ لبشر ما قبل التاريخ الخيال الجاف بعض الشيء الذي يتصف به ميدانهم العلمي ذاته . بالتأكيد ليس من قبيل المصادفة أن يكون أول فن خزفي قد أعطى شكلاً في البداية لرموز ستظهر بعد ذلك في كل مكان ، على حين أن فخاريات مريبط الأولى ، التي تكون منفعتها العملية قليلاً أكثر جلاءً ، تمثل بوصفها اختراعاً شارداً ، رفضته ثقافة العصر واختفى حتى أواخر الألف السابع .

كما بين بريل<sup>(٧٣)</sup> ، إن غرضاً ثقافياً بعيداً إلى حد كاف عن مصادره لهو برقته يستحق أسئلة وضعية وإيجابية تماماً عن صنعه وعن وظيفته التقنية ، وهذا ماكانه عمل لوروا - غورهان مثلاً . بالمقابل ، إن المرحلة الرمزية التي تدشن بعض الإبداعات الهامة تنسب إلى نموذج من البحوث مغاير تماماً ، يأخذ حساب المتضخّنات النفسية لتمازج الإنسان مع المادة . إن ما بهم هنا هو أن هذه المتضخّنات كانت في الأصل على ما يكفي من القوة لكي تتخرج مادياً في مجموعة من الحركات والممارسات ولكي تفضي إلى تشكيل أغراض واقعية وإن كانت في البداية محفوظة لعالم الثقافة «الخالصة» المطوي على الذات .

Bril 1973 (٧٢)

Bril 1973 (٧٣) ، ص ١٠٩

## الخاتمة

### الثقافة عامل تغير

إن الفعالية الذاتية للنفسية البشرية التي تتخطى على نحو واسع ، كما يقول لوسيان سيف<sup>(١)</sup> ، حدود الكائن العضوي وحاجاته ، هي ربما الأمر الذي يُنسى أكثر من سواه حين يحاولون شرح أسباب التقدم الذي يؤلف الاستقرار الحضري مرحلة أساسية فيه . بالتأكيد ، ليس المجتمع البشري وحيداً في وقت من الأوقات ، بل ينبغي عليه دائماً التلاؤم مع بيئة ما ، وإن المنظور الأيكولوجي الذي تندرج فيه البحوث في الشرق الأدنى منذ الدفع الذي نالته من فريق بريدوود يبقى الإطار الطبيعي والمختوم الذي يجب أن يلاحظ فيه ، بطرائق منقمة ومحكمة على الدوام ، لعب الأفعال وردود الأفعال الجدلي بين المجتمعات القروية ومحيطها . لكن لماذا الأيكولوجيا البشرية تطرح مسائل مختلفة كل هذا الاختلاف عن مسائل الأيكولوجيا الحيوانية ؟ ما هو السبب في ن تغيراً حاسماً يحصل في وقت من الأوقات وليس في غيره ، لماذا مثلاً النطوفيون ، وكانت بيئتهم شبيهة ببيئة الألفين الثامن أو السابع التالين ، لم يزرعوا حقولاً ولم يربوا ماعزاً ؟

كان جواب بريدوود العبارة الشهيرة : «لم تكن الثقافة جاهزة» ، «culture was not ready» ، وهي شهيرة لأنها كثيراً ما تروى على لسان باحثي المدرسة الأميركية الجديدة ، بوصفها النموذج الأعلى ، وأسفاه ، للحكمة ما قبل العلمية التي يجب تجاوزها . . . والحال ، لقد وضعنا جميع مؤلفات الاستقرار الحضري القابلة للادراك في موازاة منهجية ، بدءاً من المسند الطبيعي للتغيرات وصولاً إلى الآلهة الجديدة . والعامل



المقرر في التجارب الزراعية الأولى تبدى لنا مبادرة إنسانية لاثرة ضغط من البيئة . كان على المجتمع أن يتكيف مع نفسه ، مع معضلاته الداخلية ، بتغيير استراتيجياته ، لامتصاص بطلان استراتيجياته السابقة نسبة إلى حاجاته الغذائية . إن المكائفات أو المراكز الاصطناعية للحبوب ، وكذلك ربما الصيد المتخصص للعاشبات الكبرى ، كانت تعبر عن تقدم للعمل المنظم ، يمكن أن ندركه في فنون العمارة أيضاً ، داخل مجتمعات تمت ، وكان فيها هذا التنظيم عينه شرط نمو ديموغرافي مولد لتوترات اجتماعية .

إنه من جهة أخرى العصر الذي أصبحت فيه القرى المستقرة ، التي كان نظامها الغذائي حتى ذلك الحين مبنياً على الاستثمار المتنوع للموارد البرية ( brood spectrum ، طيف رحب ) ، تضيق أو «توثق» خياراتها . بطبيعة الحال ، لا يمكن لهذه الخيارات أن تمارس خارج مايقترحه المحيط بل وقد يملأها هذا المحيط إملاءً في بعض الأحيان<sup>(٢)</sup> . لكن حين يكون هامش الحرية أكبر بفضل تنوع أكبر في الممكنات ، عندئذ تظهر أهمية الثقافة . البقر الوحش والخيول المقنوسة في مربيث الثالثة لا تشكل طعام الأساس ، لا عند نطوفتي الفرات ولا ، على مسافة ٢٠ كم من المربيط ، لقروبي أبو هريرة اللاحقين ، فحيارهم غير ذلك ، وهذا الفرق ليس مرده كما يبدو لدرجة توافر القطعان حولهم .

كيف إذا تم هذا الخيار ؟ لقد رأينا أنه حين دخل الثور (والحمار على الأرجح) المسرح في المربيط ، منذ ٨٢٠٠ ، فقد دخلاه في حضن تركيبات رمزية غير نفعية . ولقي أثر هذا الانتخاب الرمزي ، حيث أن استهلاك هذين الحيوانين ظل حدثاً نادراً ، سيغدو القرويون على سبيل التفضيل صيادي أبقار أو خيول ، بل ربما مرتين - بادئين للأبقار ، الأمر الذي يثبت كما يبدو فرضية ريد عن عملية فصل ديني مثقلمن في الممارسة الاقتصادية ، تبعاً لموديل هو في الحاصل قريب إلى حد كافٍ مما تعاناه بالنسبة للتقنيات الجديدة .

إذا كان لهذه الوقائع المكدودة التي تكشفها دراسة الطبقات معنى ، فمعناها أن الظاهرة الثقافية ليس فقط يمكن أن تسبق التغير الاقتصادي ، بل يمكن أن تثيرها وتسيبها ، أن الظاهرة ديناميكية ، أنها تخفي في نفسها قوة تحرك وتحول للبيئة الاجتماعية بمجموعها ، و ، بانعكاس الضربة ، للبيئة الطبيعية التي تغمر المجتمع .

هذا مرده بالتأكيد للطابع الخاص جداً الذي يسم التلازم البشري مع هذه البيئة .

(٢) هكذا ، حسب تأويل هيكس ، تبدو حال الأهمية المبكرة التي أحرزتها العنزة في البيضا ، بما يتناقض مع تفصيل النطوفيين الاعتيادي للفرال . انظر آنفاً ، الفصل الخامس ، عند الحاشية ٧٢ .

فالإنسان لا يتكيف مع الطبيعة الخام وحش ، بل مع الطبيعة كما تدركها نفسيته ، عبر الفعل الانعكاري الذي يفرد نوعنا . كما قال البعض ، إن «قبل - العلم الغريزي» preexistence instinctive (مصطلح ديال) الذي يكيف الحيوان عفويًا مع جواره يخلي المكان هنا لـ «تكيف فريد ، سيكولوجي الطبيعة ، وهو في سلم النوع ونطاقه قابلية للتكيف»<sup>(٣)</sup> .

هذا التلازم يتضمن ويقتضي وعياً ، و ، داخل حدود معينة ، حرية خيار وخلق ، لكن أيضاً «قلقاً أولياً» وعدم أمن . العالم مدرك عبر ارتكاسات عاطفية قوية ، تجعل ، على سبيل المثال ، أن ثوراً كبيراً من نوع Primigenius كان ، قبل تمثيله لنصف طن من اللحم هائناً ، كان بادئ ذي بدء حيواناً مخيفاً ، قادراً على أن يرمز إلى ألف لون من ألوان الرعب اللاعقلية المكتبة في صميم الإنسان<sup>(٤)</sup> .

هكذا يكف الواقع الطبيعي ، الذي تشحنه النفسية الانسانية بتحديدات إضافية ، عن كونه مشهداً محايداً أو «ذخراً» موضوعياً وحسب : إنه أيضاً مشكل داخلي . السلوك العيني لإزاءه ، الذي يتضمن قوة انفعالية كبيرة ، هو بأن معاً تابع لتطور هذه العوامل النفسية وجاهر للاستفادة من القوة الطاقية الملازمة لها حين ستحول الاعتلالات السالبة إلى نبضات موجبة ورغبة فتح<sup>(٥)</sup> .

لذا فالتغيرات التاريخية للنفسية الجماعية ذات أهمية كبيرة ، فهي التي تحول حاجات الزمرة (الحاجات التي ليست بيولوجية إلا بشكل جزئي جداً) والتي تستطيع إذا أن تقرّر سلوكيات جديدة ، حتى في الممارسة الطعمية . لقد بين ساهلنس بشكل جيد أنه لكن كان الصيادون - القاطفون يعيشون «مجتمع وفرة»<sup>(٦)</sup> ، فذلك لأن ثقافتهم ، أي «وسطهم الداخلي» ، كانت تصون ، في التوازن ، هذه الحاجات عند أدنى مستوى . ثم جاء اللاتوازن ، ومعه التغير . تساءلنا عن أسباب اللاتوازن وعن محرك التغيرات . وأظهر تحليلنا للوقائع ، في ظروف أساسية عديدة إن الأسباب الاقتصادية ماكان يمكن أن تكون

(٣) Bril 1973

(٤) انظر Durand 1969

(٥) استرجاعاً لمثال الثور ، تعلم أن الخشية التي يثيرها يمكن أن تنقلب إلى جراءة ، وهو انقلاب توحى به أصلاً ، في رسوم شغل تلك ، الدوريات «البطولية» التي يؤديها الصيادون المسلحون حول الثور ، وفي وقت لاحق مصارعات الثيران في حضارة كريت .

(٦) Sahlins 1972

مقررة . مع ذلك كان هناك إعجاب بأن كل مرحلة حاسمة كانت تسمها فقرة كمية في كثافة الزمر البشرية : سواء إبان الانتقال من الكهف إلى القرية «الحضرية - التمهيدية» أو في الألف الثامن عند ظهور الجماعات «الزراعية - التمهيدية الأولى» ، أو أخيراً ربما ، في أواخر الألف السابع حين احتلّ الزراعيون مناطق من بلاد الشام ثركت خالية حتى ذلك الحين (الساحل ، المناطق القاحلة) لأن شروطها الأيكولوجية لم تكن صالحة للزراعة البائدة .

والحال ، كانت هذه القفزات الديموغرافية تقتضي وتتضمن ، في كل مرة ، طريقة جديدة في التماكن وفي عيش العلاقات بين الدوات ، إذن قابلية للردّ نوعاً ما «من الداخل» على التغيرات التفسية التي ترافق دوماً مراجعة الزمر لبنائها وتغييرها لها . يتبدى هنا أن دور الثقافة تشكيل هذه القابلية . فهي في مريط ، التي تستبق بشكل مرثي الحالة الاجتماعية - الاقتصادية الجديدة . إن حزمة كاملة من المبتكرات التي ليست لها غائية عينية (عبادة الثور ، ظهور الإلهة ، طرق جديدة ، مشرطة نفسياً إرشاطاً بالغاً ، في صياغة المادة على نحو رمزي بحث) هي في منشأ هذا «التفتح الثقافي» الذي ستظهر في داخله وبأن معاً مقارنة جديدة فاتحة للبيئة الطبيعية وتكنولوجية أكثر فقلية ، وفي هذا الاطار ، تبدو بعض الاتجاهات الخاصة (مطاردة البقر ، الفؤوس المصقولة ، وفخار الاستعمال في وقت لاحق) ، تبدو محكومة بعمليات فصل سيكولوجية اختبرت من قبل في سياق غير مادي .

لذا فإن «جرد الموارد» الذي بات يقوم به علم البيئة القديمة الحديث بمناسبة كل تنقيب سيكون في الحاصل أكثر الأعمال عبثاً ويطلاقاً فيما إذا لم يصحبه الوعي الواضح لواقع أن المحيط نفسه تتناوله الزمرة وتدركه بحدود ومفردات القيم الثقافية والاجتماعية («الطبيعية في ذاتها» لاوجود لها .) ولواقع أن منبع المبتكرات الأكثر إبداعاً هو النفسية الإنسانية ولواقع أن الثقافة هي فعلاً هذا «المختبر الجماعي» الذي تهيم البشرية فيه انعطافاتها الكبرى .

في العالم الحاضر ، حيث بدأت إيديولوجيات فائقة الحرص على الاضطلاع بالحاجات الأكثر عناية لمجتمعنا تتساءل عن الطبيعة الحقيقية لهذه الحاجات ، وحيث جاءت اتجاهات أخرى أكثر جذرية أيضاً لتنادي بـ «ثقافة - مضادة» رداً على تناقضات اقتصاد غارٍ مكتسح ، قد لا تكون هذه التأملات القليلة المستوحاة من ماضٍ بعيد ، بعيداً عن الراهن .

انتهى

	PALMIRIENE	EUPHRATE	DAMASCENE	PALMYRINE	ELIGORIAN	PERIODS
6000	Abou Gash	Bosman	II	II	Ras Shamra	IV
5500		Tell Th	Bouqras	Ramad I	YU	
		Shubata II	Asswad	Asswad		
5000		?	?	Asswad		
4500	Natal Oren PPSB	Munbata 6-4	Murebet IV B	Asswad II B		III
		Jericho PPSB	Murebet IV A	Asswad II A		
4000		Chagasta	Murebet IV A	Asswad I B		
		Jericho PPSA	Murebet III B	Asswad I A		
3500	Natal Oren PPSA	Jericho PPSA	Murebet III A			II
	El Oued B I	El Khum	Murebet II			
3000		Talal	Murebet I B			
		Jericho PPSB	Murebet I A			
2500	Natal Oren A	For Mon Sol				I
	Bouli Zou R. Hureba	Malaba	Abou Dureya Natouba			
2000		Beila				
1500		El Khum O. ca Zoumba				
1000		Engel Abou				
	Abou Dureya					
500						
0						

جدول التوافقات الكرونولوجية



## فهرس المواد

٥	مقدمة المترجم
٤٣	مقدمة ر. ج. بريدوود
٤٥	توطئة
٤٧	الفصل الأول - عملية الاستقرار الحضري
٥٥	الفصل الثاني - «الخروج من الكهوف» والاستقرار الحضري
٦٩	الفصل الثالث - التطور المعماري من النطوفي حتى أواسط الألف الثامن
	الفصل الرابع - التطور المعماري (تابع) :
٩٣	في أواخر الألف الثامن وفي الألف السابع
١١٥	الفصل الخامس - إنتاج القوت
١٣٥	الفصل السادس - التطور التكنولوجي
١٥٧	الفصل السابع - الوثائق الفنية والدينية
١٩١	الخاتمة - الثقافة عامل تغير
١٩٥	جدول التوافقات الكرونولوجية
١٩٦	جدول التأريخات بالكربون ١٤
١٩٨	لائحة المراجع
٢٠٩	الفهرس

- VAUX, R. de et STEVE, A.M. 1947. La première campagne de fouilles de Tell el-Farah près Naplouse, *Revue Biblique*, 54, 394-433.
- VITA FINZI, C. et HIGGS, E.S. 1970. Prehistoric economy in the Mount Carmel area of Palestine. Site catchment analysis, *Proceedings of the Prehistoric Society*, 36, 1-37.
- WAECHTER J. d'A. et SETON-WILLIAMS V.M. 1938. The excavations at Wadi Dhobai 1937-1938 and the dhobai industry. Archaeological report, *Journal of the Palestine Oriental Society*, 18, 172-185.
- ZEUNER, F. 1955. The goats of early Jericho, *Palestine Exploration Quarterly*, 70-86.
- ZEUNER, F. 1963. *A history of domesticated animals*. Londres. Hutchinson, 560 p.
- ZOHARY, M. 1969. The progenitors of wheat and barley in relation to domestication and agricultural dispersal in the old World. p. 47-66 in : UCKO P.J. et DIMBLEBY ed. *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres. Duckworth, 381 p.